


هُوَ







# كتاب الجدليات







د. رشيد الجراح

# *Certificate of Registration*
# *CopyrightFrance*

*Copyright Registration Number:* 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

**The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.**

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.





3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

# كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

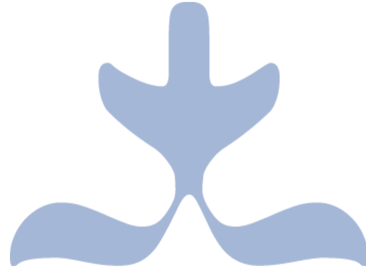

**فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:**

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

**للإتصال بالفريق :** roohblog2025@gmail.com

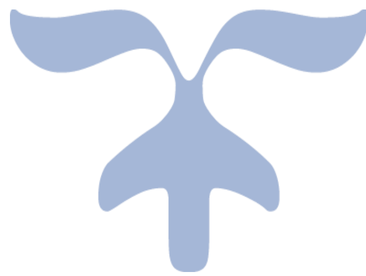
# الفهرس:

## الفهرس



# كتاب الجدليات

## عقيدتنا التي نؤمن بها



# مقدمة: عقيدتنا التي نؤمن بها

لقد أثار كلامنا حفيظة عدد من القراء، فظنوا أننا بهذا الطرح الذي نقدمه لا نؤمن بالأحاديث الشريفة التي تتحدث عن المواضيع التي كنا قد تطرقنا لها، وهم ينعتونا – حسب استنتاجاتهم هم من كلامنا نحن- أننا لا نؤمن إلا بما جاء في القرآن الكريم، وهم يعتقدون أن هذا عيب واضح في طرحنا، وكأن لسان حالهم يقول أن مثل هذه الأمور لا يمكن فهمها بمعزل عن السنة (أي ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول).

ونحن في هذا المقام نود أن نلفت انتباه القارئ الكريم إلى أمور أساسية تشكل القاعدة الصلبة في عقيدتنا التي نؤمن بها، وبالتالي فهي القاعدة التي نبني عليها الاستنباطات التي نخرج بها والتي تخالف – في معظم الأحوال- ما ذهب إليه جمهور العلماء، وما هو متداول في الفكر السائد عند أتباع معظم الفرق الإسلامية.

⇐ نحن لا نلتزم بأي مذهب أو طائفة في ما نذهب فيه وفيما نخلص إليه من استنباطات من كتاب الله، فنحن طلاب علم منهجنا أكاديمي بحت، نبحث عن الحقيقة أينما وجدت وحيثما حلت، فلا نتخذ موقفاً عقائدياً معيناً مسبقاً لنبحث عن أدلة على صدق موقفنا كما تفعل غالبية (وربما كل) الفرق الإسلامية، فعقيدتنا تتمثل بما يلي: ما جاء في كتاب الله هو ديننا وهو عقيدتنا مهما بلغ من الغرابة (كما قد يظن البعض) حتى لو خالفنا في ذلك كل أهل الأرض، فأنا أؤمن أني ذاهب إلى ربي لأقف بين يديه وحجتي هي: لقد جئتك ربي مؤمناً بكل ما قلت أنت، ولم آتيك متسلحاً بآراء مذهب أو طائفة، فإن أنت قبلتني فهي رحمتك وإن أنت طردتني فمن عدلك.

⇐ كما نود أن نجلب انتباه القارئ إلى حقيقة مفادها أننا لسنا علماء شريعة لنعرض عليكم الآراء العقائدية السائدة حول الموضوع الذي يتم طرحه، فتلك محلها كتب الأحكام، ونحن لسنا أكثر من طلاب "علم اللغة"، نحاول فهم النص اللغوي كما يرد في كتاب الله بالمنهجية التي نظن أنها صحيحة، وهو – على ما نظن- اللبنة الأولى لاتخاذ المواقف العقائدية. فننطلق من المبدأ الثابت المتمثل بأن كلام الله كلام دقيق مقصود بلفظه، فلا يجب ليّ عنق النص ليتكيف مع المواقف العقائدية المسبقة، ولا مبرر للتبديل أو التأويل غير المنضبط بالقواعد الواضحة، لأن ذلك سيجعل كلام الله عرضة للأهواء والأغراض، وسبباً في الاختلاف.

⇐ ولما كان الهدف الجوهري هو فهم النص القرآني لم يكن هناك داعي في هذا المقام أن نستجلب الأحاديث الشريفة للتأييد أو الرفض، فأهل الشريعة هم من يقوموا بمثل هذا العمل. وهنا حصل الخلط في الفهم عند البعض، فلقد ظن البعض أن خلو كلامنا من الأحاديث الشريفة ربما يفهم منه أننا لا نؤمن بالأحاديث النبوية، لذا نجد لزاماً التأكيد على أن خلو كلامنا من الأحاديث الشريفة لا يجب أن يفهم منه أننا لا نؤمن بها

⇐ ولكن يجب التنبيه إلى أمر غاية في الأهمية ربما يلخّص موقفنا فيما يخص موضوع الأحاديث الشريفة، فموقفنا يتلخص بالعبارة التالية: أقسم بالله العظيم أنني أؤمن إيماناً مطلقاً بكل ما صدر عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم من قول، كيف لا وهو الذي قال الله في حقه:

- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: 3-5]
- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٨٠﴾ [النساء: 80]

⇐ فبعد هذا الكلام الفصل، كيف لأحد (كائن من كان) أن يخرج ليقول أنني لا أؤمن بما قال صلى الله عليه وسلم؟ إن إيماني مطلق بكل ما قال صلى الله عليه وسلم، لا بل فإن لي موقف عقائدي يذهب إلى أبعد من هذا بكثير بخصوص قول النبي ربما لا أستطيع أن أبوح به أو أن أدخل بتفصيله هنا، وسأفرد له مقالة خاصة بحول الله وتوفيقه، وذلك لأهميته من منظور عقيدتي التي أؤمن بها، ومفاد القول هو عدم الفصل بين قول الله وقول نبيه الكريم، لذا فالإيمان بأحدهما لا يمكن فصله عن الإيمان بالآخر.

ولكن في المقام ذاته يجب التنبيه إلى ما يلي: ففي حين أن إيماني مطلق بكل كلمة (لا بل وبكل حرف) قالها صلى الله عليه وسلم، إلا إنني لا أؤمن إيماننا مطلقاً بكل ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، فنحن ندعو إلى التفريق بين الإيمان بما قال صلى الله عليه وسلم والإيمان بما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا فرق كبير، ففي حين أن ما قاله النبي صحيح صادق ليس فيه ما يشوبه، لم يكن ما نقل عن النبي كذلك على كليته، فأهل الحديث أنفسهم قد وضعوا تصنيفات لما نقل عن النبي، فأوردوا الصحيح والحسن والضعيف وحتى المدسوس، لذا كان لا بد من التيقن والحذر عند التطرق لما نقل عن النبي، وللأسف فإن العامة (وبعض أهل الاختصاص) يستشهدوا بكل ما نقل عن النبي وبكأنه صحيح لا شائبة فيه، فكم من الخطب والدروس وحتى بعض الأحكام بنيت على أحاديث لا ترقى إلى درجة حتى الضعيف من القول، وسأقدم مثالاً واحداً هنا للتنبيه إلى هذا الأمر (هذا وقد قدمت أمثلة أخرى في مقالاتي السابقة حول هذا الموضوع، فالقارئ المهتم يستطيع الرجوع مثلاً إلى مقالة جدلية عذاب القبر ليقف عند مثل هذه الأمثلة)، أما المثال الذي أقدمه هنا فيتلخص بفحوى ما نقل عن النبي عن مسألة سب الدهر، فلقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن سب الدهر في حديث قدسي، حيث نقل عنه أنه قال:

جاء الحديث بألفاظ مختلفة منها:

1. رواية مسلم : قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم يقول : يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر ، فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما .
2. الحديث كذلك أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر.
3. ورواه البخاري بلفظ: يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار.
4. ومنها رواية للإمام أحمد : لا تسبوا الدهر فإن الله عز وجل قال : أنا الدهر الأيام والليالي لي أجددها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك ( وصححه الألباني)

وسؤالنا هنا يتمركز حول الاستفسار التالي: هل من الممكن أن يكون النبي قد قال مثل هذا الكلام؟ هل فعلاً نهى النبي عن سب الدهر؟

إننا نفهم أنه من الاستحالة بمكان أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد قال مثل هذا الكلام، وقد يرد البعض بالقول: ولم لا؟ لم لا يكون الرسول قد قال هذا الكلام فعلاً؟ نقول أن هذا مستحيل لأن مثل هذا القول يتناقض بشكل صارخ مع ما ورد في كتاب الله، ولكن كيف ذاك؟

**نقول**: دعنا ندقق أولا بفحوى الحديث نفسه بصيغه المختلفة، النبي ينهى الناس عن سب الدهر، أليس كذلك؟ نعم، لأن الحديث نفسه يبين أن الإله (الله نفسه) هو الدهر (انظر صيغ الحديث المختلفة). والآن، إن كان هذا الكلام صحيحاً، ما الذي سنفعله إذن بما ورد في كتاب الله في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: 23-26]

**فسؤالنا هو**: إذا كان الدهر هو الله كما جاء في الحديث المنقول، فما هي مشكلة الكافرين الذين ظنوا أن الذي يهلكهم هو الدهر كما جاء في الآية الكريمة (وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ)؟

ولم يحتاج الله أن يذكّر في الموقف نفسه بقوله " قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ "؟!!

إن أهل الحديث مطالبون أن يبيّنوا لنا كيف يكون ذلك إن كان ما نقل عن النبي هو فعلاً قول صحيح يحتج به، ولا أخال أنهم يستطيعون ذلك دون التحليق في سماء المجازات (انظر تأويلات هذا الحديث عند النووي، وابن عثيمين، الخ.)، وهو ما نرفضه رفضاً قاطعاً لأن هذا سيجعل كل يغني على ليلى آه (للخوض في هذا الافتراض نطلب من القارئ الكريم مراجعة ما ورد في مقالتنا تحت عنوان: جدلية الحقيقة والمجاز).

**السؤال**: من نحن؟ وإلى أي فرقة أو حزب ننتمي؟ ربما يود البعض أن يسأل.

أما بعد،

**أولا**، إن الدين عند الله الإسلام، أليس كذلك؟

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: 19]

**ثانيا**: إبراهيم هو الذي سمّنا المسلمين:

- ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 78]

**ثالثا**: الله هو من أتمم علينا نعمته ورضي لنا الإسلام دينا، أليس كذلك؟

- ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: 3]

**رابعا**: الله هو من بيّن لنا أنه لن يقبل ممن يبتغي غير الإسلام دينا:

- ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: 85]

فلقد كان إبراهيم وذريته من بعده مسلمين:

- ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران: 67]
- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132]
- ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]

وعلى ذلك الدين اختار يوسف أن يموت:

- ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]

وكذلك كان موسى وهارون ومن آمن معهم:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس: 84]
- ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: 126]

وكذلك كان داوود وولده سليمان وكل من آمن معهما:

- ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ٣١﴾ [النمل: 31]
- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ٣٨﴾ [النمل: 38]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٤٢﴾ [النمل: 42]

وكذلك كان الحواريون:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

وكذلك كان محمد وصحبه الصادقين:

- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: 64]

وكذلك كان جميع رسل الله:

- ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: 136]
- ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: 84]
- ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: 90]
- ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت: 46]

**السؤال**: ماذا كان محمد وأهل بيته وصحبه إذن؟

**رأينا المفترى**: مسلمين.

- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: 161-163]
- ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٢﴾ [الزمر: 11-12]

**النتيجة مفتراة: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تصف عقيدة من كان من الفرقة الناجية:**

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت: 33]

**السؤال الذي أوجهه لنفسي بعد هذا الاستطراد هو**: إذا كان الدين عند الله هو الإسلام، وإذا كان إبراهيم هو من سمّانا كذلك، وإذا كان رسل الله جميعا مسلمين، وإذا كان الله هو من رضي لي الإسلام دينا، وإذا كان الله لن يقبل مني إن لم أكن مسلما، وإذا كان محمد قد أُمر أن يكون أول المسلمين، فلم إذن (أنا أتسال) اختار لنفسي أن لا أكون مسلما؟ ولِم اختار أن ألحق نفسي بمجموعة لا أعرف من أين جاءت تسميتهم؟ ولم اختار مجموعة تتخذ اسما لا أعرف من الذي سمّاهم إياه؟ ولِم التحق بركب لا أعرف من أين اكتسبوا الشرعية له؟ أليست تلك إذن مسميات هي من عند أنفسهم أو هي ما وجدوا آباءهم عليها؟ ولم التحق بأي جماعة لا أعرف متى بدأت ومتى يمكن أن تنتهي؟!

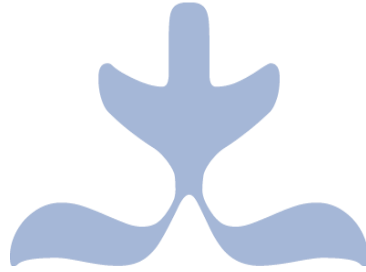
**رأينا**: أنا افتري الظن بأن أي تسمية غير الإسلام هي من الأدنى الذي لا أرضى به، لأنني اعتقد جازما أنها جميعا مسميات لا تعدو أكثر مما وجدونا عليها آباءنا عليه.

**نتيجة مفتراة: نحن نظن أن هناك فرق كبير بين من يدافع عن الإسلام ومن يدافع عن ما وجدوا آباءهم عليه. فغالبا ما تجد كل حزب (وكل طائفة وكل فرقة) يدافعون عن الموروث ليس لأي سبب إلا لأن هذا ما ألفوا عليه آباءهم. وهم لا يؤمنون بأكثر مما وجدوا آباءهم يفعلون.**

أما أنا فإني لا أدافع عن ما وجدت عليه آبائي ولكنني أدافع عن عقيدتي التي ألخصها بما يلي: اللهم أشهدك أني قد وجهت وجهي إليك مسلما حنيفا، وأعوذ بك أن أكون ممن رضي بغير الإسلام دينا، وأبرئ إليك من كل من ينسبني لأي طائفة أو أي فرقة كانت. وأسألك وحدك أن أكون من حزبك الحق، وليس ممن يتستر تحت مسميات لتمرير عقائد ألفوها من آبائهم، وهم لا يفقهون عواقب ما يفعلون:

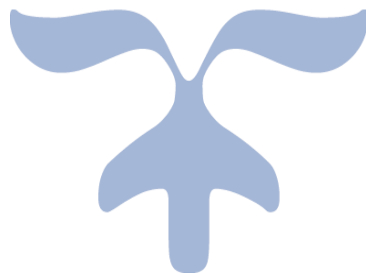
- ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة: 22]

**آمين، آمين، آمين.**



# كتاب الجدليات

# من هو هو؟ ج1



# من هو "هو"؟ - الجزء الأول

## من هو "هو"؟

من القضايا المنهجية الأولية التي لابد لنا من التعرض لها عند محاولة فهم النص القرآني بعيدا عن التحليق في عالم المجازات والاستعارات تتمثل - نحن نفتري الظن من عند أنفسنا- في طرح النظريات اللغوية التي صاغها البشر بأيديهم وافتروا القول ظلما وزورا بأنها تنطبق على كتاب الله. والهدف الرئيس من وضعها على طاولة البحث مجددا تتمثل في محاولة تهذيب هذه النظريات (أو لنقل الافتراءات البشرية)، فنتبنى منها ما يثبته التركيب القرآني (كما نفهمه)، ونترك - إلى غير رجعة- ما نجد أن النص القرآني يرفضه. وسنقدم هنا (على عجلة من أمرنا) بعض الأمثلة التي يمكن أن تبين الحاجة الماسة إلى إعادة النظر في هذه الصياغات البشرية للقوالب الكلامية المتوافرة في كتاب الله. ولنبدأ بنظرية استخدام الضمائر في الكلام التي تعرضنا إلى بعض جوانبها في الفصل السابق. مبتدئين النقاش من جديد هنا بطرح التساؤل المحوري التالي: لماذا لا نجد لغة بشرية تخلو من وجود الضمائر فيها؟ فما الحاجة إلى وجود الضمائر في الخطاب البشري أصلا؟

**رأينا المفترى**: لقد سطر أهل اللغة والكلام نظرياتهم المفتراة حول حاجة لغة التخاطب البشري إلى استخدام الضمائر من مثل أنا وأنت وهو وهي وهم ونحن، ونحوها، فخرجوا (بعد جهد عقلي شاق منهم) بتبريرات مفتراة من عند أنفسهم تتمثل جلها بالحاجة إلى اختصار الكلام والتخلص من التكرار والحشو فيه أولا، الأمر الذي يؤدي – برأيهم طبعا- إلى التماسك والترابط النصي الذي يخلقه استخدام الضمائر في النص (مكتوبا كان أو مسموعا)، الخ.

ونحن إذ لا نجد الحاجة ماسة إلى تفنيد ادعاءاتهم (فمن أراد ذلك فعليه أن يعود إلى كتب التنظير في علم اللسانيات عند كل أمم الأرض)، لنتجرأ في الوقت ذاته على افتراء الظن من عند أنفسنا بأننا نستطيع دحض افتراءاتهم هذه عند تقديم نظرية جديدة بدليه لكل نظرياتهم السابقة الخاصة باستخدام الضمائر. ونحن نتجرأ أيضا على القول بأن نظريتنا المفتراة التي ننوي طرحها على طاولة البحث للتدقيق والتمحيص هي نظرية لم نجد لها مثيلا (على حد معرفتنا الحالية) عند أي أمة من أمم الأرض. وعلى من يجد أن كلامنا القادم في هذا الموضوع قد جاء عند غيرنا من السابقين، فيقع على عاتقه تذكرينا، وسنكون له – لا شك- شاكرين مقدرين، وممتنين له أيضا أن هو أرشدنا إلى ذلك للاطلاع عليه أولا، ومن ثم لتوثيقه ونسب الفضل فيه إلى أصحابه بعد ذلك. فنحن لا نحاول أن ندعي الملكية الفكرية لعلم سبقنا إليه غيرنا، ولكننا نجتهد أن نسطر فقط ما نظن أنه من بنات أفكارنا التي لم يسبقنا إليه أحد من قبلنا. وفي هذا المقام، نجد لزاما علينا أن نلفت انتباه القارئ الكريم إلى أن كلامنا هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن ما سنقدمه هنا هو الحق المطلق بعينه، فكلامنا يستحيل أن يكون مطلق الثبات والحقيقة، بل هو – بنظرنا- ليس أكثر من نظرية منافسه لما هو موجود حاليا. ومن يستطيع ابطال نظريتنا هذا بالدليل، فله من الشكر والثناء، فهو يساهم – لا شك- في ارشادنا إلى ضالتنا المنشودة، فنكون – بإذن الله- من التابعين للحق حيثما وجد.

أما بعد،

تتلخص نظرينا المفتراة من عند أنفسنا بأن استخدام الضمائر في التخاطب أمر واجب في كل لغات الأرض وذلك لسبب واحد فقط، ألا وهو تغيّر الحالة. انتهى.

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**رأينا المفترى**: نحن نفتري الظن بأنه ما دام التغيير يعتري الشخص (أو الشيء) من لحظة إلى أخرى، فلابد إذا من استخدام أداة تعكس هذا التغيّر، لتصف الشخص (أو الشيء) في حالة راهنة بعينها. فعلى سبيل المثال، أحمد هو أحمد في كل الظروف والأحوال، لكن أحمد البارحة غير أحمد اليوم بسبب ما طرأ عليه من تغيرات بدنية ونفسية واجتماعية، الخ. والشجرة هي الشجرة ذاتها، لكنها في حالة تغير مستمر في جميع الأحوال والظروف، فهي مختلفة اليوم عما كانت عليه البارحة وإن كانت هي الشجرة ذاتها؛ فشجرة البارحة كانت مثلا مثمرة مخضرة، وشجرة اليوم مخضرة لكن ثمارها قد قطفت، وشجرة الغد لا خضرة ولا مثمرة بسبب دخولها فصل الخريف، وهكذا، أليس كذلك؟

**السؤال**: وما علاقة هذا باستخدام الضمائر؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

**رأينا المفترى**: نحن نظن بأنه إذا كنا نقصد الشخص أو الشيء ذاته بغض النظر عما يعتريه من تغير أو تبديل بتقلب الزمان والمكان والحال (أي ذات الشيء)، فإننا سنستخدم الاسم الدّال عليه، لكن إن كنا نريد الحديث عن الشخص أو الشيء في حالة ما من حالاته المتعددة، فعلينا أن نستخدم أداة تدل على هذا الشخص أو ذاك الشيء في تلك الحالة على وجه التحديد. ومن هنا – نحن نفتري القول- جاءت الحاجة إلى استخدام الضمير الدّال على الشخص أو الشيء في تلك الحالة الراهنة. وهذا يعني بالضرورة أن الضمير يدل على الشخص أو الشيء في حالة واحدة من حالاته، ويعني كذلك بأنه إذا كانت الكينونة (الشخص أو الشيء) التي يعود عليها الضمير غير متغيرة اطلاقا، فإن استخدام الضمير يصبح غير إلزامي، أو ربما يتطلب استخدام الضمائر بطريقة مغايرة. انتهى.

---

**نتيجة مفتراة 1: نحتاج إلى استخدام الضمير ليعكس حالة واحدة من حالات الكينونة إذا كان يعتريها التغير بسبب الظروف المحيطة، فكل كينونة قابلة للتأثر (وبالتالي التغير)، فهي كينونة غير ثابتة، تتغير حالتها بتغير الظروف المؤثرة فيها.**

**نتيجة مفتراة 2: لا نحتاج إلى استخدام الضمير في حالة أن الكينونة غير متغيرة، أي لا تتأثر بالعوامل الخارجية. فتكون إذا كينونة مؤثرة بغيرها، ولا تتأثر بغيرها. انتهى.**

---

**الدليل**

لو أمعنا التفكر في استخدام الضمائر في كتاب الله، لوجدنا ما يلفت الانتباه، خاصة فيما يتعلق باستخدام الضمير للذات الإلهية.

**السؤال**: ما هو الملفت للانتباه في استخدام الضمائر العائدة على الذات الإلهية؟

**جواب مفترى**: لو تدبرنا جميع السياقات القرآنية أو حتى الكلام على جميع ألسنة البشر، لوجدنا بأن الضمير يأتي لاحقا (وليس سابقا) للاسم الذي يعود عليه، فنقول مثلا (فلان هو ... والقوم هم ...، الخ.). لكن – بالمقابل- نجد الضمير (هو) – على وجه التحديد- يأتي سابقا لأي اسم من أسماء الله الحسنى خاصة اسمه الأول (الله). ولنقرأ السياقات القرآنية التالية جميعها مركزين على مكان تواجد الضمير (هو) مصاحبا لأسماء الله الحسنى جميعها:

- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: 22]
- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: 23]
- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام: 3]
- ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: 38]
- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: 70]
- ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ: 27]
- ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: 4]
- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 24]
- ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: 1]

**ليكون السؤال الآن هو**: لماذا يأتي الضمير "هُوَ" سابقا لأي اسم من أسماء الله الحسنى كما جاء في هذه الآيات الكريمة كلها بينما يأتي لاحقا للأسماء الأخرى التي هي جميعا دون الله؟

**رأينا المفترى**: لو تدبرنا استخدام الضمير "هو" مع غير الذات الإلهية، لوجدنا بأن الضمير يتبع الاسم، فنقول (فلان هو الذي سرق البيت وفلان هو الذي تصدق بالمال)، وربما يكون هو الشخص نفسه في كلا الحالتين، فقد يكون هو الذي سرق وهو نفسه الذي تصدق. لكن بالرغم أن الشخص هو ذاته، إلا أن الضمير هو يعبر عن الشخص في ظرف ما (زمانيا ومكانيا ونفسيا)، فـ "هو" الأولى (السارق) تختلف عن "هو" الثانية (المتصدق) بالرغم أن كلاهما يعود على ذات الكينونة (فلان). ومما لا شك فيه أن هذا الشخص (فلان) الذي سرق قد كان في حالة ما تختلف (على الأقل من الناحية الذهنية والنفسية) عن حالته عندما تصدق. فـ "هو" (الذات) لا يستطيع القيام بالفعلين معا في الظرف ذاته، سواء كان مكانيا أو زمانيا أو حتى نفسيا. فنحن إذا نحتاج أن نصف الشخص في كل حالة من حالاته (حالته عندما سرق وحالته عندما تصدق، ... الخ)، ومادام أن الإنسان متغير في كل لحظة، فهو ذات الشخص (ولنقل أنه رشيد) لكنه ليس الشخص نفسه في كل لحظة (رشيد الذي سرق و رشيد الذي تصدق). فيبقى متقلب الحالة بين الفينة والأخرى وإن كان هو ذات الشخص (رشيد). ومن هنا (نحن نفتري القول ربما مخطئين) تأتي الحاجة إلى استخدام الضمير "هو" ليعبر عن الشخص في حالة محددة من حالاته الكثيرة. فلو حصل نزاع – مثلا- على

من جهّز الغداء هذا اليوم مثلا، لربما قال أحدهم على الفور: "رشيد هو الذي جهّز الغداء اليوم"، ولربما رد عليه آخر بالقول: "بل أحمد هو الذي جهّز الغداء اليوم". ولو راقبنا هذا التركيب اللغوي، لوجدنا على الفور بأن الضمير يتبع الاسم ولا يسبقه. وهذا بالضبط ما نجده في اللغات الأخرى كالإنجليزية مثلا. فربما قال أحدهم:

It is Rasheed who prepared lunch today”

ولربما رد الآخر قائلا:

No. It is Ahmad who prepared lunch today

لاحظ عزيزي القارئ – إن شئت- التطابق بين اللغتين في الاستخدام من حيث اللفظ (فهي هو بالعربية وهي who بالانجليزية) وكذلك من حيث الموقع، ففي كلا اللغتين يأتي الضمير (هو أو who) تابعا للاسم وليس سابقا له، وذلك لأن الضمير – برأينا- يصور الشخص في تلك الحالة فقط. فرشيد هو رشيد ذاته، لكن رشيد الذي سرق يختلف عن رشيد الذي تصدق، لأن رشيد الذي سرق كان في حالة تختلف عن حالته عندما تصدق، وهكذا. فبالرغم أنه ذات الشخص إلا إنه ليس الشخص نفسه في كل حالاته.

فالضمير – إذا- يصور الشخص (نحن نفتري الظن) في حالة محددة، لذا يجب أن يتبع الاسم الذي قام بالفعل في تلك الحالة. لنصل بذلك إلى افتراء القول بأن الضمير يعبر عن تغير الحالة للشخص من ظرف إلى آخر. وربما نجد الدليل على أن الضمير يتغير بتغير الحال من سؤال أحدهم عن شخص ما. فلو سألت صديقا قديما لك قابلته بعد غياب طويل عن أحد أصدقائكم القدامى الآخرين، كأن تسأله مثلا عن صديقكم القديم محمود، لربما رد عليك محاورك بالقول "هو هو". فما معنى قوله هذا لك عن ذاك الصديق القديم بأنه "هو هو"؟ ألا يعني ذلك أن ذاك الشخص (محور الحديث حسب معرفتكما به) لم تتغير حالته الكلّية؟ فلو كان ذلك الشخص قد تغيرت أحواله وتبدلت (بشكل عام) عمّا كان مألوفا لكما معا عنه، لما رد عليك بالقول "هو هو". ولربما بدأ بسرد بعض التغيرات التي طرأت على ذاك الشخص في وقت غيابك عنه.

---

**نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: يأتي الضمير (هو) تابعا للاسم الذي يعود عليه لأنه يعبر عن حالة محددة لذاك الشخص (أي في ظرف ما).**

---

والآن لنطبق هذا الافتراء الذي هو – لا شك- من عند أنفسنا على استخدام الضمير المصاحب للذات الإلهية. وأول ما يلفت الانتباه هنا هو أننا نجد أن الضمير "هو" يأتي سابقا لأسماء الله الحسنى جميعها (الله، الرحمن، الرحيم، القدوس، الخ):

- هُوَ ٱللَّهُ
- لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي
- هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ

- وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
- هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ
- الخ.

فما الذي يمكن أن نستنبطه من ذلك؟ أو بكلمات أخرى نحن نسأل: لماذا يأتي الضمير هو سابقا لأسماء الله الحسنى جميعها؟

**رأينا المفترى**: لمّا كان الله لا تؤثر عليه الظروف والأحوال، ولا يتغير بتقلب الزمان والمكان، كان "سرميدا" أبديا. لذا، فإن الضمير "هو" الذي يستخدم مع أسمائه الحسنى يبقى مطلق الثبات، فلا يتأثر بالظروف والأحوال مهما تغيرت وتبدلت، وبالتالي لا نحتاج أن نصفه في حالة ما محددة بعينها. فهو الله، وهو الرحمن، وهو الرحيم، وهو القدوس، وهو السلام، وهو المؤمن، وهو المهيمن، وهو العزيز، وهو الجبار، الخ. لذا، جاء الضمير (هو) سابق لكل أسمائه الحسنى.

**السؤال**: فمن هو الله؟

**رأينا المفترى**: لعل لهذا الطرح المفترى من عند أنفسنا تبعات جمة، يصعب أن نتناولها جميعا في هذا المقام، وسنفرد لها بحول الله وتوفيق منه مقالات خاصة منفصلة. لكن ما سنطرحه الآن هي قضية واحدة محدده بعينها، وسنتجرأ على افتراءات ربما غير مسبوقة في هذا الصدد، نرجو أن نجد الآذان صاغية حتى نهاية النقاش، وندعو القارئ الكريم أن يجد في نفسه الجرأة على الصبر معنا في هذا الطرح ربما غير المألوف على أسماعه في أي مكان آخر. سائلين الله وحده أن يؤتينا رشدنا وأن يهدنا لأقرب من هذا رشدا، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، إنه هو العليم الحكيم.

أما بعد،

غالبا ما تناقش أهل العلم في اسم الذات الإلهية، طارحين التساؤل الكبير التالي: ما هو اسم الذات للإله الذي نعبد؟ فخرجوا بآراء وافتراءات كثيرة، لا نود مناقشتها هنا، فمن أرادها، فعليه بكتب أهل العلم الغزيرة بالمعرفة. أما نحن فسنكتفي بإبداء الرأي الذي ربما يخالف كل ما هو معهود عند الناس مما وصلهم من عند أهل العلم. ظانين أننا نستطيع أن نحدد اسم الذات للإله الذي نعبد.

وهذا الطرح الذي نظن أنه غير مسبوق يحتّم علينا التخلي عن الموروث كاملا، طارحين جانبا رأيهم الذي مفاده بأن اسمه هو الله أو الرحمن أو الرحيم، الخ. وذلك لأن هذه هي أسماؤه الحسنى وليست اسم ذات له. ودليلنا على كلامنا المفترى هذا قوله تعالى:

- ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾ [الإسراء: 110]

فالله والرحمن هي من أسمائه الحسنى (Divine Names) وليست أسماء ذات (Proper names) للإله. وليس أدل على ذلك بأن الديانات السابقة كانت تدعوه بأسماء غير الأسماء العربية التي وردت بالقرآن الذي نزل أصلا بلسان عربي مبين:

- ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [فصلت: 3]

فهذه الأسماء الحسنى (Divine names) مثل الله والرحمن والرحيم، الخ. هي ليست أكثر من الصيغة العربية لهذه الأسماء كما جاءت على ألسنة الأمم الأخرى التي تلقت رسالات سماوية مثل الرسالة التي جاءتنا بلسان قوم نبينا محمد (أي اللسان العربي المبين). فهناك إذا تباين لفظي واضح في أسماء الله الحسنى على ألسنة الأمم السابقة، فهي ليست كما هي في اللسان العربي المبين من الناحية اللفظية. ليكون السؤال: ماذا كان اسم الذات (Proper name) الذي استخدمه قوم موسى للإشارة إلى الإله الذي أُمروا أن يعبدوه؟ وماذا كان اسم الذات (Proper name) في لسان قوم نوح أو قوم إبراهيم، الخ؟ وماذا كان اسم الذات للإله (Proper name) في لسان حواريي المسيح عيسى بن مريم؟ فهل كان هؤلاء يستخدمون الاسم "الله" ذاته كما نستخدمه نحن من نزل القرآن الكريم بلسانهم؟

**جواب مفترى من عند أنفسنا**: نحن نظن بأنه من الاستحالة بمكان أن تكون تلك الأقوام (وتلك الأمم السابقة) جميعها قد استخدمت اللفظ نفسه الذي نستخدمه نحن؟

**رأينا المفترى**: إن أهم ما نبغي الوصول إليه هو النتيجة المفتراة من عند أنفسنا والتي مفادها أن الأمم السابقة قد كانت تستخدم الأسماء الحسنى (الله والرحمن والرحيم، الخ) بلسانها. ففي العبرية التوراتية يستخدم الاسم الوهيم (Elohim)، وفي الآرمية الإنجيلية هو إله (Elah) وفي العربية هو الله (Allah). ويظن أهل التوراة أن الله قد قال اسمه لموسى على نحو أنه يهوه (Yahwah)، وهكذا.

---

**نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا: علينا إذا أن نفرق بين الأسماء الحسنى (Divine names) واسم الذات (Proper name) للإشارة إلى الإله الذي أمروا أن يعبدوه جميعهم. فالأسماء الحسنى تعبر عن الصفات العليا للإله (various qualities of a Supreme Being)، لكن اسم الذات هو الاسم الدال على الكينونة العليا (a Supreme Being) ذاته.**

---

ولو دققنا مثلا في هذا النص المترجم المقتبس من سفر الخروج مثلا:

Moses said to God, "Suppose I go to the Israelites and say to them, 'The God of your fathers has sent me to you,' and they ask me, 'What is his name?' Then what shall I tell them?" God said to Moses, "I am who I am". ... .

لوجدنا على الفور بأن الإله قد رد على سؤال موسى عن اسم الذات الإلهية العليا على نحو ("I am who I am). والمدقق في هذا النص يجد أن الإله قد ذكر اسمه على نحو أنه "هو هو". ولم يقدم نفسه بأي من صفاته العليا أو ما نعرفه بأسمائه الحسنى.

**السؤال**: لماذا؟

**رأينا المفترى والخطير جدا (لا تصدقوه إن شئتم):** نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن اسم الذات الذي يعود على الإله الذي عُبد في كل الشرائع السماوية لا يتغير بتغير الزمان والمكان والرسالات. فاسم الذات لأي شخص يبقى ثابتا مهما تغير اللسان، فأنا – على سبيل المثال – رجل أُطلق عليّ اسم "رشيد" في العربية منذ ولادتي، فهذا الاسم إذا يبقى ثابتا لا يتغير مهما تغير اللسان، فأنا رشيد في العربية، وأنا رشيد في الإنجليزية والعبرية والفرنسية والروسية والصينية. فبالرغم أن اسمي "رشيد" له دلالة في المعنى، إلا أني لا أقوم بترجمة هذا المعنى إذا ما سئلت عن اسمي بلسان القوم الآخرين. فلا يمكن أن أقول بأن اسمي (Wiseman) إذا ما تحدثت بالإنجليزية مثلا، وذلك لأن اسم الذات (Proper Name) لا يتغير مهما تغير اللسان. فربما يطرأ عليه بعض التغييرات الصوتية باللسان الآخر وذلك لضرورات صوتية بحته، لكن يبقى الاسم محافظا على تركيبه في اللسان الآخر. فعلى سبيل المثال، نجد الإنجليز يلفظون الاسم العربي "علي" على نحو Ali، وذلك لأن صوت العين غير متوافر في اللغة الإنجليزية، ويتم الاستعاضة عنه بصوت آخر قريب منه (A). انتهى.

**رأينا المفترى**: مادام أن اسم الذات لا يتغير بتغير اللسان، فنحن نطرح السؤال الجريء التالي: ما هو اسم الذات للإله في جميع الشرائع السماوية؟

**جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا**: نحن نظن بأن اسم الذات للإله في جميع الشرائع السماوية هو "هُوْ" (who)، لم يتغير بتغير اللسان. فهو "هُوْ" في لسان نوح وإبراهيم وموسى والحواريين ومحمد.

**السؤال**: ما هو؟

**جواب مفترى**: هُوْ.

فلو راقبنا الاسم الذي يستخدمه أتباع الديانات السماوية جميعها، لوجدنا أن المشترك بينها هو المقطع الصوتي " هو" (HU). وجميع الأسماء التي وردت في كل لسان نزل به كتاب كريم من عند الله تستخدم هذا المقطع الصوتي (HU).

ولو تدبرنا الآيات الكريمة التي جاءت لتنفي صفة الألوهية عن عيسى بن مريم:

- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: 17]
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: 72]

لوجدنا فيه شيئا غريبا جدا، شريطة أن نقرأ الآية بطريقة أخرى غير الطريقة المعتادة. فنحن نطلب (ربما مخطئين) أن تقرأ الآية بالوقف بعد مفردة "هو" على النحو التالي:

- لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ...

ثم متابعة القراءة على النحو التالي:

- ... ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ

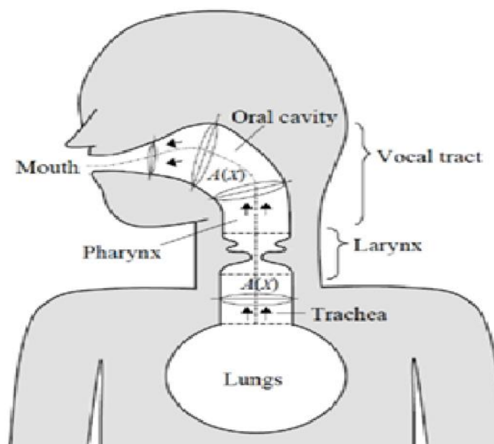
فيصبح المعنى على النحو التالي: لقد كفر الذين قالوا بأن الله (اسم من أسمائه الحسنى الدالة عليه هو (اسم ذاته، أي اسمه هو) المسيح عيسى بن مريم. فالمسيح ليس هو (ذات الله)، وإنما المسيح:

- ﴿...إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

فالمسيح ليس ذات الله (هو) وإنما كلمته وروح منه.

**السؤال**: لماذا؟

**رأينا المفترى**: لو تدبرنا قصة الخلق الأولى، لوجدنا بأن الله (هو) قد نفخ بالمخلوق الجديد (آدم) من روحه، فكان أول ما نطق به آدم هو (Hu). ولو دققنا في هذا الصوت المقطعي (Hu)، لوجدنا بأنه الصوت الذي يُحدث الحياة. فعملية التنفس ليست أكثر من اخراج هذا الصوت من الإنسان. وما أن ينقطع هذا الصوت من الإنسان حتى تنتهي حياته بأكملها. ولو أمعنا التفكر بهذا الصوت من الناحية اللفظية، لوجدنا بأنه أول صوت يخرج من مجرى النطق البشري، فهذا الصوت ينطلق من أول مخرج صوتي للإنسان في منطقة الحنجرة (أو ما يسمى بعلم الصوتيات بالأجنبية ب larynx) وينتهي عند آخر صوت يخرج من مجرى الكلام وهو (و) أو (u بالرموز الأجنبية).



فمفردة "هو" تبدأ من عند أو مخرج صوتي في الحنجرة وهي منطقة larynx بصوت الهاء وتنتهي عند آخر مخرج صوتي عند الشفاه بال و (HU).

ولو دققنا في هذا الصوت اللفظي (هـ) من حيث الكتابة، لوجدناه يكتب بالعربية بعدة أشكال حسب موقعه من الكلمة كما في الشكل التوضيحي التالي:




ولو تدبر المغرمون في البحث عن العلاقة بين الشكل والمضمون، لوجدوا بأن كتابة هذا الصوت يعبر تماما عن معناه، فرأس الهدهد (بعينه ومنقاره وتاجه) يعكس شكل الصوت نفسه (هـ)، وشكل الهدية المغلفة بشكل دائري يعكس رسم الصوت نفسه (بمحيطه الغلاف) ومضمونه أو قيمته (عين الشيء داخل الغلاف). وشكل الكهف بتجويفه وما في داخله، يعكس رسم الصوت نفسه. ولو دققنا في رسمها بمفردة كهف، لوجدنا أنا تشكل الرمز الذي يدل على اللانهاية (هـ)، ونقطة المياه تشكل دائرة خارجية حول النقطة ذاتها (ه)، وتدل على الإحاطة، وهكذا.

- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54]

وربما من هنا، جاءت الثقافات القديمة لتصور لنا ما سموه بعين حورس على النحو التالي:



ولو دققنا فيها مليناء، لوجدنا أن الفكرة بمجملها يعكسها رسم صوت (هـ) نفسه. فهم يظنون بأن هذه العين ترمز إلى المراقبة الدائمة للكون. ولكن القائم الدائم على الكون هو "هُوْ" الذي لا تأخذه سنة ولا نوم:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

فمن الذي لا تأخذه سنة ولا نوم؟

**رأينا المفترى**: إنه هُو.

---

نتيجة مفتراة: كل ما في الكون من شيء (يسبح بحمده) شاء أم أبى:

---

- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: 44]

فمادام أن هذا الصوت (هـ) يخرج منك، فأنت لا محالة تسبح بحمد (هو)، لأنك على الدوام تنطق باسمه شئت أم أبيت، وفي اللحظة التي تنفد منك هذه الطاقة الرهيبة (شيء من روحه)، فأنت لا محالة في عداد الأموات. فما ينطق باسم (هو HU) فهو حيّ، وما لا ينطق باسم (هو)، فهو ميّت. انتهى.

---

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما نفخ الله من روحه (هو) في آدم، كان أول ما خرج من فم آدم هو هذا الصوت (هو)، فكان آدم حيا بروح الله. لكن لما حصلت المعصية، ووقع آدم في المحظور اختلط الأمر، فجاءت الهمزة (الغصة)، فكانت المشكلة. فالهاء تفتح مجرى الحياة، والهمزة تقفل ذلك المجرى. فأصبح الصراع في آدم بين الهاء (الحياة) والهمزة (الموت). (وسنتعرض لهذا بالتفصيل بحول الله وتوفيقه لاحقا لأن ذلك يتطلب تفاصيل دقيقة جدا ربما يصعب الدخول فيها الآن لأنها ستنقلنا بعيدا عن الفكرة المطروحة للنقاش الآن. فالله أسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا إنه هو العليم الحكيم).

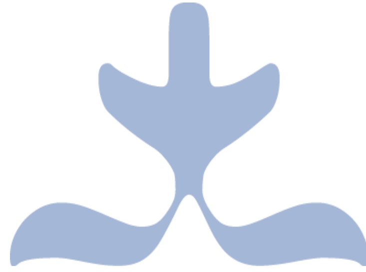
---

**ملاحظة مهمة**: وفي النهاية نقول بأن هذه يجب أن لا تؤخذ أكثر من افتراءات قابلة للنقاش، ولا تخرج إلى نطاق العقائد والمسلمات، بل هي ليست أكثر من أحد القضايا الأكاديمية يتم تداولها في سياق البحث عن المعلومة في المصادر الموثوقة. لذا، أرجو ممن يقرأ هذه المقالة أن لا يحدّث غيره بما جاء فيها، بل عليه أن يحيل من يريد المعرفة إلى المقالة ليتدبرها بنفسه، لأن هناك الكثير الذي لابد من طرحه في هذه الصدد قبل الحديث بها إلى العامة من الناس. فهذه المقالة ليست أكثر من مقدمة أولية لما سيأتي بعدها إن شاء الله. سائلين الله وحده أن يأذن لنا بشيء من علمه لا يكون لغيرنا إنه هو العليم الحكيم.

وللحديث بقية بإذن الله

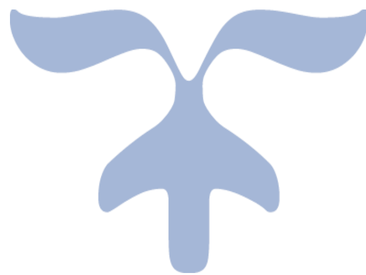
بقلم د. رشيد الجراح

10 أيار 2020



# كتاب الجدليات

# من هو هو؟ ج2



# من هو هو؟ - الجزء الثاني

## باب الماء - الهيدروجين والاكسجين(HO)

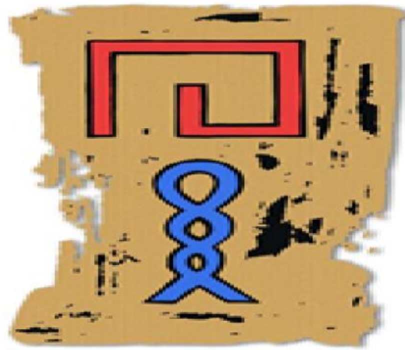
لو دققنا في الآيات الكريمة الخاصة بالماء، لوجدنا بأن الماء هو سبب انبات الجنات وهو في الوقت ذاته سبب إنشاء الجنات، قال تعالى:

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: 18-19]
- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: 9-11]

فالماء إذا له وظيفتين اثنتين: الانشاء والانبات. والإنشاء (نحن نفتري الظن) هو عمل الروابط الأفقية بين مكونات المادة بعد أن تنفلق، والمكون الأساسي في هذا الإنشاء هو عنصر الهيدروجين (H) . للتفصيل انظر الجزء الثالث من سلسلة مقالاتنا تحت عنوان نظرية النشوء.

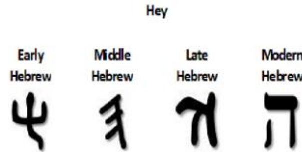
ولو راقبنا رسم هذا الصوت جيدا، لوجدناه يتألف من خطين متوازيين متطابقين مربوطان معا بوصلة في المنتصف تماما .(H) فالخطان هما (نحن نفتري القول) الذرتان المتطابقتان (identical) والخط الواصل بينهما هو عملية الإنشاء (أي الربط الأفقي).

ولو ذهبنا إلى رسم الصوت في اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة، لوجدناه يرسم بطريقتين كما في الشكل التوضيحي التالي:



وكلاهما يعبر (نحن نرى ربما مخطئين) عن عملية إنشاء وربط، يمثلان معا الإحاطة واللانهاية. فالأولى عبارة عن بيت أو مأوى (shelter) بينما الثانية هي عبارة عما يشبه لفة السلك الذي ينقل الإضاءة أو الطاقة .(wick) أي هي مصدر الطاقة. وهذا يقودنا إلى تقديم افتراء خطير جدا يخص رسم هذه الأصوات، ويتمثل الافتراء بالظن بأن كل أمة من الأمم قد رسمت الصوت (كشكل) بالطريقة التي تعبر عما فهمته تلك

الأمة من المعاني الحقيقية لهذا الصوت. فهذا الصوت) وهو صوت الهاء (H)) هو الصوت الأول في الوجود، وهو المسئول – برأينا- عن الإنشاء كمصدر الحياة، وهو كذلك الإحاطة والمراقبة، وهو – بالتالي- أصل كل شيء، ونستطيع افتراء القول بأن هذه المعاني موجودة كذلك في رسم الصوت في العبرية القديمة كما في الشكل التوضيحي التالي:

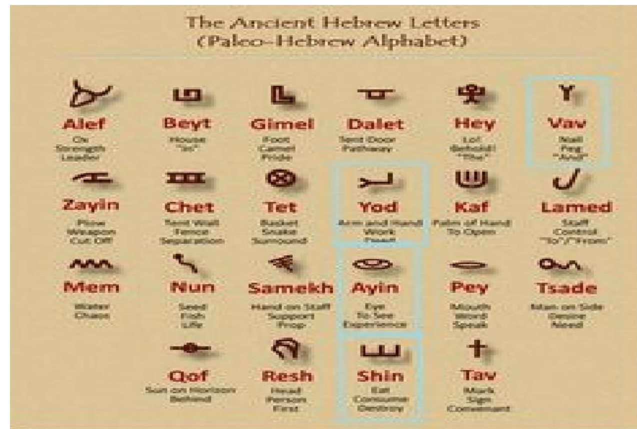



Source:

وهي ترسم بالأشكال التالية :




فهو الصوت الذي يعبر عن الإلهام وبدء الخلق والتنفس والإحاطة، وهو الصوت الخامس في الترتيب في الأصوات العبرية، ويرسم في العبرية القديمة على شكل من يرفع يديه إلى السماء داعيا قوة عظيمة – انظر شكل رسم الصوت الخامس في الأصوات العربية القديمة كما في الشكل التوضيحي التالي:



ونحن نفتري الظن (وقد سبقنا إلى ذلك كثيرون من أهل الاختصاص في هذا المجال) أن ترتيبه خامسا في جدول الأصوات العبرية قد جاء ليعبر عن أصابع اليد الخمسة والحواس الخمسة، ونحوها.

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن كل أمة من الأمم قد عمدت إلى تصوير جانب (أو ربما جوانب) من المعاني لهذا الصوت، فعكست ذلك الجانب (أو تلك الجوانب) في شكل الصوت عندما رسمته على الجدار، لتخلد هذا المعنى في ذاكرتها الأبدية .

والملفت للانتباه أن الحضارة المادية الأولى (secular civilization) وهي الحضارة الإغريقية هي الأمة الأولى التي رفضت الموروث الديني كله وبدأت رحلة التحريف. فكانت هي الحضارة التي تفتقد لغتها لهذا الصوت، فلا وجود لصوت (الهاء) في مجموعة أصوات اللغة الإغريقية إلا اللهم كحركة ثانوية لا تكتب على السطر مع بقية الأصوات الرئيسية الأخرى، وسنرى لاحقا - بإذن الله- أن أكبر من حرف البشرية عن جادة الصواب هي تلك الحضارة الإغريقية ممثلة بمنظريها الكبار من أمثال أفلاطون وأرسطو وتلاميذهم. فهم من اخترعوا الحرف بدلا من الصوت، وهم من بدأوا رحلة التحريف في البحث عن الحقيقة، فقادوا البشرية في طريق الشيطان بعيدا عن مصدر النور الحقيقي (هو).

لكن ما نحاول جاهدين الوصول إليه هو حقيقة هذا الصوت منذ الأزل، ولعل أكبر الإشارات الدالة على أهمية هذا الصوت على وجه التحديد هو دخوله في مكونات اللغة الأساسية بشكل واضح جدا، فكان علامة مميزة فيما نسميه جدلا تقعيد اللغة) أو Grammaticalization باللسان الأعجمي .(واحد هذه الشواهد الظاهرة للعيان على الحضور الفاعل لهذا الصوت في عملية التقعيد هو عملية التذكير والتأنيث، فاللغة العربية ومثلها العبرية – مثلا- تميز بين اللفظ المؤنث والمذكر بوجود أو عدم وجود الهاء كمقطع صوتي في نهاية المفردة .

واللغة العبرية نفسها تستخدم هذا الصوت أيضا في التعريف والتنكير، فالاسم معرّف مادام صوت الهاء قد أضيف في بداية الكلمة. فمفردة ملك – مثلا- هي نكرة (بمفردات اللغويين) في العبرية، لكنها تصبح معرفه إذا ما أدخل صوت الهاء على أولها لتصبح معرفة (مثل همّلك) .

السؤال: لماذا؟ أي لماذا استخدم هذا الصوت على وجه التحديد في عملية الفصل بين المذكر والمؤنث في بعض اللغات كالعربية والعبرية أو في عملية التعريف في بعض اللغات كالعبرية؟

## باب المذكر والمؤنث في القواعد

إن أول ما يمكن بدء النقاش فيه في هذا الجانب هو فهم آلية التذكير والتأنيث على حقيقتها، ومن ثم محاولة ربط ذلك باستخدام صوت الهاء على وجه التحديد. ونحن نتجرأ على تقديم الافتراء البسيط لكن الخطير جدا جدا في هذا المقام وهو أن الفرق بين المذكر والمؤنث هو الزيادة أو النقص. انتهى.

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**رأينا المفترى**: نحن قد لا نختلف إن قلنا بأن تأنيث الاسم (أو صفته) يتطلب زيادة صوت الهاء فيه (جميل = جميلة)، أما تذكير الاسم (أو صفته) فيتطلب حذف الهاء منه (جميلة = جميل). وهذا ما يسميه

النحويون بالتأنيث اللفظي، أي وجود المقطع الصوتي الخاص بالتأنيث في نهاية المفردة. السؤال: ما معنى ذلك؟

**جواب مفترى من عند أنفسنا**: نحن نظن أن هذا المنطق تنطوي عليه الافتراءات البسيطة والمهمة – برأينا- التالية:

1. التذكير فيه نقص في اللفظ يقابله نقص في المعنى
2. التأنيث فيه زيادة في اللفظ تقابله زيادة في المعنى
3. النقص يعني اختفاء صوت الهاء والزيادة تعني وجود صوت الهاء. انتهى.

**السؤال**: لماذا اختفت الهاء من المذكر وظلت موجودة في المؤنث؟

نحن هنا أما سيناريوهين اثنين، وهما:

⇐ أن الأصل هو المؤنث (وجود الهاء)، والتذكير هو طارئ حذفت منه هذه الهاء
⇐ أن الأصل هو التذكير (عدم وجود الهاء)، والتأنيث هو طارئ زيدت عليه هذه الهاء

**جواب مفترى خطير جدا جدا**: نحن نظن أن لهذا علاقة بقصة الخلق الأولى. مفترين القول من عند أنفسنا أن التذكير (ككينونة) له علاقة بالتذكر (كفعل). وأن الذَّكر هو المطالب بالتذكّر لأنه كان قد نسي، فالخطاب القرآني يبين بما لا يدع مجالا للجدل بأن آدم هو الذي نسي:

- ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: 115]

ولو راقبنا عبارات مثل "أفلا تذكرون" و "لعلكم تذكرون"، لوجدناها موجهة مباشرة للذكر (كالناس والقوم والذين آمنوا، الخ):

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور: 27]
- ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ [هود: 30]

---

**نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: الذَّكر هو المطالب بالتذكّر لأنه هو الذي نسي. انتهى.**

---

لهذا نحن نتجرأ على افتراء الظن بأن الأنثى لم تنسى، لذا لم تطالب – نحن نفتري القول من عند أنفسنا- بأن تتذكر، مما يعني - بمنطقنا المفترى هذا- أن الأصل هو التأنيث (أي وجود الهاء)، وأن الحدث الذي طرأ هو النسيان من قبل الذكر، فسقطت الهاء من المفردات الخاصة به .

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**رأينا المفترى**: نحن نفتري الظن بأن الله قد خلق آدم، ونفخ فيه من روحه، وهذا النفخ – برأينا- هو ذلك الصوت الأول (الهاء). فدبت الحياة فيه بتلك الروح التي نفخت فيه مباشرة من ربه، فكان ذلك الصوت (الهاء) هو الذي يقيم الحياة في آدم. وما أن خلق الله آدم وسواه ونفخ فيه من روحه حتى جاء خلق زوجه من تلك النفس الأولى، فكانت الحياة سارية بذلك الزوج بتلك الروح أيضا. فكان كلا الزوجين يحييان بروح الله (الهاء). لكن ما الذي حصل بعد ذلك؟

**رأينا المفترى**: ما أن أُسكنا في الجنة كزوجين يحييان بروح الله (الهاء) حتى بدأت وسوسة الشيطان لهما، لكن الذي حصل على أرض الواقع هو أن آدم قد تقبل نصيحة الشيطان، وهو الذي عصى ربه، وهو الذي غوى، وهو الذي تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، الخ. لكن – بالمقابل- لم ترضخ زوج آدم لوسوسة الشيطان كما فعل زوجها. فماذا كانت النتيجة؟

**جواب مفترى خطير جدا**: في حين أن آدم قد خسر شيئا بسبب قبوله لوسوسة الشيطان ونزوله عند نصيحته، لم تكن زوج آدم قد خسرت مثل ذلك، وبكلمات أخرى أكثر وضوحا نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن آدم قد فقد شيئا من الصلة بربه، لكن – بالمقابل- لم تخسر زوج آدم مثل ما خسر زوجها، فبقيت صلتها بربها أكثر ثباتا وقوة. وقد انعكس ذلك في الكلمات الدالة عليهما، ففي حين أن الهاء (جزء من الروح) لم تسقط عن زوج آدم، سقطت تلك الهاء عن آدم نفسه. لقد خسر آدم تلك الصلة، فكانت المفردات الذكورية الدالة عليه خالية من ذلك الصوت (أي الهاء). ولو دققنا في المفردات الأولى الدالية عليهما، لوجدنا أن كلاهما كان زوجا. فآدم زوج، وزوجه هي زوج أيضا. ومفردة الزوج لا تعني التذكير ولا التأنيث، فكلاهما قد طُلب منهما السكن في الجنة على تلك الشاكلة (كزوج):

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

فكانا متطابقين تماما، فالزوج إذا يدل على التطابق التام. وما زلنا حتى الساعة نستخدم اللفظ على هذا النحو عند قولنا زوج جوارب وزوج كنادر – مثلا- لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن أحدهما مذكر والآخر مؤنث، بل هما زوج لأنهما متطابقين تماما. فإذا لم يكونا متطابقين تماما، يستحيل أن ينعتا بأنهما زوج.

**السؤال**: لكن ما الذي حصل بعد ذلك (أي بعد أن كان آدم زوج وزوجه زوج كذلك)؟

**رأينا المفترى**: عندما تقبل آدم نصيحة الشيطان، بقيت زوج آدم زوجا، وخسر آدم شيئا، فما عاد على الشاكلة ذاتها قبل المعصية. السؤال: ما الذي فقده آدم؟

**رأينا المفترى**: لقد خسر آدم شيئا من الصلة بخالقه، فانعكس ذلك في المفردات الدّالة عليه بخسارته لذلك الصوت (الهاء)، فما عادت تلك الروح التي نفخها الله في آدم سارية فيه كما كانت عند النفخ.

لقد خسر آدم شيئا من تلك النفخة الأولى فما عاد قادرا على ذلك إبقاء الصلة بربه كما كانت قبل معصيته، وبكلمات أكثر وضوحا نقول: لم يعد آدم قادرا على احداث النفخ، أي نقل تلك النفخة إلى غيره.

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**رأينا المفترى**: للإجابة على هذا التساؤل، لابد لنا من إعادة ربط خيوط قصة الخلق الأول من جديد للخروج بتصورات مفتراة - من عند أنفسنا- قد تساعدنا على النظر للقصة ذاتها من زاوية جديدة تماما. لذا، نطلب من القارئ الكريم – إن شاء- أن يمنحنا الوقت الكافي لتمرير الفكرة قبل أن يحكم عليها مسبقا بناء عما وصله من عند الأقدمين. وإن هو وجد أن طرحنا هذا لا يعدو أكثر من محض هراء وخيال زائف، فله أن يضرب به عرض الحائط، وليرجع إلى الوراء عشرات الخطوات قبل أن يتقدم خطوة واحدة معنا إلى الأمام.

**أما بعد،**

كان القرار الإلهي الأول أن يكون آدم خليفة (انظر تاء التأنيث في كلمة خليفة)، فقد كان آدم خليفة (بصيغة التأنيث) بسبب – نحن نرى- تلك النفخة التي أودعها الله في ذلك المخلوق من روحه. فآدم إذا هو خليفة (بصيغة التأنيث) مادام أن تلك النفخة (وهي صوت الهاء) قد دخلت فيه مباشرة من ربه. وسيخسر آدم تلك الخلافة إن هو لم ينزل عند الإرادة الإلهية له بذلك. وبالفعل استطاع الشيطان أن يقلب الأمور رأسا على عقب، وذلك بأن تخلى آدم عن الخلافة في سبيل الملك:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

**السؤال**: ما الفرق بين الخلافة والملك؟

**رأينا المفترى**: لو لم ينزل آدم عند نصيحة الشيطان له، لما خسر الخلافة، ليكون السؤال الآن هو: ما الذي خسره آدم عندما نزل عند نصيحة الشيطان تاركا الإرادة الإلهية له بالخلافة إلى غير رجعة؟

**جواب مفترى خطير جدا جدا:** نحن نظن بأن الفرق بين الخلافة من جهة (الإرادة الإلهية) والملك (إرادة الشيطان) يكمن في طريقة التكاثر. انتهى.

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**رأينا المفترى**: ربما نستطيع التدليل على افترائنا هذا بطرح تساؤل آخر مهم جدا ألا وهو: لو لم ينزل آدم عند نصيحة الشيطان، كيف كان التكاثر في الجنة سيتم حينئذ؟ هل لو لم ينزل آدم عند نصيحة الشيطان كنا نحن (بني آدم) لن نأت إلى الحياة؟ هل كان آدم وزوجه سيمكثان في الجنة لوحدهما معا إلى الأبد؟ ألم يكن من الممكن أن نأتي نحن كذرية لهما؟

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن وجودنا كذرية لآدم وزوجه ستتحصل سواء نزل آدم عند نصيحة الشيطان أو لم ينزل، لكن الفرق في الحالتين سيكون بطريقة التكاثر وليس بحصوله أو عدمه. انتهى.

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: نحن نظن بأنه لو لم ينزل آدم عند نصيحة الشيطان لاستمرت الخلافة، ولكان التكاثر البشري سيتم بطريقة النفخ. لكن لمّا نزل آدم عند نصيحة الشيطان خسر آدم القدرة على النفخ، لكنه أصبح قادرا على الجماع، فكان الملك، وكانت الذرية وراثة ملكية بعد كان من المفترض أن تكون خلافة لا وراثة فيها. انتهى.

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: عندما أسكن الله آدم وزوجه في الجنة، كان من المفترض أن يقوم آدم بما فيه من تلك الروح (الهاء) بالنفخ في زوجه، فتتحصل لهما الذرية، فلا تكون وراثة بالأنساب. فآدم لن يكون حينئذ والدا، وذريته لن تكون مولودة له. فتبقى الصلة بين آدم وتلك الذرية - كما هي في الجنة الحقيقية- لا أنساب بينهم ولا يتساءلون:

- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون: 101]

ولا يحتاج آدم أن يتحمل مسئولية ذريته لأنه ببساطة ليس والدا وإن كان أبا. للتفصيل حول الفرق بين الأبوين والوالدين انظر الجزء الخامس عشر من سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف.

**السؤال**: وكيف سيتم النفخ حينئذ؟

**رأينا المفترى**: من أجل فهم آلية النفخ التي كان من المفترض أن يقوم بها آدم كخليفه، ما علينا إلا أن نتصور طريقة ولادة المسيح عيسى بن مريم. فالمسيح هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم وهو كذلك روح منه، فكان المسيح كن فيكون.

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

وجل ما حصل أن روح الله قد تمثل لمريم بشرا سويا، فنفخ في فرجها، فتشكلت تلك الكلمة في بطن مريم الطاهر، فخرج المسيح ينطق، فشهد على الفور بأنه عبد الله:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: 30-33]

للتفصيل حول هذه الجزئية انظر مقالتنا تحت عنوان كيف تم خلق المسيح عيسى بن مريم.

ونحن نتجرأ على القول بأنه لو لم يخسر آدم الخلافة، لكان قادرا على النفخ في فرج زوجه، ولكانت الذرية (كل الذرية) ستتحصل بتلك الآلية ذاتها. لكن لما خسر آدم القدرة على النفخ، تحولت الذرية (نحن نظن) من الطريقة السهلة المباشرة التي لا تسبب الشقاء إلى الطريقة الأخرى، وهي الملك الذي لا يبلى، فأصبحت تناسلية (أي بالأعضاء التناسلية).

**السؤال**: كيف خسر آدم القدرة على النفخ بعد قبوله نصيحة الشيطان؟

**رأينا المفترى**: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن آدم قد أصبح غير قادر على النفخ بعد نزوله عند نصيحة الشيطان، وذلك لأنه قد خسر الصلة بربه، لأنه أضاع شيئا من تلك الروح التي نفخها الله فيه يوم أن خلقه .

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: عندما اتخذ الله قراره بأن يجعل آدم خليفة، أودع عنده شيئين اثنين يثبتان خلافته في الأرض، الأمر الذي يجعل الجن (بمن فيهم الملائكة) رهن إشارة منه. فتتجلى سيطرة آدم عليهم جميعا بأسهل وأبسط طريقة ممكنة .

**السؤال**: ما هما هذان الشيئان اللذان أودعهما الله مع آدم (أي عهدهما عنده) ليقوم بدور الخلافة على أكمل وجه وأحسن حال؟

**جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه إن شئتم):** إنهما العصا واللباس (القميص). انتهى.

**السؤال**: لماذا العصا واللباس؟

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: عندما جعل الله آدم خليفة في الأرض، كان لابد لآدم أن يثبت خلافته تلك على الخلق السابق، ألا وهو الجن (بمن فيهم الملائكة)، فكان لابد أن يسجدوا له، أي يأتمروا بأمره وينتهوا بنهيه، فكانت العصا – نحن نفتري الظن- هي بمثابة ما يوطّن خلافته، فلا تستطيع الجن (بمن فيهم الملائكة) أن يزيغوا عن أمره لأنهم لو فعلوا ذلك، لكان بمقدور آدم أن يذيقهم بتلك العصا من عذاب السعير (بالضبط كما كان يفعل سليمان بالجن بسبب المنسأة التي في يده وهي بقية تلك العصا – للتفصيل انظر سلسلة مقالتنا تحت عنوان ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته).

**لكن يبقى التساؤل الغريب التالي مطروحا**: هل كان استخدام تلك العصا لتلك الغاية فقط؟ أي هل كانت العصا مصممة فقط لتسخير الجن لآدم؟

**رأينا المفترى من عند أنفسنا:** نحن نظن أنه بالإضافة إلى تلك الوظيفة الجليلة (وهي تسخير الجن لآدم) كان للعصا وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن وظيفتها الأولى السابقة، ألا وهي أن يهش بها على غنمه. انتهى.

**السؤال:** ما معنى أن يهش آدم بالعصا على غنمه؟

**رأينا المفترى:** لقد حاولنا تفصيل استخدامات تلك العصا في قصة موسى خاصة عندما كلّم الله موسى في الواد المقدس كما وردت في الآيات الكريمة التالية:

**السؤال الإلهي**: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه: 17]

**جواب موسى**: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: 18]

وقد افترينا الظن حينئذ أن موسى قد استخدم تلك العصا لكي يسكت ما يثور من غنمه، أي كانت تهدي الغنم عندما تثور. والغنم – برأينا – هي الحيوانات المنوية التي عندما تثور يجد الإنسان نفسه بحاجة أن يخرجها بالعملية الجنسية (بغض النظر عن طريقتها).

للتفصيل انظر مرة أخرى مقالتنا تحت عنوان ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب الغنم.

**تلخيص ما سبق**: عندما قرر الإله أن يجعل آدم خليفة أودع عنده تلك العصا التي تقوم – برأينا - بوظيفتين اثنتين، وهما:

⇐ السيطرة على الجن، فلا يزيغوا عن أمره (كما فعل سليمان ببقية العصا – المنسأة)
⇐ أن يهش بها على غنمه، فلا تثور، فيحتاج (إن هي ثارت) إلى القيام بالعملية الجنسية (كما كان يفعل موسى بالعصا فيهش بها على غنمه)

فآدم بالجنة يمتلك (نحن نرى) الأداة التي تمكنه من السيطرة على قوتين كبيرتين تنازعانه، وهما:

⇐ طاقة خارجية ممثلة بالجن (الحكم)
⇐ طاقة داخلية ممثلة بالغنم (الرغبة الجنسية)

والعصا هي – برأينا- ضمانة السيطرة على (وبالتالي التحكم بـ) تلك القوتين (أو لنقل الخطرين)، الخطر الخارجي والخطر الداخلي اللذان ينازعانه على الدوام. وهذا الخيال (ربما الخال من المنطق العادي) يحمل في ثناياه الظن بأن آدم يستطيع التحكم بهاتين القوتين اللتين تنازعانه على الدوام مادام يحمل تلك العصا بيده، وبالمقابل فهو - لا محالة- سيخسر السيطرة عليهما إن هو ألقى تلك العصا جانبا وتخلى عنها إلى الأبد.

**السؤال:** ماذا كانت خطة الشيطان؟

**رأينا المفترى**: لقد كانت خطة الشيطان تنطوي على الأقل على أمرين اثنين، وهما:

⇐ أن يخرج الجميع من تحت سيطرة آدم، فلا يعد آدم يملك ما يمكّنه من السيطرة على الجن
⇐ أن يثير غنم آدم، فلا يعد آدم يملك ما يهش به عليها، فيقع آدم حينئذ فريسة سهلة لرغبته الجنسية العارمة، فيحتاج أن يفرغها بالطريقة الجنسية

**السؤال**: كيف سينفذ الشيطان خطته تلك؟

**رأينا المفترى**: نحن نظن بأن الطريقة الوحيدة لذلك - كما يعلمها الشيطان- تتمثل (نحن نتخيل) أن يجعل آدم يتخلى عن تلك العصا التي بيمينه. انتهى.

**السؤال**: وكيف سيقتنع آدم بذلك؟

**رأينا المفترى**: نحن نظن أن آدم لن يقتنع ذلك إلا بالبرهان العملي.

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**رأينا المفترى**: بالتجربة

**السؤال**: وكيف ذلك؟ لم أفهم. يقول صاحبنا ربما مستغربا ولكن - لا شك- مستعجلا الإجابة.

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: عندما أسكن الله آدم مع زوجه كخليفة عهد عنده تلك العصا، لتكون أداة الحماية له من خطر الجن ومن خطر غنمه، وجاء الأمر الإلهي لآدم وزوجه السكن في الجنة والأكل منها حيث شاءا رغدا. وبالفعل – نحن نفتري القول- أكل آدم وزوجه من الجنة حيث شاءا، لكن كان عليهما القيام بالمهمة الأخرى وهي التكاثر، أي التزاوج لإنتاج الذرية، فكيف كانا سيقومان بهذه المهمة حينئذ؟

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: نحن نتخيل (ربما مخطئين) بأنه كان على آدم وزوجه أن يقوما بالمهمة على النحو التالي: أن ينفخ آدم في فرج زوجه، فيتم الحمل والوضع بأقل جهد ممكن وبأفضل طريقة منشودة، فلا يسبب ذلك العناء والتعب لزوج آدم ولا الشقاء لآدم نفسه، بالضبط كما حصل لمريم عندما نفخ الروح فيها كلمة الله المسيح. لكن ما الذي حصل فعلا على أرض الواقع؟

**رأينا المفترى**: كان على آدم وزوجه أن يلتقيا معا ليتم النفخ بطريقة غير تناسلية (ولنقل مثلا بطريقة شفوية – بالنفخ). لكن ما أن حصل اللقاء بينهما لهذه الغاية على وجه التحديد حتى بادرهما الشيطان بالوسوسة قائلا:

- ﴿... مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

فالشيطان – نحن ما زلنا نتخيل- قد بادر آدم وزوجه بالنصيحة في تلك اللحظة التي كانا على وشك القيام بعملية النفخ. فهو قد جاءهما (نحن نتخيل) معا، وكان هدفه أن يبدي لهما ما وري عنهما من سوءاتهما. انظر الآية السابقة من أولها:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

فما الذي حصل حينئذ؟

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: في هذه اللحظة (نحن نظن) أدخل الشيطان شيئا من الشك في قلبيهما بأن قدم لهما خيارا آخر لم يكن في الحسبان من قبل. فما كان من آدم نفسه إلا أن تلكأ (نحن ما زلنا نتخيل) عن القيام بمهمة النفخ التي كان عازما عليها مع زوجه حينئذ. وليس أدل على تلكؤ آدم هذا من أن الشيطان قد انفرد به مرة أخرى قائلا له:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

وهذا ربما يدلّنا بأن الشيطان لم ينجح في المرة الأولى عندما كان آدم في صحبة زوجه، بينما نجح في المرة الثانية عندما كان آدم قائما لوحده. والسبب في ذلك (نحن نظن) أن نصيحة الشيطان لم تلق أذنا صاغية عند زوج آدم، بينما وجدتها عند آدم نفسه. فآدم هو من نزل عند نصيحة الشيطان، وهو من عصى ربه، وهو من غوى، وهو من تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، لكن زوجه – بالمقابل- لم تقع في ذلك اطلاقا. فآدم إذا هو من يتحمل مسئولية ذلك كله، وما كان وقوع زوجه في الشرك إلا من باب أنها نزلت عند رغبة آدم وليس معصية لربها، فحبل صلتها مع ربها (الروح) لم ينقطع اطلاقا، ولكن حبل (صلة) آدم مع ربه هو الذي انقطع .

**تلخيص ما سبق**: عندما سكن آدم وزوجه الجنة كان عليهما أن يقوما بفعل التكاثر، وكانت الطريقة المصممة لذلك هي عملية النفخ، لتكون الذرية خلافة وليس ملكا وراثيا. لكن ما أن وضع الشيطان أمامهما خيارا آخر (وهو الملك الذي لا يبلى) حتى أصبح آدم في حيرة من أمره. فقد أصبح أمامه الآن خياران للقيام بهذه المهمة:

⇐ النفخ (الخلافة) أو
⇐ الجنس (الملك)

وفي حين أن الله قد رضي له خيار النفخ لأنه الأقل تكلفة والأسلم من شرك الشيطان، كان الشيطان قد وضع على الطاولة أمام آدم الخيار الآخر، وهو لا شك الأكثر خطورة. ليكون السؤال الآن: لماذا اختار آدم الخيار الآخر (أي النزول عند إرادة الشيطان)؟

**رأينا المفترى**: نحن نظن بأن آدم لم يكن لينزل عند إرادة الشيطان تاركا الإرادة الإلهية لولا أن الأمر يستحق المجازفة. انتهى.

**السؤال**: وما الذي جعل من خيار الشيطان خيارا مسوغا عند آدم؟

**رأينا المفترى**: إنها ثورة الغنم

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: عندما وجد آدم نفسه واقعا بين الخيارين، كان عليه أن يتأكد منهما. فكان عليه أن يرى الفرق بين الخيارين بالتجربة. فكان آدم يحمل العصا التي يهش بها على غنمه بيده، ومادامت تلك العصا بيده (نحن نتخيل) ستبقى تلك الغنم هادئة لا تثور، فلا تتولد عنده الرغبة الجنسية، وبكلمات أكثر جرأة نقول كان العضو الذكري عند آدم في حالة ركود مادامت العصا بيده، لكن الشيطان الآن يدلّه على ما وري عنه من سوءته بأن يلقي العصا من يده، ويرى بأم عينه ما يحصل له عندئذ. وبالفعل ما أن وضع آدم العصا من يده (نحن ما زلنا نتخيل) حتى ثارت غنمه فانتصب عضوه الذكري. فكان عليه أن يهدئ ثورة الغنم تلك بواحدة من طريقتين:

- ⇐ أن يمسك العصا بيده، فيكون بذلك قد هش على غنمه بها، أو
- ⇐ أن يضع العصا جانبا، ويطلب زوجه ليمارس معها العملية الجنسية.

**السؤال**: ما الذي فعله آدم حينئذ؟

**جواب مفترى من عند أنفسنا**: عندما وجد آدم نفسه في تلك الحالة غير المستقرة، كان عليه أن يتخذ قراره بأن يركن إلى واحد من الخيارين، إما أن يمسك العصا بيده ليهش بها على غنمه أو أن يدع العصا ويمارس العملية الجنسية مع زوجه. فما الذي حصل حينئذ؟

**تخيلات مفتراة من عند أنفسنا**: منذ تلك اللحظة بدأت مطاردة الذكر للأنثى. فالرجل هو الذي يطارد الأنثى من أجل شهوته، والأنثى هي التي تتمنع وتحاول الهروب من مخالبه. لكن ما أن تقع الأنثى تحت يديه، فيتمكن منها، حتى تكون ردة فعلها القبول التدريجي للأمر (يعني شوي شوي). فكان قرار آدم أن يلبي رغبته الجنسية الجامحة في غياب العصا. فكانت خسارته الأولى مقابل تلبية رغبته الجنسية. لكن السؤال المطروح هو: كيف سينفذ آدم العملية الجنسية على أرض الواقع؟

**رأينا المفترى**: لم يكن يستطيع آدم تنفيذ ذلك على أرض الواقع إلا أن ينزع وزوجه لباسهما. فكيف سيتم ذلك؟ هل لو رضي هو أن ينزع عنه لباسه، هل سترضى هي بذلك؟

**رأينا المفترى**: كلا. لن ترضى بذلك، فقد حاول آدم معها (نحن ما زلنا نتخيل) أكثر من مرة، لكنها كانت تصده عنها كل مرة، فكيف سيضع آدم زوجه أمام الأمر الواقع بدعم لوجستي من الشيطان؟

**رأينا المفترى**: أن تنزع هي بنفسها لباسها عنها.

**السؤال**: وكيف سيتم ذلك؟

**رأينا المفترى**: أن تصبح بحاجة أن تنزع عنها لباسها.

**السؤال**: وما الذي سيضطرها إلى ذلك؟
**رأينا المفترى**: أن تكون بحاجة أن تجوع فتعرى وأن تظمأ فتضحى؟
**السؤال**: وما معنى ذلك؟
**جواب مفترى**: عندما تجوع فتأكل، فتكون بحاجة إلى أن تبرز، وعندما تظمأ فتضحى، فتكون بحاجة للتبول، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بنزع اللباس الذي يواري عنها سوءتها. (للتفصيل في ذلك انظر كثيرا من مقالاتنا السابقة).
**السؤال**: وكيف ستضطر إلى ذلك؟
**رأينا المفترى**: أن تأكل من تلك الشجرة. انتهى.

**تلخيص ما سبق**: عندما وضع الشيطان أمام آدم الخيار الثاني (التكاثر بالجنس)، دلّه أيضا على الطريقة التي يُنزل بها زوجه عند قراره لكن بطريقة شيطانة، تحقق لآدم رغبته، وفي الوقت ذاته تجُر رجل زوجه إلى رغبته شوي شوي. فالأنثى بطبيعتها تنفر من العملية الجنسية إن كانت مباشرة فضّة، وتتقبلها إن كانت تدريجية غير مباشرة ولطيفة (واللي مش مصدقني يشوف مشهد فهد مع ميرا في مسلسل جن). فميرا لم تكن ترفض فكرة التزاوج مع فهد في تلك الليلة، فهي قد وعدته بها منذ بداية الرحلة، لكن جاء رفضها لها في الليل عند التنفيذ الفعلي، وذلك لأن فهد – برأينا- قد عمد إلى تنفيذها بطريقة فضّة (رجولية)، ولو أخذها شوي شوي (كما كانت تطلب منه في تلك اللحظة) لتحصّل له ما أراد منها بكل تأكيد. منك لله يا فهد! ما علينا.

نرجع لموضوع آدم وزوجه بافتراء القول بأن خطة الشيطان كانت محكمة بأن يوقع زوج آدم في الشرك بالأكل من الشجرة، وعندها ستجد نفسها بحاجة لا محالة للتبرز والتغوط، الأمر الذي سيؤدي إلى أن تنزع عنها لباسها، فتصبح مكشوفة السوءة أمام نفسها وأمام زوجها، الأمر الذي وضعها أمام الأمر الواقع، فما يكون منها إلا أن تنزل عند رغبة زوجها، ليس حبّا في العملية الجنسية ذاتها ولكن لاستحالة القيام بالمهمة بالطريقة الأولى، أي النفخ كما كان ممكنا قبل الأكل من الشجرة. فالأنثى – نحن نظن- لا تتقبل العملية الجنسية شهوة ولكن تتقبلها كحاجة بيولوجية ضرورية لديمومة الحياة. انتهى.

**السؤال**: لماذا خسر آدم القدرة على النفخ كما كان ممكنا قبل العملية الجنسية؟ لِم لمْ يكن قادرا على القيام بالمهمة بالطريقتين مثلا؟ يسأل صاحبنا.

**رأينا المفترى**: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن السبب في ذلك لا يعود إلى فقدانه العصا (وهي الشيء الأول الذي سلح الله به آدم من خطر الشيطان وخطر غنمه) وإنما لخسارته أيضا للشيء الآخر الذي كان آدم يملكه ليقوم بمهمة النفخ – إنه اللباس. انتهى.

**تلخيص ما سبق**: عندما اتخذ الله قراره بأن يكون آدم خليفة في الأرض، جعل معه العصا التي تقوم بمهمتين اثنتين، وهما تسخير الجن (بمن فيهم الملائكة) لسلطته، وكذلك التحكم بثورة غنمه. فالعصا هي بمثابة السلاح الدفاعي الذي يستطيع آدم استخدامه ليصد الخطران اللذان يتهددانه، لكن كان آدم بحاجة أيضا إلى ما يستطيع به تنفيذ أمر الخلافة بالتكاثر بالجنة. فكيف سيقوم آدم بذلك؟

**رأينا المفترى**: إنها الهاء، إنها الروح، إنها اللباس. انتهى.

**السؤال**: وكيف ذلك؟

**رأينا المفترى**: عندما نفخ الله في آدم من روحه، تجلى ذاك النفخ الإلهي باكتساب آدم اللباس الذي يواري سوءته، فكانت ماهية ذلك اللباس ليس أكثر من النور الإلهي، وذلك لأن الله نفسه هو النور:

- ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: 35]

فظهر آدم الذي خلقه الله من طين وكأنه نورا بما اكتسب من النور الإلهي بتلك النفخة التي أودعها الله فيه، فكانت عبارة (نحن نتخيل طبعا) عن طاقة نظيفة كامنة فيه. ومادام تلك الطاقة موجودة فيه، فهو يستطيع أن ينفخها في زوجه، فيحصل التكاثر، بالضبط كما حصل عندما نفخ الروح في مريم. لكن هل لو نزع آدم ذلك اللباس عنه، هل كان يستطيع القيام بعملية النفخ؟

**جواب مفترى**: كلا وألف كلا. السؤال: لماذا؟

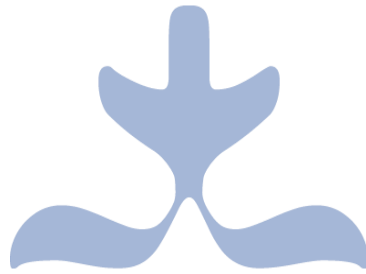
**رأينا المفترى**: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن آدم كان إذا أمام خيارين اثنين، وهما:

- ⇐ أن يستخدم الطاقة الكامنة في اللباس (التي هي أصلا من النور الإلهي)، أو
- ⇐ أن يستخدم الطاقة الكامنة في غنمه

وهو بالتأكيد – نحن نظن – لم يكن قادرا على استخدام كليهما في آن واحد. فاستخدامه لأحدهما تعني بالضرورة خسارته للأخرى. فلو استخدم آدم طاقة النور الإلهي، لما كان بحاجة أن يستخدم الأخرى. ولو استخدم الطاقة الكامنة في غنمه، لما كان سيستطيع بعد ذلك الرجوع إلى الأولى. وكان القرار بيد آدم نفسه، فهو مخير لا مسير في ذلك. فإرادة آدم مستقلة عن إرادة ربه. للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان مقالة في التسيير والتخيير.

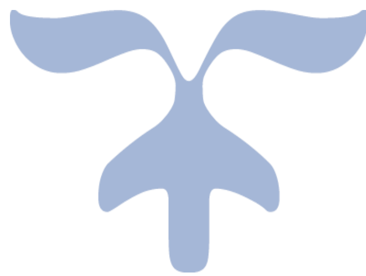
لذا، لمّا نزل آدم عند مشورة الشيطان وفضل الطريقة الثانية التي قدمها له الشيطان، كان ذلك سببا في خسارته للنور الإلهي، وبالتالي خسارته للطريقة الأولى التي ارتضاها الله له. وبهذا القرار الذي اتخذه آدم بمحض إرادته، ضاعت منه تلك الصلة مع ربه، وأصبح من الظالمين.

وللحديث بقية بإذن الله
بقلم. د. رشيد الجراح
013 أيار 2020



# كتاب الجدليات

## هل هي معجزات أم بينات؟



# الطريقة العلمية في الوصول إلى الحقيقة

## المنهج العلمي الجديد

نستنتج من السرد الذي قدمناه في مقالتنا السابقة تحت عنوان النظرية العلمية العالمية الإسلامية لكشف أسرار الكون في فصليها الأول و الثاني أنّ هناك ثلاث طرق متاحة لتحقيق المراد، وبالتالي معرفة سر الكون بأسره أو حتى مكونات الأشياء بجزئياتها:

1. استخدام السلطان "المادة" دون الإيمان بحكمتها- كحالة فرعون.
2. استخدام الفطرة أو السلطان مع الإيمان بوجود الحكمة فيها – كحالة موسى عليه السلام، فأن تعذرت.
3. معرفة "الحكمة" التي بها نسترشد إلى العلاقة الحقيقية بين الكلمة "الاسم" و "المسمى" كحالة آدم قبل الخروج من الجنة وحالة عيسى عليه السلام.

ونستطيع اختصار هذه الطرق الثلاث إلى طريقتين رئيستين:

1. **الطريقة المادية:** وهي التوصل إلى المعرفة باستخدام السلطان "أي الوسيلة"، كاستخدام الحيوانات في التنقل إلى عصر المركبات إلى ما قد يفضي إليه الفكر البشري في المستقبل.
2. **الطريقة الإيمانية:** وهي التوصل إلى المعرفة "معرفة سر الأشياء ومكنوناتها ومن ثم تسخيرها لخدمة الإنسان" باستخدام "الحكمة" أو"الفطرة" أو السلطان إنْ تأتى ذلك لنا.

فإذا كان العالم المادي لا يؤمن إلا بالطريقة الأولى في التوصل إلى المعرفة، فأنّنا نحن المسلمين مدعوون أنْ نتخذ منهجاً جديداً في البحث العلمي مستوحى من قرآننا الذي نؤمن إيماناً مطلقا بصدق كل صوت فيه، وأنْ نرفض تلك الأكذوبة الكبيرة التي جرّنا إليها الفكر المادي الإلحادي الغربي منبهرين ببعض النجاحات التي حققها. ولكنّا نؤمن إيماننا بصدق قرآننا أنّنا إنْ اتبعنا الطريقة الإيمانية في التوصل إلى المعرفة فإنّنا سنحقق أضعاف أضعاف ما حققه الفكر المادي في الكم والنوع، مستندين إلى الطريقة الثانية التي ستكون بلا شك أنجع وأقوى، وعندها سنكون متبوعين لا تابعين، وعندها فقط نستطيع أنْ نجاري العالم الغربي المادي لا بل والتفوق عليه حتى وإنْ كان ذلك بعد حين، فنحن ندرك التفوق المادي الغربي الذي لا نستطيع اللحاق به إنْ سلكنا مسلكه، فنحن لا نزال لا نملك حتى البنية التحتية لذاك المنهج وتلك الطريقة (أي "العلمهم" إن صح القول)، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد اختصنا بفكر أرقى من الفكر الغربي، فلماذا لا نسلكه ونكون إذاً أصحاب منهج وطريقة جديدة في البحث العلمي؟ ولعلي أجزم أنّ استخدامنا لهذا المنهج سيكون سبباً في تحقيق قوله تعالى:

- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال: 59]

إنّ ورود هذه الآية الكريمة في سورة الأنفال على وجه التحديد، ثم ورود قوله تعالى الأمر بالعدة بعدها على نحو:

- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال: 59-60]

له دلالاته التي قد لا تخفى على الكثيرين.

ولتسليط الضوء على بعض تلك الدلالات، نقول أولاً أنّ الله سبحانه أمرنا بقوله "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ"، فالسؤال المشروع الذي ربما يحق لنا طرحه هنا هو: أليس رباط الخيل جزءً من القوة؟ فلِمِ إذاً تذكر القوة ومن بعدها رباط الخيل؟ أليس في ذلك تكرار غير مرغوب؟ رأينا: كلا وألف كلا، إنّنا نزعم أن هناك فرقاً شاسعاً بين القوة من جهة ورباط الخيل من جهة أخرى، ظانين من عند أنفسنا أنّ رباط الخيل ليس جزءا من القوة التي تتحدث عنها الآية الكريمة، ولكن كيف؟

لو تدبرنا الآية الكريمة جيداً لوجدنا أن الله سبحانه قد أمرنا بإعداد شيئين اثنين:

1. القوة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾
2. رباط الخيل ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾

فما الفرق بين القوة ورباط الخيل إذاً؟

**جواب**: نحن نظن أنّ رباط الخيل هي القوة المادية التي قد يعدها المؤمن والكافر على حد سواء في ساحة المعركة (فهي نتاج العلم المادي)، ولكن ما هي القوة المطلوب من المؤمن إعدادها (وحتى قبل إعداد رباط الخيل بدليل أنّها ذكرت في البداية وقبل رباط الخيل في الآية نفسها؟

**افتراء من عند أنفسنا**: نحن نظن أن القوة المطلوب منا إعدادها لها علاقة بما في الكتاب. ولكن كيف؟

**جواب**: لنتدبر آيات أخرى في كتاب الله لتساعدنا في فهم الآيات السابقة، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [البقرة: 63]

فما الذي آتنا إياه ربنا وطلب منا أنّ نأخذه؟ وكيف سنأخذه بقوة (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ)؟ فهل يحتاج ذلك إلى قوة مادية؟ وكيف سنذكر ما فيه (وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)؟

**جواب**: إنه الذي جاءنا من ربنا، أليس كذلك؟ قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: 93]

تعيد هذه الآية الكريمة الفكرة نفسها بأنْ نأخذ ما جاءنا من ربنا بقوة (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ) وتضيف الآية نفسها أنّنا بحاجة أنْ نسمع ذلك (وَاسْمَعُوا ۖ)، فما هو الذي سنأخذه بقوة إذن؟

**افتراء من عند أنفسنا**: إننا نظن أنه قول (كلام) ولا شك، وربما يثبت ظننا هذا ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 145]

فهذا يعني بما لا يدع مجالاً للتأويل – عندنا- أنّ الله قد طلب من موسى أنْ يأخذ شيئاً مكتوباً (ما في الألواح) بقوة ويأمر قومه بالأخذ بها (لا بل ب بِأَحْسَنِهَا).

**السؤال**: هل يحتاج أخذ شيء مكتوب إلى قوة جسدية؟

**رأينا**: لا أظن ذلك، فما هي القوة الجسدية التي يمكن أن يتمتع بها الطفل أو الصبي حتى يأمره الله أنْ يأخذ بها الكتاب كما في حالة يحيى مثلاً؟ قال تعالى:

- ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: 12]

فهل يملك طفل مثل يحيى قوة بدنية حتى يأخذ بها ما آتاه ربه إياه (أي الكتاب)؟ وهل يحتاج أخذ الكتاب (أو ما فيه) إلى قوة بدنية أصلاً؟

**جواب**: كلا، إنما المطلوب – حسب ظننا- هو التمسك بقوة بما في الكتاب، ولا أظن أنّ الكتاب يحتوي أكثر من قول ربه (أي كلام)، لنخلص من خلال هذا النقاش إلى تقديم الافتراء التالي الذي هو بلا شك من عند أنفسنا: إن القوة التي طلب الله منا أنْ نعدّها موجودة في الكتاب، وهذا قد يفسر قوله تعالى:

- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: 165]

فالناس (وخصوصاً غير المؤمنين) وإنْ امتلكوا رباط الخيل قد لا يمتلكوا القوة (أي ما في الكتاب)، لأنّ القوة لا تأتي إلاّ من الله وحده (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)، ولا أخال أنّ الله يحتاج لينفّذ أمره إلى أكثر من "كن فيكون" (أي الكلام)، وما أذن الله لنا به من القوة موجودة – برأينا- في كتاب.

**افتراء من عند أنفسنا**: نحن نفتري الظن أن ما هو مطلوب منّا أنْ نبحث عنه من "قوة" التي أمرنا الله بإعدادها موجود في كتاب الله، كما أننا نؤمن أن القوة هي تحصيل الأمور "بكن فيكون" مادام أنها مشتقة من قوة الله نفسه (أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا).

ولعل في هذا تأكيد أنّ جليس سليمان مثلاًكان يملك شيئاً من القوة (أي كن فيكون) لأنّه كان يملك "علماً من الكتاب"، فاستطاع بذلك تحصيل عرش بلقيس قبل أنْ يرتد لسليمان طرفه:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: 40]

وطلب الله من يحيى أنّ يأخذ الكتاب بقوة، فكانت النتيجة " وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا "، فنتيجة الأخذ بكتاب الله بقوة حصول الحكم، فهذا يعني – بمنطقنا المفترى- أننا إنْ أخذنا كتاب الله "بقوة" تحصل لنا "الحكم"، وهنا لا بد أنْ نفهم المقصود "بالحكم" الذي تكرر ذكره في كتاب الله. فما هو الحكم؟

نحن نعلم أن الله سبحانه يدعو يحيى عليه السلام أنْ يأخذ الكتاب بقوة:

- ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: 12]

وربما نعلم في الوقت نفسه أنّ يحيى لم ينزَّل عليه كتاباً خاصاً به من ربه، فما هو إذاً الكتاب الذي طلب الله من يحيى أنْ يأخذه بقوة؟

**جواب**: لا شك أنَ كتاب عيسى بن مريم لم يكن بعد قد اكتمل، فولادة يحيى بن زكريا تزامنت مع ولادة عيسى بن مريم، ولم يكن أهل الكتاب في ذلك الوقت (وخصوصاً الأحبار منهم) يتدارسون - في ظننا- سوى كتاب الله الذي أنزل على موسى:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: 44]

وسنتحدث في مقالاتنا الخاصة بخلق عيسى بن مريم عن هذه الجزئية بحول الله وتوفيقه،

---

لذا فالله أسأل أن يأذن لي الإحاطة بشئ من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم

---

فيحيى بن زكريا تحصل له الحكم صبياً، وقد كان مأموراً منذ ولادته أن يأخذ الكتاب بقوة، وآتاه الله الحكم صبيا، فكيف حصل له ذلك؟

**رأينا**: لقد وجد يحي كتاب موسى حاضرا، فما كان طلب الله منه – في ظننا- سوى الأخذ بذلك الكتاب بقوة (أي الالتزام بما فيه)، والحالة كذلك أصبح ذلك الغلام من النبيين الذين يحكمون به لما فيه من الهدى والنور "إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ"، وبالتالي لم يكن متبعاً للهوى والظن:

- ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة: 49]

نتيجة: من تمسك بالكتاب بقوة (كما فعل يحيى بن زكريا) كان أبعد ما يكون عن الهوى الذي يطلبه من لا يرضى بحكم الله.

وأظن أن المفيد التذكير أنّ لفظ "القوة" تطلق في لغتنا الدارجة على الكبير والصغير والذكر والأنثى، فنقول هذا الطفل قوي وتلك الفتاة قوية حتى وإنْ كانوا ضعيفي البنية الجسدية، فالإنسان يمتلك شيئاً من القوة إنْ هو أظهر التزامه وتمسكه بكلامه وبمبدئه، وكذلك كان يحي بن زكريا، فقط أظهر القوة صغيرا فتحدى طاغية زمانه وإنْ كان ذلك ربما كلفه حياته الدنيوية (كما تشير قصص بني إسرائيل عن نهاية هذا النبي الكريم). سنتحدث عن هذه الجزئية في مقالاتنا الخاصة بخلق عيسى بن مريم بحول الله عندما نطرح التساؤل التالي: لماذا سمي هذا النبي بيحيى إن كان أصلاً قد قتل وهو في شبابه؟ فكيف به يكون يحي إذاً؟ فالله أسأل أن ينفذ مشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو السميع البصير.

وربما ندرك جميعاً أنّ مجرد نزول كتاب الله أدى بالناس إلى الفرقة فاختلفوا فيه، ولكن القلة القليلة استطاعوا – بهدي من الله وتوفيقه- تبيان الاختلاف وهم الذين أُتوا الحكم:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]

ولعل هذا يفسر لنا ترادف ألفاظ الكتاب والحكم والنبوة مجتمعة أو متفرقة في آيات عديدة في القرآن الكريم:

- ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران: 79]

**السؤال**: فما الفرق بين الكتاب والحكم والنبوة؟

**افتراء من عند أنفسنا**: نحن نظن أن الكتاب هو النص المكتوب من الله، والحكم هو الالتزام فيه لفهم ما أُختلف فيه، والنبوة هي توكيل مهمة تبليغه للناس. ولهذا جاءت دعوة إبراهيم في البداية:

- ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء: 83]

وقال في حالة لوط:

- ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: 74]

وقال في حالة يوسف:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: 22]

وقال في حالة موسى قبل التكليف بالنبوة:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: 14]

وقال في حالة داوود وسليمان:

- ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: 79]

والمراقب لهذه الآيات الكريمات يجد أنّ حصول الحكم تبعه الابتلاء من الله، فإبراهيم دعا ربه أنْ يؤتيه الحكم، فتحصل له ذلك ولكن الله ابتلاه، قال تعالى:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: 102-106]

وحصل الحكم لداوود، ولكن تبعته الفتنه:

- ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ
بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ
وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾
فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ
﴿٢٦﴾﴾ [ص: 21-26]

وحصل الحكم لسليمان كذلك، فكانت الفتنة:

- ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: 30-34]

وكانت الفتنة من نصيب يوسف كذلك مباشرة بعد الحكم:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 22-24]

ووقع موسى في الفتنة بسبب الشيطان فدعا ربه مباشرة فغفر له ربه ذنبه:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: 14-16]

وكاد لوطاً أن يقع في الفتنة، فكانت منّة الله عليه بالنجاة:

- ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: 74-75]

ولعلي أجزم أنّ لوطاً كاد أنْ يقع في فتنة أخرى بعد النجاة لولا أنْ تداركته رحمة ربه وذلك بدليل قوله تعالى بعد آية النجاة " وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ". نحن نظن أن القارئ ربما يجد بعض التفصيل حول هذه القضية في سلسة مقالاتنا تحت عنوان: لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟

فعندما يوشك الإنسان الصالح على الوقوع في المعصية تتدخل إرادة الله له بالنجاة وتتدخل إرادة الشيطان له بالوقوع في المعصية، والقرآن يصور هذا المعنى بدقة متناهية، فعندما وقع موسى في الفتنة قال مباشرة " قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ " ولكن عندما نفذت إرادة الله ليوسف بالنجاة، جاء

في كتاب الله " كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ "، والقارئ مدعو لمقارنة ما تحصل لهؤلاء الأنبياء بعد الحكم:

لوط: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [الأنبياء: 75]

يوسف: كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ

داوود: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾ [ص: 25]

سليمان: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾ [ص: 40]

موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾

ولعل هذا يذكرنا كذلك بأيوب عليه السلام، فما أصاب أيوب كان (كما في حالة موسى) من الشيطان:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾ [ص: 41]

ولكنه عندما توجه إلى ربه بالنجاة قائلاً:

- ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: 83]

فوجد ربه قريبا سميع الدعاء:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 84]

وهكذا كانت سيرة الأنبياء جميعاً، فعندما يذكر في القرآن دخول الإنسان (وحتى الأنبياء) في رحمة الله، فهذا يعني بالضرورة منازعة الشيطان والتغلب على إرادته، ولنقرأ الآيات التالية من سورة الأنبياء:

- ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦
وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ
إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَزَكَرِيَّآ
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا
لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾
[الأنبياء: 85-90]

إنَّ النتيجة التي نخلص إليها من النقاش السابق أنّ لفظة "حكماً" التي وردت في كتاب الله ربما تعنى "الحالة أو الموقف الذي يتطلب معه أنْ يحسم الإنسان أمره إلى أي الفريقين ينتمي، فلقد حسم يحيى أمره وهو صبيا، وحسم يوسف وموسى أمرهم عندما بلغوا أشدهم، ودعا إبراهيم ربه أن يؤتيه الحكم فحسم أمره وتلّ ابنه للجبين، وحسم لوطاً أمره فنجاه الله من القرية التي كانت تعمل الخبائث (وربما أدخله الله في رحمته بعد بلاء أكبر من ذلك)، ومن السرد السابق تتضح الصور التالية:

1. أنْ يحسم الإنسان أمره دونما تردد ولا تلكؤ (كحالة يحيى عليه السلام)
2. أنْ يحسم الإنسان أمره بشيء من الخوف وقليل من التردد (كحالة إبراهيم ويوسف عليهم السلام)
3. أنْ يوشك الإنسان أنْ يقع في الفتنة دون علم ولا دراية فيعود فورا (كحالة داود عليه السلام)
4. أنْ يقع الإنسان في الفتنة دون قصد أو دراية فيعود فوراً (كحالة سليمان وموسى عليهم السلام)
5. أنْ يحسم الإنسان أمره بعد الوقوع في الفتنة حتى وإنْ كان على دراية (كحالة آدم عليه السلام)

ولكننا نجد أنَ رحمة الله شملتهم جميعاً بمجرد العودة والاستغفار وعدم الإصرار على الذنب، فمن لم تأخذه العزة بالإثم ورجع إلى ربه صادقاً، وجد الله تواباً رحيما.

دعاء: اللهم إننا نستغفرك مهما كان ذنبنا

ولكن يبقى السؤال قائماً: كيف يتأتى "الحكم" للناس أجمعين؟ لقد أفردنا سابقاً الحديث عن هذا السؤال وتبين لنا أنّ هناك طريقتين اثنتين وهما:

1- **الطريقة المادية**: وهي التوصل إلى المعرفة باستخدام السلطان "أي الوسيلة"، كاستخدام الحيوانات في التنقل إلى عصر المركبات إلى ما قد يفضي إليه الفكر البشري في المستقبل.

2- **الطريقة الإيمانية**: وهي التوصل إلى المعرفة "معرفة سر الأشياء ومكنوناتها ومن ثم تسخيرها لخدمة الإنسان" باستخدام "الحكمة" أو"الفطرة" أو السلطان إنْ تأتى ذلك لنا.

ففي حين أنّ الرسل جميعاً قد اتبعوا الطريقة الإيمانية حتى تحقق لهم مرادهم، ذهب معظم الناس إلى الثقة بالطريقة المادية، وتجلى الفكر البشري في نجاحات محدودة في هذا المجال، وأصبح من قبيل المسلمات أنها الوسيلة الوحيدة لتحصيل المعرفة، وغفل الكثيرون عن الطريقة الأخرى حتى ذهب أكثرهم ثقة بها أنّ تلك لا تعدو أكثر من معجزات ذهب زمنها وولى، وقبل الخوض في إثبات فاعلية الطريقة الإيمانية ربما ينبري البعض ليتساءل: وهل لهاتين الطريقتين دليل في الفكر الإسلامي المتمثل في مصادر التشريع الإسلامي: القرآن الكريم والسنة المطهرة؟ وهل الطريقتان توصلان إلى الحقيقة؟ وهل يجب أنْ نسلك إحداهما على حساب الأخرى؟

نقول أولاً أنّ الطريقتين – برأينا- مثبتتان في القرآن الكريم، ويمكن للطريقتين – في ظننا- أنْ توصلا إلى الهدف المرجو "وهو التوصل إلى الحقيقة" مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ القرآن الكريم يثبت بما لا يدع مجالاً للشك – عندنا- أنّ الطريقة الثانية (طريقة أصحاب الفكر الإيماني) أكثر فاعلية وأقوى من الأولى، ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أنْ نترك نحن المسلمين الطريقة الأولى في البحث عن الحقيقة شريطة أنْ نضعها في قالب إيماني، فنستفيد حينئذ من الطريقتين، نبحث عن "السلطان"، ولكن لا نترك الإيمان "بالحكمة" و الفطرة اللتين لا يتقبلهما الفكر المادي الغربي. ولتوضيح هاتين الطريقتين نورد أولاً الدليل عليهما من القرآن الكريم، قال تعالى في معرض الحديث عن سليمان وبلقيس:

- ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ٤٠﴾ [النمل: 38-40]

تثبت هذه الآيات بما لا يدعو مجالاً للشك توافر طريقتان لسليمان عليه السلام للحصول على عرش بلقيس، أولهما إحضار العرش باستخدام السلطان (العفريت) وهي طريقة سريعة جداً (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ) حتى العلم الحديث بأدواته المختلفة لم يصل إلى هذه المرحلة بعد، وهو في سعيه قد لا يحلم بالوصول إلى السرعة الأقصى الممكنة في خياله العلمي وهي سرعة الضوء، ولكن الآيات الكريمات تثبت أنّ هناك طريقة أسرع وأنجح من الطريقة الأولى ألا وهي "أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ". والجميل في التعبير القرآني – كما نفهمه- أنّ هذه الطريقة الثانية (أي الإيمانية) لا يملكها إلا من "عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ"، ولا شك أن الذي عنده علم الكتاب لا يستخدم إلا الكلمة (فما في الكتاب – كما نعلم- إلاّ اللغة) وهي "كن فيكون". وجاءت الآيات القرآنية في غاية الروعة في تلازم الحكمة بمن عنده علم الكتاب، وهو بالضبط ما ذكر عند الحديث عن عيسى عليه السلام أو عند الحديث عن داوود عليه السلام، قال تعالى عن عيسى عليه السلام:

- ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ٤٨﴾ [آل عمران: 48]
- ﴿... وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ... ١١٠﴾ [المائدة: 110]

فهو إذن يبرئ الأكمة والأبرص والأعمى ويحيي الموتى لامتلاكه علماً من الكتاب والحكمة الملازمة لذلك العلم، وقال تعالى في معرض الحديث عن داوود عليه السلام:

- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20]

وهو بذلك يستطيع التعامل مع الجبال والطير:

- ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٩﴾ [ص: 18-19]

وخلاصة القول أنّه لو لم يحصل عيسى على الحكمة من ذلك الكتاب ولو لم يحصل داوود على الحكمة من ذلك الكتاب لما استطاعوا – برأينا- الحصول على ما يريدوا بالكلمة "كن فيكون"، ولما استطاعوا في البدء التعامل مع هذه المخلوقات وتسخيرها لخدمتهم، فبالحكمة عرف عيسى عليه السلام كيف يتعامل مع الأمراض وحتى الموت، وبالحكمة عرف داوود كيف يتعامل مع الجبال والطير، وبالحكمة استطاع سليمان أنْ يخاطب الطير والنمل، فكان يعرف "منطق" تلك المخلوقات وبالتالي الاستفادة القصوى منه:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]

والمدلول التربوي الذي نسعى للتأطير له هنا هو إذا كان الخيال العلمي الغربي يسعى للوصول إلى الحصول على المراد بـ " قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ"، فلِمَ لا يكون خيالنا العلمي يسعى للوصول إليه بـ "قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ"؟ وهنا ملحوظ نظن أنه غاية في الدقة تصوره الآيات التي تتحدث عن داوود عليه السلام، فلقد ذكرنا سابقاً أنْ عكس الحكمة هو "الهوى"، فعندما اتبع الناس الهوى أضاعوا الحكمة، وبالتالي لم يعودوا قادرين على التعامل مع هذه المخلوقات، فلو لم يخسر آدم عليه السلام تلك الحكمة، لعاش الإنسان على الأرض كما كانت حياته في الجنة عيشة رغداً يحصل على كل ما يريد بـ "كن فيكون"، قال تعالى:

- ﴿... وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ... ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

ولكن بعد أنْ أُدخل "الهوى" على تلك الحكمة، لم يعد آدم يصلح للعيش في الجنة، وذلك لأنّ الجنة هي مكان الحكمة الخالصة التي يتأتي كل ما فيها بـ "كن فيكون"، ولذا نجد مثلاً أنّ الآيات الكريمات التي تتحدث عن داوود كانت غاية في الروعة والدقة حيث جاء فيها:

- ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: 26]

فالحكمة هي طريق الله سبحانه وتعالى، والهوى هي طريق النفس الإنسانية الأمّارة بالسوء وطريق الشيطان الدال على السوء.

ونعود مع القارئ إلى السؤال الأكبر والأهم: وهل نستطيع نحن البشر أنْ نحصل على تلك الحكمة ليتحقق لنا ما نريد بالكلمة "كن فيكون"؟ أليست تلك "معجزات" أجراها الله سبحانه على أيدي الأنبياء؟ وهل نستطيع نحن البشر أنْ نرقى إلى درجة الحصول على العلم المكنوز في ذلك الكتاب؟ فهل يصح أنْ يتأتي ذلك للناس العاديين؟

**جواب**: نعم. قد نستطيع الحصول ولو على الجزء المسير لحياتنا الدنيا، فيجب أنْ ندرك أنّنا لن نستطيع الحصول على كل المعرفة المكنوزة في ذلك الكتاب وإلا لكنّا إذاً آلهة، ولكنّا قد نحصل على بعض

تلك المعرفة ويكفي أنْ نحصل على المعرفة التي نحتاجها في حياتنا الدنيا، فالقرآن الكريم يثبت في أكثر من موضع أنّ الله خلق كل ما في الأرض وسخرها لخدمة الإنسان:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا...﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: 29]

ولكن المعرفة المكنوزة في ذلك الكتاب هي أكبر من كل ما يمكن للإنسان أنْ يتخيله، فهي علم الله وحده. فنحن لا يمكن أنْ نملك علم الكتاب كله ولكننا نستطيع أن نملك جزءاً منه. وقد يستغرب القارئ من القول أنّنا قد نستطيع نحن بنو البشر الحصول ولو على جزء يسير من تلك المعرفة، وقد ينعت البعض هذا الكلام بالتحريف أو الزندقة، ولكنّا نقول بإيمان راسخ أنّ ذلك ممكن لما قد ثبت منه في القرآن الكريم. ولنقرأ بعض الآيات القرآنية لنثبت أمرين اثنين:

1. أننا مؤهلون للحصول على الحكمة
2. وأننا لن نحصل على علم الكتاب كله

## الناس مؤهلون للحصول على الحكمة

ربما لا نجد كثير عناء أن نجد أمثلة وافرة في كتاب الله كيف اختص الله سبحانه وتعالى بعض عباده بشيء من تلك الحكمة التي استطاعوا بها تجاوز حتى ما كان للأنبياء أنفسهم، كلم خطير، أليس كذلك؟ نعم إننا نقول أنّ الإنسان العادي قد يتحصل له من العلم ما لم يكن للأنبياء أنفسهم، ونستعرض من القرآن الكريم ثلاثة أمثلة على ذلك:

1. لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ... ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: 12]
2. صاحب موسى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: 65]
3. جليس سليمان: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: 40]

فإذا كان القرآن الكريم يثبت الحكمة لبعض أولياء الله الصالحين، فإن ذلك – بمنطقنا المفترى- قد يحصل للآخرين من البشر، فلا يمكن أنْ يكون ذلك حكراً على أولئك الأشخاص بالذات دون غيرهم، بل نقول ما دام أنه حصل أنْ أصبح شخص مؤهل لتلك الحكمة، فلا ضير إذاً أنْ يتأهل أشخاص آخرون كذلك لحكمة يودعوها الله إياهم، وقد ذكر الله سبحانه في كتابه أنّ ذلك العلم هو نور الله، وإليه يهدي من يشاء من خلقه إذا ما أصبح ذلك الشخص مؤهلاً لأنْ يودع تلك الحكمة، والقرآن الكريم يسرد الشرط اللازم توافره في منْ قد يودع تلك الحكمة ويهتدي بالتالي إلى نور الله تعالى:

- ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا

ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ
يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن
يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ
ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ
سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمۡ
تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾
وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى
ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ
يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن
يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ
﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: 35-46]

فالآيات الكريمات تثبت عدة أمور لها علاقة مباشرة بفحوى الموضوع:

**أولاً**: أنّ ذلك العلم لا يتأتي إلا لفئة محدودة من الناس، وهم الملازمون لبيوت الله، الذين لا تأخذهم الدنيا بزينتها من الأموال والتجارة، الخ. أي هم أصحاب الفكر الإيماني وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: 146]

**ثانياً**: أنّ ذلك العلم لا يتأتي إلا لأصحاب الفكر الذي يؤمن بتلازم العلم المادي والعلم الإيماني الاعتقادي ورفض الفصل بينهما، فالآيات الكريمات تسرد عدة أمثلة على العلوم التي تشغل عقول العلماء كظاهرة المطر وخلق الإنسان وكذلك لغة الطير وحركة السموات والأرض.

**ثالثاً**: والملحوظ الجميل الآخر الذي تثبته هذه الآيات والذي نحاول إتيانه منذ بداية هذا البحث هو إمكانية توافر العلم "بالحكمة" أي بطريقة يصعب على الدليل المادي "طريقة البحث المادي" تفسيرها، وذلك في قوله تعالى " يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ "، فالسؤال هو كيف يمكن للعقل المسير بالدليل المادي أنْ يقتنع بأنّ الضوء قد يتأتى دون الوقود المشغل له؟ ولكن العقل الإيماني الاعتقادي يستطيع أنْ يدرك ذلك بيسر وسهوله، فهو يؤمن بأنّ الخالق الذي وضع بالنار خاصية الإضاءة يستطيع أنْ يضع تلك الخاصية في أي شيء.

وجل ما نود الوصول إليه هو إذا كان العلم المادي الغربي قد توصل إلى الإضاءة (الكهرباء مثلاً) باستخدام النار "الوقود" المشغل لها بعد طول عناء وجهد، فلِمَ لا نسعى نحن أصحاب الفكر الإيماني الاعتقادي إلى البحث عن الإضاءة دون استخدام الوقود المشغل لها؟ ويتسرع القارئ بالقول وهل هذا ممكن؟ والجواب الذي نورده هو: ولِمَ لا؟ إننا نفترض أننا قد نحصل عليه غداً أو قد لا نزال عشرات السنوات الضوئية بعدين عن ذلك، ولكن من حيث المبدأ لِمَ لا نؤمن بدايةً أنّ ذلك ممكن؟ أليس ذلك ما تثبته الآية القرآنية؟ إننا كمؤمنين يجب أنْ لا ننفي إمكانية ذلك ما دام أنه مثبت في عقيدتنا المستمدة من كتابنا (أي قرآننا) وعندها نعطل عقولنا وعقول الناس جميعاً حتى عن فرصة التفكير فيه، ونكون بذلك مثل الإنسان الذي كان يعيش في الكهوف قبل آلاف السنين ثم تحدثه عن اختراعات القرن الحادي والعشرين، كأن تقول له مثلاً أنك سوف تستطيع أنْ ترى ما يجري في الصين أو أنْ تخاطب من في الصين وأنت في هذا الكهف، فهل كان ذلك الرجل سيصدق أنّ ذلك ممكن على الإطلاق؟ وهل كان سيصدق أنّه سيكون هناك اختراعاً اسمه "التلفزيون" أو "التلفون الخلوي" مثلاً؟ فنحن في يومنا هذا من العلم الجديد الذي نسعى إليه كذلك الرجل الذي كان يعيش قبل آلاف السنين بالنسبة لاختراعات القرن العشرين، إنْ لم نكن أبعد من ذلك. ولكن ما نود أنْ نؤكده أنّه يجب أنْ نكون نحن المبادرين والسبّاقين إلى هذا العلم قبل أنْ يسبقنا إليه غيرنا ثم ننبري لنقول عندئذ أنّ ذلك مثبت في قرآننا.

والأمر الآخر أنّنا درجنا (وأقصد الغالبية العظمى من المسلمين) الحديث عن هذه الأمور على أنّها "معجزات" أي أمور خارقة للعادة، فذهب الخاصة من علماء المسلمين – علماء الشريعة وعلماء المادة – إلى اتخاذ موقف من هذه الأمور مفاده كما لخصه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة أنّها أمور لا يمكن القياس عليها. وهنا نستميح ابن خلدون ومن ظن ظنه العذر أنْ نخالفه الرأي، فنقول:

**أولاً**: لم يرد في أي موضع في القرآن الكريم أنْ هذه الأمور تسمى معجزات، فلا ندري من أين جاءت هذه التسمية. ونحن نتحدى أي شخص أن يقدم الدليل من كتاب الله على أنها معجزات لا يمكن القياس عليها، فليس هناك –على ما نظن ونؤمن- سوى معجزة واحدة ورد ذكرها في كتاب الله، إلا وهي ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]

نعم، ذلك هو الشيء الذي نؤمن باستحالة تحقيقه، ولكننا ندعو كل مؤمن إلى التفكير بسؤال واحد وهو: لماذا تحدى الله الإنس والجن على حد سواء الإتيان بمثل هذا الكتاب؟ هل فعلاً لأنّ ذلك كلام فصيح لا يستطيع الناس العاديين مجاراة فصاحته العربية؟ فنقول لمن ظن ذلك، أين الفصاحة في ألم أو في حم أو في كهيعص، الخ؟ ألا أستطيع أنا أو أنت أن نحبك بعض الحروف مع بعضها كأن نقول صكهيض (صاد كاف هاء يا ضاد) ثم نتحدى الجن والإنس على الإتيان بمثله؟ ثم أين الفصاحة في آيات من مثل ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [الشعراء: 19]، ألا نستطيع أن نقول مثلاً "ورميت رميتك التي رميت وأنت من الغافلين" أو "وضربت ضربتك التي ضربت وأنت من اللاعبين" فهل يجعل ذلك قرآنناً؟

**رأينا**: نقول لهؤلاء كم شكك أعداء هذا الدين بفصاحة مفردات وآيات هذا الكتاب؟ ألم يذهب بعضهم إلى القول أنّ بعض عباراته كانت دارجة حتى على لسان العامة وفي أشعار بعضهم؟ وهل يمكن أنْ يحسم الجدل في هذا الحديث ما دام أنّ الذي لا يقبل فصاحته ينكر في الأساس المصدر الذي جاء منه؟ فهم يؤمنون أنّ هذا الحديث هو كلام محمد وليس كلام رب محمد، وذهب بعضهم حتى إلى القول أنّ هذا ليس بكلام محمد نفسه بل كلام من يعلم محمد من البشر، لا بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك إلى تحديد هوية الشخص الذي يتلقى منه محمد هذا الكلام، ولكن جاء الرد الإلهي الذي كذّب افتراءهم هذا بدليل بسيط على نحو ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: 103]

وللخروج من هذا الجدل نقول أنّ معجزة القرآن الكريم ليس في فصاحة ألفاظه ولغته العربية، لا بل ونزعم القول أن القرآن الكريم ليس كتاباً موجهاً للعرب خاصة أصلاً وإنما هو - كما يعلم الكثيرون - موجهاً للناس كافة وللجن كذلك، فالتحدي قائم للإنس والجن:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88]

وسؤالنا الذي سنتعرض له لاحقاً بشيء من التفصيل هو: كيف يتحدى الله الناس كافة على الإتيان بمثل هذا الكتاب العربي في لغته وهم لا يعرفون أصلاً حرفاً واحداً من العربية؟ وحتى نستوضح الفكرة نقول هل يمكن أن تأتي بكتاب (أي كتاب) مكتوب بالفارسية أو الهندية أو الصينية وأنت لا تعرف حتى حرفاً واحداً من تلك الألسن؟ والسؤال الأكبر هو: كيف يتحدى الله أقواماً لا يعرفون العربية على الإتيان بمثل هذا القرآن وفي الوقت نفسه يدافع عن هذا الكتاب ويكذب إدعاء من يقول أنّ هذا الكتاب ليس من عند محمد بأن الذي يعلمه لسانه أعجمي؟

- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: 103]

ففي هذه الآية دليل أن من كان لسانه غير عربي لا يستطيع الإتيان بمثله، أليس كذلك؟ فلم إذاً يتحدى الله الإنس والجن (بغض النظر عن اختلاف ألسنتهم) على الإتيان بمثله؟

**افتراء من عند أنفسنا**: إننا نزعم الظن أنّ إعجاز هذا الكتاب ليس في لغته العربية وإنما في العلم الذي يحتويه هذا الكتاب، فالتحدي للبشر كافة ليس في النظم باللسان العربي وإنما في العلم الذي يكتنزه هذا الكتاب، وهو الحكمة:

- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: 113]

والحكمة هي – في ظننا- ذلك العلم اللغوي الذي تتحصل به الأمور بكن فيكون- وسنترك النقاش في هذا الموضوع هنا على أن نكمله في مواطن أخرى من البحث حتى لا تضيع الفكرة التي بدأنا النقاش فيها ألا وهي عدم وجود سوى معجزة واحدة وهي كتاب الله.

**ثانياً**: إنّ كل ما ورد في كتاب الله عن ما يرغب كثير من أهل الدراية تسميته بالمعجزات جاء تحت مسميات آيات وبيّنات، فوردت أكثر من ثلاثمئة مرة بهذه التسميات. انظر مثلاً

- ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: 19-27]

ولا شك أن هناك فرق بين أن نقول هذه آيات بينات أو أن نقول هذه معجزات.

**ثالثاً**: لا شك أنّ هناك تبعات جمة لهذه التسميات أعظمها أنك عندما تسميها معجزات فإنك تحرم العقل البشري من فرصة التفكير فيها، لأنها إذاً خارج نطاق قدرته على التفكر، فكيف سنستطيع أن نتفكر بشيء هو في الأساس غير قابل للتفكر فيه؟ هذا مع العلم أنّه حيثما ورد ذكر للآيات والبينات في القرآن الكريم صاحبتها الدعوة إلى التفكر والتدبر وإعمال العقل. والتساؤل الذي نثيره هو إذا كانت هذه كما يسميها البعض معجزات خارقة لقدراتنا العقلية، فلماذا يطلب منّا الله أنْ نعمل العقل فيها؟

**رابعاً**: يورد القرآن الكريم في أكثر من موضع أنْ الفكر الإلحادي ينظر إلى هذه الآيات والبينات بعين التشكيك وحتى التكذيب وينعتها بالدجل والشعوذة:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: 13-14]

- ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: 1-5]

**خامساً**: يورد القرآن الكريم مثلاً أنّ إحياء المغدور من بني إسرائيل بضربه ببعض من البقرة التي أمرهم الله بذبحها هي آية من آيات الله:

- ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٧٣﴾ [البقرة: 73]

ويتحدث القرآن أنّ ما أرسل به موسى إلى فرعون وملئه هي آيات و بينات:

- ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ۝٢٣﴾ [طه: 20-23]

وورد في الوقت ذاته أنّ تسبيح الطير آية من آيات الله، والسحاب المسخر بين السماء والأرض آية من آيات الله، وتكوير الليل على النهار آية من آيات الله، وتكون الجنين في رحم المرأة آية من آيات الله، والقائمة لا تنتهي، قال تعالى:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٤١ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٣ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٤ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤٥ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤٦﴾ [النور: 41-46]

فهل إذا استطاع العلم المادي الحديث مثلاً استكشاف كيفية تكوّن الجنين في بطن أمه تصبح تلك الآية إذاً غير معجزة؟! وهل إذا لم يتمكن العلم المادي أنْ يكتشف لغة الطير تبقى مخاطبة سليمان للطير معجزة؟! وهل كانت معرفة جنس المولود معجزة في الماضي ثم لم تعد كذلك في أواخر القرن العشرين؟! والتساؤل المشروع هو: ما الذي يمكن اعتباره معجزة وما الذي لا يمكن اعتباره معجزة؟

**رأينا**: إن الجواب الذي نود طرحه هو أنّ هذا السؤال برمته غير مقبول، ويجب استبداله بالافتراض التالي: إنّ كل ما في السماء والأرض هو آية من آيات الله حتى وإن تفاوتت درجة فهم العقل البشري المادي له أو تقبله وذلك لأنّ العقل الإيماني لا يجد صعوبة في تقبله، وما هي إلا مسألة وقت حتى ينكشف خبره للعقل المادي، قال تعالى:

- ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ۝٨٨﴾ [ص: 87-88]

**سادساً**: إن هذه الآيات والبينات كانت سبباً رئيساً في اختلاف بني البشر، فهي فيصلاً بين الفئة المؤمنة والفئة الكافرة، قال تعالى:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]

وجل ما نودّ الوصول إليه هو (أنّنا كمسلمين) يجب السير باتجاه هدم الفجوة بين العقل المادي والعقل الإيماني، حتى تصبح الأمور العقائدية (مهما بلغت درجة غرابتها) محفزة للعقل المادي على التفكير، فتتحقق بذلك دعوة الله للإنسان لإعمال العقل بالتفكير بجميع آياته في الكون، قال تعالى:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ [الزمر: 21]
- ﴿...كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١﴾ [النور: 61]

**سابعاً**: أننا باستخدام هذه الطريقة الجديدة في البحث عن الحقيقة (بناء الفكر المادي على الفكر الإيماني) نكون قد بنينا العلم على القرآن الكريم وليس العكس، فنحن المسلمين نستمد علومنا من القرآن الكريم ونخضعها له وليس العكس، فلا نبني القرآن الكريم على العلم لنثبت صحته بالطريقة العلمية التي سارع الكثيرون إليها هذه الأيام، بل نقول وإيماننا راسخ أنّ القرآن الكريم هو الأصل والعلوم المادية هي الفروع، فلا يمكن أنْ يستند الأصل على الفرع أو أنْ يبني الأصل على الفرع، بل يجب أنْ تبني جميع الفروع على الأصل الثابت المتين وهو كتاب الله عز وجل الذي فيه خبر من قبلنا ونبأ من بعدنا:

- ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: 88]
- ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [النمل: 93]

ولتوضيح هذه الفكرة نورد قصة موسى عليه السلام مع ما يسميه أهل الدراية بـ "الخضر"، سنتحدث لاحقاً (بحول الله وتوفيقه) عن شخصية هذا الرجل عند التعرض لقصة موسى بالتفصيل، فالله أسأل أن يعلمني من لدنه علماً إنه هو العليم الحكيم.

قال تعالى:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ

أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف: 66-77]

وغاية ما نودّ قوله أنّ الفكر الغربي الذي يربط الأسباب بمسبباتها يبحث مثلاً عن المجرم بعد ارتكاب الجريمة، فلِمَ لا نحاول نحن أصحاب الفكر الإيماني (وبالطريقة العلمية الإيمانية) التعرف على المجرم قبل أنْ يرتكب الجريمة؟ أليس هذا ما تذكره الآية السابقة؟ أَلَمْ يتعرف هذا "الخضر" على المجرم قبل أنْ يقع في الجريمة فقتله؟ وبكلمات أخرى لماذا لا نحاول البحث في كيفية استباق الأحداث؟ أَلَمْ يتعرف هذا "الخضر" مسبقاً أنّ موسى لن يستطيع أنْ يصبر على صحبته؟ ألم يتعرف أنّ الملك سيصادر السفن السليمة، فأنقذ سفينة المساكين بتخريب جزء منها؟ ألم يتعرف على مكان الكنز الدفين فحاول حفظه لأصحابه الغلامين اليتيمين؟ وقد يرد البعض قائلاً وهل هذا ممكن؟ أليست تلك "معجزة أو كرامة" منحها الله لذاك العبد الصالح؟ وإنْ كان كذلك فما لنا نحن بذلك؟ نقول كلا، فالله سبحانه وإنْ كان قد اختص ذلك الرجل الصالح بذلك العلم لم يذكر أنه منعه عن غيره (أي أنّ غيره لا يمكنه أنْ يفعل ما فعل ذلك الرجل)، ودليلنا على ذلك يمكن تلخيصه على النحو التالي: إنّ الله سبحانه قد أعطى ذلك الرجل رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً، فقال تعالى:

- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: 65]

وما دام الله قد منّ على أحد عباده بالرحمة فهو قد منّ بها كذلك على سائر عباده:

- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: 10]

لا بل لقد وجهنا إلى طلبها منه:

- ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: 8]

ولكن كيف يملكها من لا يبحث عنها ولا يريدها أصلاً؟

- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: 28]

(دعاء: اللهم إني أسألك رحمة من عندك، فاكشفها لي فإني بها راغب، إنك أنت اللطيف الخبير)

وما دام أن الله سبحانه قد منّ على ذلك الرجل الصالح (بالإضافة إلى الرحمة) بالعلم، فهو قد منّ به - كما أسلفنا- على سائر عباده:

- ﴿... فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: 239]
- ﴿... قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ... ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 247]
- ﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ... ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: 255]
- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الشعراء: 132]
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ... ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: 80]
- ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: 49]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ ... ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: 14]
- ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: 3-4]
- ﴿... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: 11]
- ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: 4-5]

لا بل فقد وجّهنا الله لطلب العلم منه:

- ﴿... وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: 114]

(دعاء: رب زدني علماً إنك أنت العليم الحكيم)

نستنتج إذاً أنّ ما كان يملكه ذلك الرجل هو علم، وإذا كان جل ما يسعى الفكر الغربي إليه هو شرح الظواهر الكونية وتفسيرها على حالها، وهو ما يسمى بالقدرة التوصيفية للنظرية العلمية (theory descriptive power)، فلِمَ لا نحاول نحن أصحاب الفكر الإسلامي أنْ نذهب إلى أبعد من ذلك لنبحث عما يسمى بالقدرة التفسيرية أو التنبؤية للنظرية العلمية (theory explanatory power)، وهي القدرة التي كان يملكها عيسى وموسى وداوود وحتى لقمان والخضر عليهم السلام، صحيح أنّنا قد لا نحصل عليها كلّها ولكنّا يجب أنْ لا نعدم المحاولة للبحث عنها، فهي مثبتة وموجودة في فكرنا الإسلامي ممثلاً بأهم مصادر تشريعه وهو كتاب الله، وإلاّ لما تعدى إيماننا وبالتالي علمنا أكثر من نفاق خالص، فنحن في الصلاة نؤمن بما جرى على أيدي عيسى وموسى وداوود وسليمان ولقمان والخضر، وفي المختبر الجامعي لا نؤمن بأكثر مما جاء به اينشتاين، وداروين، وباستور، وفرويد، وتشومسكي، الخ.

إنّ الافتراض المطروح هو أنّ المعرفة الإنسانية مهما عظمت أو صغرت هي آية من آيات الله سبحانه، فلقد بدأت الرحلة البشرية على هذا الكوكب بالجهل المطبق، فكانت البينة الأولى للإنسان (والتي

نأخذها اليوم على أنها من المسلمات) سر من أسرار الكون عجز الإنسان عن الوصول إليه بنفسه حتى هداه الله إليه:

- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

وبعدها بدأت المعرفة تتكشف شيئاً فشيئا. فلقد اكتسب ابن آدم المعرفة من ما أوجد الله من نواميس الكون، وكذلك هي رحلة المعرفة الإنسانية، فمن المسلمات أنّ المعرفة لا تعني بأي حال من الأحوال إيجاد شيء من العدم بل هي تفهم بشري لنواميس الكون, فالعلم كل العلم من عند الله:

- ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ ... ٢٣﴾ [الأحقاف: 23]
- ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النحل: 74]

ولكن الله قد تفضل علينا بالقليل:

- ﴿... وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]

فالله سبحانه قد أوجد في هذا الكون من النواميس ما يكفي للحياة البشرية، وما دام كذلك، فليس هناك معرفة بشرية يمكن اكتشافها ومعرفة بشرية لا يمكن اكتشافها.

**والسؤال الذي يطرحه كل قارئ لهذه الصفحات هنا هو**: لنفترض أنّ ما تقوله فيه شيء من الحقيقة، ولكن ما يهمنا هو كيف يمكن تطبيق ذلك؟ أي هل تستطيع أنْ تبرهن لنا بالدليل الملموس على صحة ما تدعي؟

**جواب**: ما دام أنّ بحثنا لغوي، فإننا سنحاول تبيان كيفية ربط هذا الاعتقاد الإيماني- إنْ صح - بالنظرية اللغوية المنشودة وسنوضح كذلك كيف تختلف في ذلك عن النظريات اللغوية المادية السائدة في الفكر الغربي محاولين بحول الله تقديم الدليل على فاعلية ما نؤمن به. ولكن يكفي البوح هنا بأن ذلك كله مرتبط بفهم الحكمة التي أنزلها الله مع الكتاب:

- ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: 113]

وكانت تكمن مهمة الرسول الذي بعثه الله لنا من أنفسنا بأن يعلمنا الكتاب والحكمة:

- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: 129]
- ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: 151]
- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: 164]
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2]

فالله قد أنزل علينا تلك الحكمة إنزالا مصاحبة على الدوام للكتاب:

- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: 231]
- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: 113]

ولم يكن ذلك خاصاً بأمة محمد فقط وإنما جاءت لمن كان قبلنا:

- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: 54]
- ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]
- ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: 63]

ولكن يبقى السؤال الأخير هنا هو كيف يتم تبان تلك الحكمة؟

**جواب**: نحن نظن أن ذلك يكمن في الذكر:

- ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: 44]

لاحظ - عزيزي القارئ- أن الله قد نزل علينا الكتاب والحكمة كما تنص الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١﴾ [البقرة: 231]

وهو بالضبط ما أنزل الله على نبيه كما في الآية الكريمة التالية:

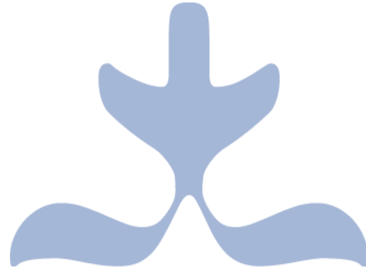
- ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: 113]

**افتراء من عند أنفسنا**: لما كان الذكر الذي أنزله الله على محمد هو لتبان ما نزل إليهم من ربهم (وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ)، ولما كان ما أنزل الله علينا هو الكتاب والحكمة (وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ)، فإن الذكر في ظننا هو ربط ما في الكتاب بالحكمة المنزلة معه. وهذا ما سنتحدث عنه بحول الله في مقالات لاحقة بعد التعرض لقضية الذكر الذي جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

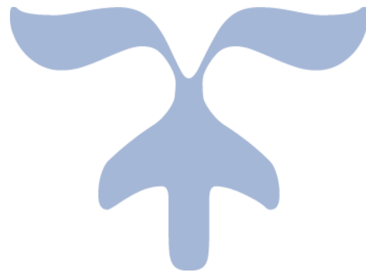
لذا نطلب من القارئ الكريم التعرض بعد هذه المقالة (إن هو أراد إضاعة قسطاً آخر من وقته) إلى سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: ماذا كتب في الزبور؟

بقلم د. رشيد الجراح
مركز اللغات
جامعة اليرموك
الأردن



# كتاب الجدليات

## جدلية الحقيقة والمجاز في القرآن



# جدلية الحقيقة والمجاز في القران الكريم

لقد كانت قضية المجاز من أهم المؤثرات في التفسيرات القرآنية، وكانت من أبرز نقاط الخلاف بين الفرق والمدارس الفكرية القرآنية، فانقسم المشتغلون بالتفسير القرآني بين من يؤيد القراءة الحرفية للنص القرآني ومن يحلق في سماء الاستعارات والمجازات، فاختلفت التفسيرات ومن ثم التأويلات للنص القرآني. ومحرك البحث لنا هنا سؤال واحد رئيس وهو: هل يمكن قراءة النص القرآني على المجاز؟ إن الجواب الذي نحاول الدفاع عنه في هذا البحث هو النفي قطعا، فنحن نزعم أن ليس في القران الكريم مجاز واحد.

لقد انشغل الناس بالمجاز-حسب ظننا- لسببين اثنين هما:

1. الاعتقاد بجمال المجاز اللغوي
2. الاعتقاد بصعوبة التفسير الحرفي لبعض النصوص القرآنية

وسنحاول في هذا البحث إثبات أن الحقيقة هي عكس ادعاءاتهم هذه.

لعل الغالبية الساحقة من المشتغلين بعلوم اللغة يعتقدون جازمين أن المجاز عنصر جمال في اللغة ومكمن قوة فيها، لا بل لقد كان عنصر تحدي للابتكار و التميز اللغوي والأدبي، فكلما كان الشخص أكثر قدرة على استخدام المجازات (لا بل) وابتكارها كان أكثر تميزاً وأنجح في قدرته اللغوية من ثم في توصيل مراده، وقد أبدع الشعراء والأدباء حتى أصبحت حرفتهم كلها مبنية على مثل هذا التصور. ونحن إذ لا ننكر عليهم صنيعهم هذا لنعتقد في الوقت ذاته أنّ هذا ما يميز لغتهم، ولا يجب تطبيق ذلك على النص القرآني، فالنص القرآني ما هو بقول شاعر، لا بل لقد ذم النص القرآني صنعة الشعراء، قال تعالى:

- ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: 224-227]

نعم الشعراء يهيمون في كل واد ويقولون ما لا يفعلون، ولكن هل النص القرآني يشبه كلام الشعراء في أي شيء؟ الجواب هو النفي قطعاً، فكم مرة يدافع النص القرآني عن نفسه أنه ليس من قول الشعراء؟!

ولكن لحب الناس -وحتى أهل العلم – للشعر وتعلقهم به، زينوا لأنفسهم مثل هذه الصنعة حتى أصبحوا هم من الممتهنين لها، ولعل بعض الخطباء على المنابر يستشهدوا بقول الشعراء كما يستشهدوا بكتاب الله أو بسنة نبيه، ولكننا نظن أن الشعر- كباقي ما يسمى بالفنون الأدبية- هو أساس المفسدة، فما كان الغناء والطرب والرقص لتزدهر دون صنعة الشعر، وما كان أهل الهواء سيأخذون مجدهم وسيعيثون في الأرض فساداً لولا أشعار المتنبي وشوقي وأبو النوّاس وغيرهم من أساطين الشعر وشياطينه، وقد يرد البعض علينا بامتعاض شديد ويقولوا أن هذا محض هراء فالشعراء هم من هم، ولا يجوز إنكار صنيعهم

بمثل هذا الافتراء الذي لا أساس له، فنرد عليهم بالقول: دعنا نحتكم إلى كلام الله، دعنا نلتزم بما جاء في كلام الله عن الشعراء، وسنعرض جميع الآيات القرآنية التي ورد فيها حديث عن الشعر والشعراء، ومن ثم نقر بالحقائق القرآنية كما هي دون زيادة ولا نقصان. قال تعالى:

- ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء: 5]
- ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾ [الصافات: 36-37]
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور: 30]
- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [الحاقة: 40-41]
- ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ [يس: 69]

وبعد هذا السرد، ما الذي يمكن أن نخلص إليه؟ ألا يعني ذلك أن التوجه العام في القران الكريم هو ذم الشعر والشعراء؟ فما كان الاستثناء إلا لفئة قليلة جداً من الشعراء، وعند استعراض واقع الشعر والشعراء، كم نجد من مثل هؤلاء الشعراء الذي يمكن أن ينطبق عليهم الاستثناء القرآني؟ أليست الغالبية العظمى من الشعراء هم من الفئة المذمومة؟ ألم يعلو صوت أم كلثوم وفيروز ونانسي عجرم (على الأقل فيما شاهدنا) بشعر المتنبي و شوقي ونزار قباني؟ وهل كان أهل الغناء والفجور ستروج تجارتهم وتزدهر دون استعارات ومجازات ونظم الشعراء؟ إن احد الكوارث في الفكر الديني أنه اتخذ من الاستثناء الذي ذكره ربنا الكريم لفئة قليلة من الشعراء ذات مواصفات ومقاييس محددة (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ) هي القاعدة، فجوّزوا كثيرة بحجة قليلة، ولكن هل هذا هو الحق؟ فإن كان الأمر كذلك، فلا باس إذاً بالخمر ما دام أن فيها بعض المنافع! كلا وألف كلا، فما افسد قليله يبطل كثيرة، أليس كذلك؟ فما بالكم إذاً بما افسد كثيرة؟ أليس من باب أولى سد هذا الباب بتلك الذريعة التي استخدمت في غير مكانها؟

لقد كان القصد من النقاش السابق تبيان أن المجاز هو من صنع البشر وخصوصاً أهل الشعر وفنونه، وكلام الله ليس بقول بشر ولا بقول شاعر، ويجب التمييز بين كلام البشر وكلام رب البشر، ونحن نزعم الفهم أن من أهم الفروقات بين كلام الله الواحد الأحد وكلام البشر أجمعين هو الفرق بين الحقيقة المجاز، ففي حين أن كلام البشر مليء بالمجازات والاستعارات فإن كلام الله هو كلام حقيقي يخلو من المجاز والاستعارة مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾ [الصافات: 36-37]

ويأتي السؤال المشرع هنا: لماذا؟ لماذا لا يوجد في كلام الله مجاز؟ إن الجواب على هذا السؤال يحمل في ثناياه أموراً عقائدية لا تبين إلا بفهم السؤال التالي: ما هو المجاز؟

## ما هو المجاز؟

لن أخوض بتفاصيل السؤال لانّ هذا ليس مكانه، ولكني سأقف عند أبسط الأمور التي لا جدال ولا منازعة فيها.

لعل الجميع يدرك أن من أهم ميزات المجاز هو حمل الكلام على غير حقيقته، ويتمثل ذلك بإيجاد رابط بين الموضوع المطروق والحقيقة التي ارتبط بها ذلك الموضوع، فعندما نقول مثلاً أن فلاناً أسد، فالحقيقة التي لا يمكن المجادلة فيها هي أنه ليس أسد، فهو إنسان والأسد حيوان، (فالإنسان إنسان والأسد أسد)، تلك هي الحقيقة، أليس كذلك؟ إن إيجاد رابط بين الإنسان والأسد هو تحريف للحقيقة مهما كانت المسوغات، ونحن نزعم أن ذلك ما كان ليتم لولا أمرين اثنين وهما:

1. عجز المتكلم عن الإتيان بالمفردة الحقيقية التي تعبر عن المعنى الحقيقي المراد إيصاله،
2. وإن لم يكن كذلك، فيعزى استخدام المجاز إلى ضعف اللغة نفسها عن توفير تلك المفردة

فعندما قلنا أن فلاناً أسد كان المقصود هو مدح الشخص بصفة ما، ولكن عندما لم يستطع المتكلم تحديد المفردة التي يجب استخدامها لتوصيل الفكرة التي ينوي التعبير عنها بذاتها، لجأ إلى المجاز معتمدا على قدرة السامع على تحديدها، فقد كان غرض المتكلم إيصال فكرة أن للشخص من القوة والشجاعة والجرأة والسيادة (ولربما كل ما للأسد من صفات باستثناء صفاته الحيوانية كالغباء والتهور والسذاجة) من الصفات مجتمعة لم يجد في مخزونه اللغوي المفردة التي بها يتم إيصال هذه المعاني مجتمعة في مفردة واحدة، والمفارقة الجميلة أنه حتى لو بحث في قاموس اللغة بأكملها عن تلك المفردة ما كان ليجدها، فهو إذا قصور في قدرة المتكلم أو و قصور في مخزون اللغة نفسها أو كليهما، وإن صح هذا الزعم فهل تقصر قدرة الإله منزل القرآن أن يجد المفردة الحقيقية التي يعبر فيها عن ما يريد قوله؟ الجواب كلا وألف كلا، فالله يستطيع تحديد المفردة الحقيقية التي تؤدي غرض القول دون زيادة ولا نقصان، فالقدرة اللغوية للبشر تبقى محدودة مهما عظمت، فهم تارةً يقولوا ما لا يعنون، وتارة يعنون ما لا يقولون، ولكن المقدرة اللغوية للإله فهي كاملة لا يشوبها نقص لأنّ الإله ببساطة يقول ما يعني ويعني ما يقول.

ولكن ماذا عن قصور اللغة نفسها؟ ألم ينزل القرآن باللغة العربية؟ هل اللغة العربية قاصرة، عاجزة عن توصيل بعض الأفكار؟ الجواب نعم بكل تأكيد، تقصر اللغة العربية عن توصيل بعض الأفكار.

وهنا سينبري الكثيرون للرد بالقول أن هذا الكلام يناقض بعضه بعضا؟ كيف بالله الذي لا يعجز عن التعبير عن مراده يعبر عن ذلك باللغة التي تقصر أحيانا عن التعبير عن بعض تلك المعاني؟ أليس ذلك تناقض؟ ألا يمكن أن يوجد في القرآن قصور في توصيل الأفكار بسبب اللغة نفسها؟

فنرد بالقول أن القصور الذي ينبع من اللغة نفسها واضح تمام الوضوح في القرآن الكريم، ولو دققنا في كتاب الله لوجدنا عشرات الأمثلة التي تدل على ذلك القصور اللغوي؟

أين ذلك؟ ما الذي تقوله يا رجل؟ اتق الله! هل في القرآن قصور عن التعبير عن المعنى المراد؟

نقول نعم هناك قصور، لكن هذا القصور هو بسبب اللغة نفسها وليس بسبب قدرة المتكلم وهو الله الواحد الأحد، وكل ما نحن بحاجة إليه هو إمعان التفكير بمثل هذه الآيات الكريمات التي نجد العشرات مثلها في كتاب الله، وسنورد عدة أمثلة للتدليل على هذا الزعم.

**مثال (1):** خلو اللغة من المفردات التي تعبر عن المعنى المطلوب فترد بلفظين مختلفين كما في حالة الأكل من الشجرة في قصة آدم وزوجه وقصة تفجر الماء بعصا موسى، قال تعالى:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ... ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا ... ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 121]

لاحظ عزيزي القاري كيف ترد القصة نفسها بلفظين مختلفين، تارة بلفظة " ذَاقَا " وتارة أخرى بلفظة " فَأَكَلَا "، والسؤال المشروع هو: لماذا؟ إننا نزعم الفهم أنّ هذا بسبب عجز اللغة العربية في احتواء كلام الله، "فما حصل لآدم وزوجه هو أنهم ذاقا الشجرة ولم يكتفيا بذلك بل أصروا على المضي قدماً في فعلتهم، فبدءوا مترددين فكان الفعل على نحو "فذاقا" وانتهى بعملية "الأكل"، ولكن لما عجزت العربية عن إيجاد فعل واحد يجمع الحدثين "ذاقا" وأكلا" في مفردة واحدة، قدمت الصورة كما حصلت فعلاً: فهما لم يأكلا مباشرة ولكنهم لم يتوقفوا عند المذاق فقط، ويظهر سيناريو مشابه في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿... وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ ... ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: 160]
- ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: 60]

لاحظ - عزيزي القارئ- كيف تم التعبير عن الموقف ذاته بلفظتين مختلفتين " فَٱنۢبَجَسَتۡ "، و " فَٱنفَجَرَتۡ "، وحتى لا نختلف كثيراً، فالانفجار لا شك أقوى من الانبجاس، فعين الماء انبجست أولا ثم انفجرت بعد ذلك، ولكن ما هي المفردة العربية التي يمكن أن تعبر عن المعنيين معاً؟

**مثال (2)** ورود المعنى المراد مفصلاً بأكثر من مفردة واحدة، كما في حالة الطلب الإلهي من النار أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، قال تعالى:

- ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: 69]

فهل فعلا قال الله للنار يا نار كوني (برداً وسلاماً) مفردتين منفصلتين؟ لو كان الأمر كذلك لما تحمل إبراهيم برد النار قبل أن تكون سلاماً، فما يكون للنار أن تتخلف عن أمر ربها في أن تكون برداً قبل أن تكون سلاماً، إننا نظن أن الله قد استخدم مفردة واحدة تحمل المعنيين معاً، ولكن لما عجزت اللغة العربية أن تحوي في قاموسها مثل هذه المفردة فصّلت تلك المفردة قرآناً عربياً على نحو (بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا).

**مثال (3)** استخدام التشبيه في القرآن الكريم، كما في قصة تحول عصا موسى أو شق البحر بالعصا

ففي قصة عصا موسى مع السحرة جاء في كتاب الله أن عصا موسى تحولت تارةً حَيَّةٌ تَسۡعَىٰ وتارة ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ولكن كَأَنَّهَا جَآنٌّ تارة ثالثة:

- ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠﴾ [طه: 20]
- ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧﴾ [الأعراف: 107]
- ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ٣٢﴾ [الشعراء: 32]
- ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ [النمل: 10]
- ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١﴾ [القصص: 31]

**وسؤالنا هو لماذا تغيّر اللفظ في هذه الآيات**: حية وثعبان وكأنها جان؟

لا شك أن العصا لم تتحول إلى جان ولكنها كانت كَأَنَّهَا جَآنٌّ ، فالكاف للتشبيه، فعصا موسى إذاً لم تكن جان ولكن كَأَنَّهَا جَآنٌّ ، ولكن لا ننسى كذلك أنها لم تكن تشبه الجان على الكليّة (أي في كل شيء)، وإنما هي تشبه الجان في شيء واحد فقط وهو الاهتزاز، مصداقاً لقوله تعالى:

- فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ

ولكن- مما لا شك فيه- أن عصا موسى كانت حية وكانت ثعبان على الحقيقة والكليّة، ولنرقب الدقة المتناهية في اللفظ القرآني:

- ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠﴾ [طه: 20]
- ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧﴾ [الأعراف: 107]

**فسؤالنا هو**: لماذا لم يقل الله عن عصا موسى أنها جان كما قال عنها أنها حية أو أنها ثعبان؟ للإجابة على التساؤل التالي: لماذا تحولت العصا مرة حية ومرة ثعبان، أنظر مقالتنا تحت عنوان: هل كان موسى ساحراً؟

إننا نظن أن ذلك بسبب عجز اللغة عن توفير مفردة خاصة باهتزاز الحية أو الثعبان، فجاء تشبيه اهتزاز تلك الحية بحركة اهتزاز الجان.

نحن نظن أن التشبيه في القرآن يحصل دائماً بسبب عجز لغوي لتقريب الصورة إلى الأذهان عندما لا توفر اللغة نفسها المفردة الحقيقية، فها هو موسى يضرب البحر بعصاه، فينفلق البحر نصفين فكان كل فرق كالطود العظيم:

- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: 63]

لا شك أنّ كل فرق لم يكن طودا ولكن شيئاً آخر، ما هو؟ لم لم يخبرنا الله ما هو؟ إننا نظن أن ليس في العربية مفردة خاصة بذلك الشيء الذي انفلق البحر إليه، فلما عجزت اللغة العربية عن توفير تلك المفردة، كان استخدام التشبيه أمراً مبررا، وأقرب مفردة له في العربية هي الطود فيحصل التشبيه باستخدام أدوات التشبيه

لاحظ عزيزي القارئ كيف تستخدم أداة التشبيه تارة ولا تستخدم تارة أخرى، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: 35]

ونطرح هنا الأسئلة لامعان التفكير في صيغتين اثنتين وهما

1. الله نور السموات الأرض
2. مثل نوره كمشكاة، و الزجاجة كأنها كوكب دري

**السؤال الأول**: لماذا جاءت الصيغة الأولى على نحو "الله نور السموات والأرض" دون وجود أداة تشبيه؟ هل هي إذاً مجاز؟ هل هي من باب المجاز أن الله نور السموات الأرض؟ لماذا يتقبل الفكر الإسلامي قراءة هذه الصيغة من باب الحقيقة أن الله هو فعلاً نور السموات الأرض؟ لماذا لا تقرأ على المجاز ما دام التركيب يحتمل المجاز كقولنا في مثالنا السابق فلان أسد؟ إننا نتحدى من يؤمن باستخدام المجازات أن يجد لنا تركيباً واحداً في كتاب الله مثل "الله نور السموات" لا يقرأ على الحقيقة. إننا نزعم أن مثل هذا التركيب يجب أن يقرأ على الحقيقة، لسبب بسيط هو لأنها كذلك، فالله هو نور السموات والأرض دون زيادة ولا نقصان،

ولكن كيف يعبر القرآن الكريم عن مثل هذه الفكرة إن كان المشبه والمشبه به غير متطابقين؟ الجواب موجود في مثل قوله تعالى:

- ﴿.. مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ...﴿٣٥﴾﴾ [النور: 35]

نعم، إن نور الله ليس مشكاة ولكن كمشكاة، والزجاجة ليست كوكب دري ولكن كأنها كوكب دري، فلو كانت الزجاجة فعلاً كوكبا دري لجاء قول الحق على نحو الزجاجة كوكب دري ولانتفت بذلك الحاجة

لوجود "كـ" و " كَأَنَّهَا". ولكن لماذا جاء قول الحق على نحو " كَأَنَّهَا"؟ لماذا لم يخبرنا الله ما هي الزجاجة فعلاً؟ ألا يعلم الله ما هي الزجاجة في الحقيقة؟ فلم إذاً يشبها بالكوكب وهي في الحقيقة ليست كوكباً؟ الجواب هو قصور اللغة نفسها، فلا يوجد في اللغة العربية المفردة التي تدل على المشكاة بنفس التطابق الذي يوجد في قوله تعالى الله نور السموات والأرض.

ونحن نعلم علم اليقين أن الله صادق فيما يقول، فكيف بالله إذاً يقول "الزجاجة كوكب دري" وهي في الحقيقة ليست كذلك؟ فلو حصل ذلك لكان من باب المبالغة كما في قولنا "فلان أسد" ولكان أيضاً من باب الافتراء والكذب، وحاشا لله أن يبالغ فيما يقول أو يفتري غير الحق.

وتتجلى الدقة القرآنية عندما نعت الله بعض الظالمين من بني إسرائيل بصفات الحيوانات، جاء قول الحق على نحو:

- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة: 5]

أو الذين اتبعوا هواهم:

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ [الأعراف: 176]

فهم في الحقيقة ليسوا حميراً وليسوا كلاباً، ولكنهم كمثل الحمار الذي يستفيد مما يحمل فوق ظهره، وكمثل الكلب الذي لا ينفك عن اللهاث سواء حملت على ظهره أم لم تحمل.

ولكن عندما مسخهم الله قردة وخنازير جاء قول الحق:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥﴾ [البقرة: 65]
- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾ [المائدة: 60]
- ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝١٦٦﴾ [الأعراف: 166]

والسؤال الذي لا يجانب الحقيقة في شيء هو: لماذا حصل التشبيه في حالة الحمار والكلب، ولم يحصل في حالة القردة والخنازير؟ نعم لم يكونوا أولئك حميراً ولا كلاباً ولكنهم كانوا قردة وخنازير، لا مجاز ولا تبديل لكلام الله.

إننا نصل إلى القول أن القرآن يخلو من الاستعارات، ولكنه مليء بالتشبيهات، فمادام كلام الله حقيقي صادق دون زيادة ولا نقصان فلا يحتمل المجاز، ولكن لما كانت اللغة تخلو أحياناً من المفردة الحقيقية يكون استخدام التشبيه وارد لتقريب الصورة إلى الأذهان بصدق دون زيادة ولا نقصان.

إننا نزعم أن المجاز يحمل معنى المبالغة والتحريف والزيادة والنقصان، فعلى سبيل المثال، لم نأخذ من قولنا "فلان أسد" المعنى الايجابي فقط ونترك ما يحتمل الكلام من المعاني الأخرى؟ فلو جاء مثل هذا التركيب (فلان أسد) في كتاب الله فما الذي يمنع أن نأخذ التشبيه على الكلية لتشمل الصفات الايجابية والسلبية؟ فما الذي يضمن أن نختار فقط المعاني الايجابية ونضمن في الوقت ذاته أن جزء من المعاني غير مشمولة؟ إن ذلك يفتح المجال أمام كل الخيارات، وهذا ما يفعله أصحاب المجاز، إنهم يأخذوا ما يريدوا أخذه ويتركوا ما يرغبوا تركه، فتصبح الأمور تبعاً للأهواء، وهذا أبعد ما يكون عن كلام الله، فكلام الله لا يؤخذ تبعاً للهوى بل هو كلام يحمل كل المعاني الذي تحتمله مفرداته وتراكيبه، وهذا لا يمكن أن يتم إن كان الأمر يُحمل على المجاز ولكنه ممكن مادام الكلام حقيقي

## من أين جاءت قصة المجازات؟ من الذي أدخل المجاز على اللغة؟

إننا نزعم الفهم أن أول من أدخل المجاز على اللغة هو الشيطان، وقد كان تقبل الإنسان للمجاز هو سبب البلاء والشقاء الذي أوقع فيه نفسه، ولا شك أن الجمال الذي يراه البعض في المجازات هو من باب تزيين الشيطان للأمر، ولنبدأ القصة من أولها.

لقد خلق الله آدم وعلمه الأسماء كلها، وعاش آدم وزوجه في الجنة حياة رغدا، ونحن نظن أن حياة آدم وزوجه في الجنة كانت رغدا لأن آدم كان يعلم المسميات الحقيقية للأشياء فكانت الأشياء ترتبط بمسمياتها الحقيقية، وقد علمه الله حقيقة وعاقبة إن هو خالف الأمر الإلهي، فقال

- ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

نعم، تلك هي الحقيقة التي لا مجاز فيها، إن النتيجة الحتمية للأكل من الشجرة تعني أن تكونا من الظالمين، ولا يمكن وجود تفسير الكلام على غير ذلك، ولا يجوز تجويزه ما لا يجوز، ولكن ما الذي فعله الشيطان؟ إنه تحريف الحقيقة وتزين الأمر لآدم وزوجه ليحملا كلام الله على غير حقيقته، ولننظر كيف أبدع الشيطان في ذلك:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ١٢٠﴾ [طه: 120]

أليست حجج الشيطان تلك مسوغة للعقل البشر؟ ألا يحتمل المنع عن الأكل من الشجرة ذلك المعنى؟ لم ينهاهم الله عن الأكل من الشجرة دون ثمار الجنة كلها؟ ألا يثير ذلك حفيظة الإنسان وحبه في المعرفة والمغامرة؟ ألا يوجد تفسير آخر للأمر؟

لقد فسر الشيطان لآدم وزوجه الأمر على غير حقيقته، فأوقعهم في شركه، وهذا بالضبط ما يحصل في عالم المجازات، إنه الكذب، ككذب الشيطان عندما أوقع آدم وزوجه في شركه، إنها تفسير الأمور حسب الهوى. لا شك أن في الحقيقة الصدق وفي المجاز الكذب، وكلام الله هو الصدق بعينه وهو أبعد شيء عن الكذب.

## المجاز ضعف في اللغة

إننا نؤمن أن المجاز من أهم الإشارات الدالة على ضعف اللغة، وليس عنصر قوة فيها كما ظن الكثيرون وزعموا، فكلما كثر استخدام المجاز كلما ضعفت اللغة وتبدلت وانهارت، ولو سألنا أنفسنا سؤالاً بسيط كهذا: لماذا تتغير اللغة وتتبدل؟ ولماذا ظهرت اللغات المختلفة؟ لماذا لا يوجد في الكون لغة واحدة لا تتغير على مر الزمان يتحدث بها البشر كلهم؟ الجواب إنها المجازات، فاللغة تتبع هوى الإنسان وتفسيراته، لذا لما كانت أهواء الناس متباينة اختلفت ألسنتهم، وكانت النتيجة قوله تعالى:

- ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ [الأعراف: 71]

وللنظر كيف يتحدث يوسف عليه السلام، العارف بالتأويل الحقيقي للأسماء:

- ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف: 40]

وللنظر كيف ينعت الله من لا يصف الأشياء بمسمياتها الحقيقية:

- ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 23]

فالذين لا يقفون عند المسميات الحقيقية للأشياء إنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فلو كانت اللغة (كل اللغة) تقرأ على الحقيقة لما كان هناك اختلاف في التفسيرات والفهم، ولما كان هناك إتباعا للظن والهوى، ولأصبح كلام الناس لا كذب فيه، ولأصبحت الحياة رغداً كما كانت حياة ادم الأولى في الجنة.

## كيف نقرأ كتاب الله؟

يجب أن نقرأ كلام الله على الحقيقة كما يجب ولا ندخل فيه المجاز حتى لا يكون تبعاً للهوى، ونذهب بعيداً كما فعل أهل الكتاب من قبلنا، وهذا يعني بالضرورة فهم مفردات القران وتراكيبه اللغوية كما

أرادها الله في كتابه وليس كما نريدها ونتصورها نحن البشر، لأننا نصيب أحياناً ونخطئ كثيراً، وما علينا إلا أن نترك فهمنا إن هو تعارض مع ما في كتاب الله، فنؤيد الفهم على الوجه الذي يقره كتاب الله فقط، ولنقدم المثال البسيط التالي على التباين في فهم الكلام.

**مثال**: نستخدم نحن أهل الشام مفردة "حليب" ومفردة "لبن" لتدل الأولى على المادة الأصلية التي نحلبها من ضرع الأنعام (أو حتى من ثدي المرأة) بينما نستخدم الأخرى "لبن" لتدل على ما يتم معالجته من تلك المادة بعد الحصول عليه، ولكن إخواننا في أرض الكنانة (مصر التاريخية) يستخدموا المفردتين بالمعنى المعكوس، فما نسميه نحن حليب في الأرض التي باركنا حولها وأرض الحشد والرباط يسميه إخواننا في ارض الكنانة لبن؟ فأين يا ترى تكمن الحقيقة؟ فما هو اللبن وما هو الحليب؟ لا شك أن أحدنا مخطئ، فأيهما أصوب في استخدامه للمفردة، أهل الشام أم أهل النيل؟

**الجواب**: أهل النيل بكل تأكيد، فما نسميه نحن حليب هو في الأساس لبن كما يسميه أهل النيل، والدليل على ذلك ما جاء في كتاب الله:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: 66]

فما يخرج من بطون الأنعام هو –حسب مفردات القران الكريم- لبن وليس حليب، لذا فالقول الصحيح عند العربي هو "حلبت الناقة لبناً" ولا نقول "حلبت الناقة حليباً". لذا فقد حصل التحريف للحقيقة عند أهل الشام، فاتبعوا أهواءهم وغيروا الاسم على غير مسماه الحقيقي، وهذا من البلاء الذي يصيب الأمم، وقد ذم الله مثل هذا الصنيع عندما قال:

- ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: 75]
- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: 59]

## يلجأ الناس إلى المجاز عندما يقصر فهمهم للأمر

وبهذا القول يجب الوقوف على المعاني الحقيقية للآيات القرآنية، ولا يجوز أن تحمل على غير ذلك، وقد كان إدخال المجاز من باب العجز عن إدراك تلك المعاني الحقيقية، فكلما عجز البشر عن إدراك المعنى المراد لقصور في فهمهم لجاءوا إلى المجازات والتأويلات المبنية على الهوى، وكلما استطاعوا تجلية المعنى الحقيقي كلما ابتعدوا عن المجاز أو حتى الحاجة إلى المجاز.

فعندما قرءوا قصة ذي القرنين مثلاً في كتاب الله وعجزوا عن تبيين المعاني على حقيقتها حلقوا وطاروا في سماء الاستعارات والمجازات، فكيف يصل ذي القرنين إلى مغرب الشمس أو مطلعها؟ وكيف بالشمس تغرب في عين حمئة؟ وأين هم يأجوج ومأجوج؟ ونتيجة لذلك ظهرت عشرات الأفهام التي غالباً ما ناقضت بعضها بعضا، والقارئ مدعو إلى البحث في الأدب الديني المتوافر حول الموضوع

إننا نظن أن فهم الخطاب القرآني على حقيقته يقفل الباب أمام المجازات والاستعارات، فتتجلى الحقائق كما هي بلا تباين نابع عن أهواء الناس الذي لا يقيده ضابط واضح، وهنا قد يرد البعض بالقول: من هذا رشيد الجراح الذي سيحل إشكالية عجز عنها أساطين الأمة لأكثر من خمسة عشر قرنا؟

فنرد على ذلك بالقول بأننا لن نحل الإشكالية برمتها ولكننا سنقدم الدليل على إمكانية حلها شريطة قراءة كلام الله على حقيقته وفهم مفرداته وتراكيبه كما يبينها الله في كتابه وليس حسب أهواءنا وميولنا البشرية التي قلما تصيب وغالباً ما تخطئ. ولو أمعنا التفكير في مفردات النص القرآني لوجدنا الكثير الذي ربما غفلنا عنه لوقت طويل.

أولاً، كيف يثبت النص القرآني أن ذي القرنين قد بلغ مغرب الشمس، ونحن نعرف يقيناً أن الشمس لا تغيب في مكان واحد؟ فمغيب الشمس يختلف باختلاف المكان، فهل مغيب الشمس بالنسبة لأهل المشرق هو نفس المغيب لأهل المغرب، والمنطق نفسه ينطبق على مطلع الشمس، فلا شك أن للشمس مطلع يختلف باختلاف المكان الذي يتواجد فيه الإنسان، وهنا جاء دور المفسرين في إدخال الاستعارة والمجاز في التفسير، ولكن تبقى الحقيقة صارخة: إذا كان المغرب أو المشرق يختلف باختلاف المكان، فأي مشرق وأي مغرب بلغه ذو القرنين؟ فلو ظن أهل الشرق الأوسط مثلاً أنه مغربهم أو مطلعهم، لنبرى أهل الصين أو أهل أوروبا ليقولوا أن القرآن لا يخصنا، وإن صح هذا القول فلم يثبت القرآن أن للشمس مغرب ومطلع واحد في هذه الآية في حين أنه يثبت في مكان آخر أن هناك مشارق ومغارب؟

- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ [الصافات: 5]
- ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج: 40]

لا بل ويثبت القرآن الكريم أن للمكان الواحد عدة مشارق (باختلاف أوقات السنة)، فلا شك أن الشمس تشرق من مكان في فصل الصيف يختلف عن مشرقها في الربيع أو الخريف أو الشتاء، لا بل فإن الشمس تشرق في كل يوم في مشرق يختلف عن اليوم الذي يليه أو الذي سبقه كما يراه أهل المكان الواحد، قال تعالى:

- ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: 137]

إن الجواب يكمن في فهم الآيات على حقيقتها، نعم للشمس مشارق ومغارب ولكن ذي القرنين بلغ مشرق الشمس وبلغ مغربها، ولكن كيف؟ إن الجواب يكمن في فهم الآيات القرآنية التي تتحدث عن قصة ذي القرنين نفسها، والتي أظن أن الفكر الديني السائد أخفق في فهمها فهماً حقيقاً، وأخص هنا على وجه التحديد عبارة "أتبع سببا" في قوله تعالى:

- ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ [الكهف: 85]

- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ [الكهف: 89]
- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ [الكهف: 92]

لقد وردت هذه العبارة ثلاث مرات في قصة ذي القرنين، ومما لا شك فيه أنها كانت ترد في بداية انتقاله من مكان إلى آخر، فجاءت في المرة الأولى وكانت النتيجة بلوغه مغرب الشمس، ووردت مرة أخرى فكانت النتيجة وصوله مطلع الشمس، ثم وردت مرة ثالثة فكانت النتيجة أن بلغ بين السدين (والقارىء مدعو للتفكير في التباين بين الألفاظ في كل حاله وسنتعرض لها جميعاً عندما نفرد فصلاً كاملاً لقصة يأجوج ومأجوج)

أما ما يهمنا هنا هو إثبات إمكانية فهم النص على حقيقته، فلقد وردت تلك العبارة لتدل على حركة ذي القرنين من مكان إلى آخر، ولب القول هو كلما كان ذو القرنين بحاجة إلى الانتقال إلى مكان آخر كان عليه أن يتبع سبباً، أليس كذلك؟ فما معنى أن يتبع ذو القرنين سببا؟

لقد وردت هذه المفردة في مواطن أخرى من كتاب الله لتدل على طريقة الحركة، فها هو فرعون يطلب من هامان أن يمكنه ليبلغ الأسباب:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: 36-37]

لا شك أن فرعون طلب من هامان أن يبني له صرحاً أفقيا ليصعد إلى الأعلى لظنه – كما يقول موسى- أن الإله في السموات، إي في الأعلى، فمن كان بحاجة إلى الحركة إلى السماء لا شك هو بحاجة إلى الأسباب، ومن هنا جاء قول الحق:

- ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ [ص: 10]

فالأسباب (ومفردها سبب) هي الطريق الفضائية بين السماء والأرض، وقد يرد البعض بالقول: هل وردت مفردة "سبب" بصيغة المفرد في القرآن الكريم لتدل على الطريق الفضائية؟ الجواب، نعم، ولنتدبر قوله تعالى:

- ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: 15]

لقد جلب انتباهي في واحدة من المناقشات الشفوية مع الدكتور عمر عكاشه أن فكرة الحبل بين السماء والأرض وبين الحبيب والمحبوب في الشعر الجاهلي لها أصل في هذا القول.

وبعد هذا، هل هناك قول أوضح من هذا، لذا فإن مراد القول هو أن الحركة بالأسباب (ومفردها سبب) هي حركة خارج نطاق الحركة الأرضية (بين السماء والأرض)، وبذلك فعندما كان ذو القرنين يتبع سببا كان يتنقل بالطرق الفضائية، لذا كانت حركته –كما يبينها القرآن الكريم- غاية في السرعة، فبلغ مغرب الشمس وبلغ مطلع الشمس وبلغ بين السدين وكأن ذلك يحصل بين ليلة وضحاها، ولو لم يكن يتبع سببا لما استطاع القيام بذلك بتلك السرعة والقوة، لذا عندما جاء طلب القوم منه على نحو:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف: 94]

جاء رده على نحو:

- ﴿... أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: 95]

فلماذا لم يجعل ذو القرنين بينهم سداً كما طلبوا؟ لقد جاء الجواب من ذي القرنين واضح:

- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ... ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: 95]

نعم لقد مكن الله ذي القرنين بشيء خير من طلبهم ذلك، فجاءت تكملة الآية الكريمة على نحو:

- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: 95]

نعم، أن ما فعله ذو القرنين هو الردم، لكن ردم ماذا؟ ردم السبب، أي الطريق الفضائية التي يستطيع من خلالها أن تصل يأجوج ومأجوج إلى الأرض لتفسد فيها، لقد أغلق ذو القرنين بما مكّنه الله فيه الطريق التي بدونها لن تستطيع يأجوج ومأجوج الوصول إلى الأرض، ومن ذلك الوقت ويأجوج ومأجوج يموج بعضهم ببعض لعدم قدرتهم إلى الوصول إلى الأرض (وسنتعرض لتفاصيل القصة في باب يأجوج ومأجوج)

ما يهمنا هنا هو إنّ الفهم أن ذي القرنين كان يتبع سببا (أي يسلك طريقاً فضائية) يمكننا من الفهم الحقيقي للآيات الكريمات وتنتفي بذلك الحاجة إلى دخول عالم المجازات، فالحركة بطريقة " أَتْبَعَ سَبَبًا" يخرجه من نطاق الكرة الأرضية وبالتالي يخرجه من نطاق اختلاف مغارب الشمس ومطالعها، وبالتالي فهو سيصل إلى مغرب واحد للشمس ومطلع واحد للشمس كما ووردت بصريح اللفظ القرآني.

إننا ندعو إلى البحث عن المعاني الحقيقية للمفردات والتراكيب اللغوية كما ترد في كتاب الله بدلاً من التحليق في سماء المجازات والاستعارات حسب الهوى والميل، لذا يجب أن نقرأ المفرد على أنه مفرد، والجمع على انه جمع، والمذكر على أنه مذكر، والمؤنث على أنه مؤنث، ولا يجوز الخلط ، ونحن نفهم أن في حمل الأشياء على بعضها البعض مضيعة للمعاني الحقيقية ليحل محلها أفهام مغلوطة لا تسمن ولا تغني من جوع، وسنقدم الأمثلة على صحة هذا الزعم

## المفرد مفرد والجمع جمع

إن تعدية الاسم المفرد ليشمل الجمع أو العكس يحدث الفوضى في معاني كتاب الله، لا بل ويحصل التناقض الذي لا يمكن لأي شخص أن يزعم وجوده في كتاب الله، ولنقدم بعض الأمثلة التي تدعم زعمنا هذا.

### الدليل الأول: صيغة المفرد والجمع في الخطاب الرباني

يأتي الخطاب الرباني في كتابه الكريم عن نفسه مرة بصيغة المفرد "أنا" ومشتقاتها، ومرة أخرى بصيغة الجمع "نحن" ومشتقاتها، وسؤالنا الذي نطرحه هنا هو: لماذا؟ أي لماذا يتحدث الله سبحانه جل وعلا عن نفسه بصيغة المفرد تارة وبصيغة الجمع تارة أخرى؟

لقد حمل جل الفكر الإسلامي السائد الخطاب باستخدام صيغة الجمع عند الحديث عن المفرد أنه من باب التعظيم والتقدير، وكأنهم بهذا الفهم يقولون أنه عندما يقول الله عن نفسه "نحن" فيكون ذلك تعظيماً لشأنه، ولكننا نرد عليهم بنفس منطقهم بالسؤال التالي: هل تنتفي عظمة الله عندما يتحدث عن نفسه بصيغة المفرد؟ فهل يعظم الله نفسه تارة ولا يعظمها تارة أخرى؟

إن البلاء في هذا الفهم هو أنهم أخذوا صنيع البشر وطبقوه على خالق البشر، فلقد درج البشر (وخاصة العرب وإن كان يشاركهم في ذلك أمم كثيرة) على أن العظيم منهم كالملك مثلاً يتحدث عن نفسه ويخاطبه الناس بصيغة الجمع، وكان ظنهم أن هذا النوع من الخطاب يمكن أن يطبق على الإله. فنرد عليهم بالقول أن الله عظيم بغض النظر عن صيغة الخطاب، لا بل فإن عظمة الإله تتجلى أكثر بمخاطبته بصيغة المفرد على عكس ما تظنون، وهذا ما سنحاول الدفاع عنه وتبيانه في هذه العجالة.

لعلنا بحاجة إلى التمييز أولا وقبل كل شيء بين أمرين اثنين وهما:

⇐ خطاب الإله عن نفسه
⇐ خطاب البشر عن الإله

والحقيقة الصارخة في القرآن الكريم هي أنه عندما يتحدث الإله عن نفسه فإنه يستخدم صيغتي المفرد والجمع كما في المثالين التاليين:

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طه: 12]
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

أما عندما يخاطب الإنسان ربه فلا ترد في كتاب الله إلاّ بصيغة المفرد:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

وهنا يجب أن لا نخلط هذه الصيغة مع صيغة أخرى لا دخل لها بالخطاب كما في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: 127]

فصيغة الجمع هنا تعود على المتكلم (وهم إبراهيم وإسماعيل في هذه الحالة) وليس على المخاطب وهو رب إبراهيم وإسماعيل.

فلو استعرضنا جميع الآيات القرآنية لوجدنا أن الناس جميعاً يخاطبون الإله بصيغة المفرد، لا بل إنه من باب الشرك بالله أن ترجع الكلام عن الله بصيغة الجمع لأن ذلك يحمل في ثناياه معنى الإشراك، فمن باب أولى مخاطبة الإله بصيغة المفرد، فالإله ليس ملكاً أرضياً ليعظم بصيغة المخاطب الجمع، فهل يتقبل الفكر الإسلامي فكرة مخاطبة الإله على النحو التالي:

⇐ ربنا وسعتم كل شيء علما
⇐ أو ربنا إنكم
⇐ أو انتم وليي

بدلاً من صيغة المفرد كما في قوله تعالى:

- ﴿... رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: 7]
- ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: 9]
- ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: 101]

كما نفعل مع ملوك وعظماء الأرض؟! الجواب: قطعاً لا يمكن أن نقبل ذلك.

**ولكن السؤال المشروع الذي نطرحه هنا هو**: إذا كان الله لا يقبل منا أن نخاطبه بصيغة الجمع (مثل وسعتم بدل وسعت أو انتم بدل أنت أو إنكم بدل إنك) فلماذا يتحدث هو عن نفسه بصيغة المفرد تارة وبصيغة الجمع تارة أخرى كما في الآيات التالية والتي ذكرناها سابقاً ونعيدها مرة أخرى لتبين الفكرة؟

- ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: 12]
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: 9]

إن الجواب الذي نقدمه هنا يتمثل بالتوقف عن استخدام المجاز، وحمل الكلام على معناه الحقيقي فقط، فالإله يعي ما يقول، فعندما يستخدم صيغة المفرد لا شك يقصد غاية تختلف عن تلك التي يعنيها في استخدامه صيغة الجمع، والعكس صحيح، فالمفرد مفرد والجمع جمع، لا أكثر ولا أقل.

فلو أمعنا التفكير في الآيات التي يتحدث الله عن نفسه بصيغة الجمع لوجدناه تختلف اختلافاً جذرياً عن الآيات التي يتحدث الله عن نفسه بصيغة الجمع وسنقدم المثال التالي لتوضيح الفكرة:

فعندما خاطب الله نبيه موسى، جاء الخطاب في كل السياقات القرآنية التي تتحدث عن تلك الواقعة بصيغة المفرد، قال تعالي:

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: 12-14]
- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: 143-144]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النمل: 8-9]
-
- ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾ [النازعات: 15-16]

فلماذا جاء الخطاب من الله عن نفسه بصيغة المفرد؟ إننا إذا حملنا الكلام على معناه الحقيقي دون زيادة ولا نقصان يتبين لنا أن الجواب يتمثل بأن الله نفسه هو من خاطب موسى دونما واسطة، فلم يشترك مع الإله في ذلك الحدث أحد آخر.

ولكن - في المقابل- لندقق النظر بتلك الحادثة التي حصلت مع نبي الله إبراهيم عليه السلام:

- ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات: 103]
- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤﴾ [الصافات: 104]
- ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ [الصافات: 105]
- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات: 106]
- ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات: 107]

دقق – عزيزي القارئ- بضمائر الخطاب التي يستخدمها الله في هذه الحادثة للحديث عن نفسه، أليست هي ضمائر الجمع (وَنَٰدَيۡنَٰهُ ، نَجۡزِي ، وَفَدَيۡنَٰهُ)؟ لماذا؟

**الجواب**: هل الله نفسه هو من نادى إبراهيم كما نادى موسى؟ هل الله نفسه من جازى إبراهيم لصنيعه ذلك؟ هل الله نفسه من قدم الفداء لإبراهيم؟ الجواب كلا، وألف كلا، لقد أرسل الله لإبراهيم من يناديه، وأرسله بذلك الجزاء ومعه ذلك الفداء.

إننا نرغب القول أن الله إذا تحدث عن فعل فعله بنفسه دونما تدخل أو وساطة من ملائكته فلا يأتي الخطاب إلا بصيغة المفرد، أما إذا كان الفعل قد نفذه الله بأمر منه ولكن بواسطة ملائكته فيأتي الخطاب بصيغة الجمع، وذلك لأن الله صادق فيما يقول ويفعل، فلا يمكن أن يفعل الله شيء بواسطة خلقه ثم ينسبه لنفسه بالكلية، ولا يمكن أن يعمل شيء بمفرده ثم يشرك به الآخرين.

وبهذا الفهم دعنا ندقق النظر في تباين ضمائر المفرد والجمع في الآيات القرآنية التالية، ذلك التباين الذي قلما التفت له الكثيرون، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: 10]
- ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: 11]
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾ [الشعراء: 12]
- ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: 13]
- ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: 14]
- ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: 15]
- ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: 16]

ولندقق النظر في التباين الذي حصل في استخدام الضمائر في الآية 15 في قوله تعالىٰ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ، فلماذا بعد استخدام ضمير المفرد للحديث جاء الحديث الرباني عن نفسه هنا بصيغة الجمع؟

**الجواب**: لم يكن الله وحده من يستمع إلى خطاب موسى وهارون مع فرعون.

أو تباين الضمائر في قوله تعالى:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143]
- ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 144-145]

ودقق –عزيزي القارئ- كيف اختلف الضمير في قوله "وَكَتَبْنَا " إلى صيغة الجمع بعد أن كان الخطاب على صيغة المفرد في قوله ٱصْطَفَيْتُكَ و ءَاتَيْتُكَ ، لماذا؟

**الجواب**: نعم الله هو نفسه من اصطفى موسى وهو نفسه من آتاه، ولكنه ليس هو نفسه من كتب له في الألواح بدليل قوله "وكتبنا"، فلو كان الله هو نفسه من كتب لموسى في الألواح لجاء الخطاب على صيغة "وكتبت"، ولكن الله قد أوكل المهمة بأمر منه لملائكته، فقاموا هم بكتابة ما في الألواح التي أخذها موسى وقفل عائداً إلى قومه.

### الدليل الثاني: الفرق في استخدام كلمة الناس وكلمة الإنسان في النص القرآني

يعلم الجميع أن مفردة الإنسان تدل على المفرد أما مفردة الناس فتدل على الجمع، أليس كذلك؟ ففي ضوء هذه الحقيقة دعنا نقرأ الآيات التالية:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 12]
- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: 7-8]
- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: 14]

إن الحقيقة الصارخة في كتاب الله هي أنه عندما يأتي الحديث عن الخلق من طين ترد مفردة الإنسان فقط، أما عندما يأتي الحديث عن الخلق عن نسل الإنسان (الناس جميعاً) فترد مفردة الإنسان والناس، لماذا؟

نعم، إن القول أن الإنسان خلق من طين هي عودة على إنسان واحد وهو أدم، أما سلالة آدم من بعدة (الناس جميعاً) فهل خلقوا من طين؟ كلا وألف كلا، وإنما من سلالة من ماء مهين.

فلو كانت مفردة الإنسان تتعدى لتشمل الناس جميعاً، لكان المعنى يحتمل أن الناس جميعاً قد خلقوا من طين، أليس كذلك؟ وإن كان هذا الفهم السائد صحيحاً (على عكس ما نظن ونزعم)، فكيف يمكن التوفيق بين هذا الكلام والحقيقة الصارخة في الفكر الديني الإسلامي أن حواء قد خلقت من نفس آدم؟ فهل خلقت حواء (وجنس النساء) من طين أصلاً؟

وهل حواء (وجنس النساء كلهم) من الناس أصلاً؟ إن هذا السؤال ينقلنا إلى الموضوع التالي وهو فهم المؤنث على أنه مؤنث والمذكر على أنه مذكر وعدم حمل أحدهم مجازاً على الآخر.

## المذكر مذكر والمؤنث مؤنث

نحن نعرف أن مفردة الناس تدل على المذكر، ولكن تمت تعدية كلمة الناس لتشمل المذكر والمؤنث (أي الرجال والنساء) في كلامنا، فهل هذه التعدية صحيحة من منظور القرآن الكريم؟

أليست النساء من الناس؟ كلا، النساء حسب النص القرآني ليسوا من الناس، إننا نملك الدليل (كما نظن) من كتاب الله نفسه أنّ مفردة الناس لا تشمل الإناث، بل هي خاصة بالذكور (لا بل بـ فئة خاصة من الذكور). قال تعالى:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

تدبر –عزيزي القارئ – مفردات الآية الكريمة جيداً، فالله سبحانه يقول "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ"، أليس كذلك؟ فمن هم الناس الذين زين لهم حب الشهوات؟ هل هم الذكور والإناث معاً؟ أم هل هم الذكور فقط؟

إن تتمة الآية الكريمة تبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك أو التأويل أن المقصود هم الذكور فقط؟ فالله سبحانه يقول:

- زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ...

فكيف إذاً يستقيم المعنى أن تكون المرأة شهوة للمرأة؟ فإذا كانت المرأة من الناس، فهناك مجال من التأويل أن تكون المرأة شهوة للمرأة، (كأن يصبح معنى الآية الكريمة "زين للنساء حب الشهوات من النساء") وهو ما لا يمكن أن يتقبله الفكر الإسلامي، وللخروج من هذا المأزق، نقول أن مفردة الناس لا تشمل الإناث، وعندها لا تكون النساء شهوة للنساء، وإنما النساء شهوة للناس (إي الذكور)، ولكن ذلك لا يشمل-بلا شك- الذكور جميعاً، وإنما الذكور الذين أصبحت النساء شهوة لهم، وهم بالتأكيد من بلغ الحلم، لذا نجد الدقة المتناهية في الآية الكريمة لتبين أن الشهوات للناس تشمل النساء وكذلك البنين، فالأطفال ليسوا كذلك من الناس، فالذكر يصبح من الناس متى بلغ الحلم، لذا نفهم أنّ خطاب التكليف من الله جاء موجهاً دائماً للناس، ونحن نعلم أن الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم غير مكلفين وغير معنيين بالخطاب الرباني عندما يأتي موجهاً على صيغة "يا أيها الناس":

إننا نستنتج أن تصنيف الخلق إلى من هم من فئة الناس (الذكور) ومن هم ليسوا من فئة الناس (الإناث والصغار الذين لم يبلغوا الحلم) هو تصنيف وظيفي وليس خلقي (أي على أساس الجنس). ولهذا الإدعاء تبعاته الجمة التي يمكن أن تحل كثيراً من إشكالات الفكر الإسلامي التي أوقعنا بها القدامى والمحدثون نتيجة فهمه الخاطئ لمثل هذه المفردات التي ظنوا أنها بسيطة لدرجة أنها لم تشغل تفكيرهم كما يجب، ربما لظنهم أنهم قد أحاطوا بها علماً، ولكننا نؤكد أن هناك الكثير الذي يجب عمله لفهم مثل هذه المفردات "البسيطة" قبل القفز إلى إصدار الأحكام الشرعية العقائدية منها والفقهية (وللتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان جدلية الذكر والأنثى)

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: 21]

## المجاز سبب في الفرقة

لقد كان المجاز -كما نظن- سبباً رئيسياً في تفرق الأمة (كل الأمة) وانقسامها إلى فرق وملل متناحرة متصارعة يكفّر بعضها بعضا، وتظن كل فرقة منها أنها هي على الحق المبين، وأما غيرها فليس سوى جزء من حزب الشيطان الذي يجب محاربته في كل وقت وحين، ولا يعتقد أحد أني أتهم بكلامي هذا فرقة بعينها، بل هذا هو ديدن الفرق جميعاً دون استثناء، ولعلي أقدم في عجالة ما حصل من أمر الفرقتين الأكبر في الفكر الإسلامي وهما: أهل السنة والجماعة من جهة وأهل التشيع من جهة أخرى.

لقد كان الانقسام التاريخي بين المسلمين إلى سنة وشيعة مغذىً بالمعاني والتصورات المجازية للنصوص القرآنية والأحاديث الشريفة، ولنقدم المثال التالي لتبسيط الفكرة:

لقد كانت حجة أهل السنة والجماعة في إنكار الإمامة (أحقيّة أهل البيت في الإمامة) تتمثل بعدم وجود دليل صريح في النص القرآني يثبت إلزامية الإيمان بها، فما كان من علماء الشيعة إلا أن أخذوا مجدهم في قراءة بعض النصوص القرآنية على المجاز ظانين أنها تثبت صدق دعواهم بالإيمان بالإمامة كالإيمان بالوحدانية والرسالة والملائكة والكتب واليوم الآخر، وهنا أخص الشيعة الاثنى عشرية، فلا تحتل الإمامة نفس المرتبة عند جميع الفرق الشيعية

ولكن لم يثن ذلك أهل السنة عن رد دعواهم بالدليل الدامغ لديهم الذي مفاده أن الإيمان بمثل هذا الأمر لا يجوز فيه تأويل مجازي، بل لا بد من وجود دليل صريح من كتاب الله لا لبس فيه حتى يكون حجة لا جدال ولا تأويل فيها، فهم يطالبون بدليل كذاك الذي يرد في قوله تعالى واصفاً أركان الإيمان:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء: 136]

فهم إذاً يطالبون بنص قرآني يذكر الإمامة بصريح اللفظ القرآني حتى يكون حجة توجب التصديق وعدم فتح الباب على مصراعيه للتأويلات المجازية التي ربما لا تصل بأي حال من الأحوال إلى درجة اليقين، فمراد القول إذاً هو أن أهل السنة والجماعة يرفضون التأويل المجازي في مثل هذا المقام.

نقول الحق ما قال أهل السنة والجماعة، فأنا كذلك أؤمن إيماناً مطلقاً بعدم جواز التأويل المجازي للنص القرآني، ولكن المفارقة العجيبة عند أهل السنة والجماعة أنهم ما أن يفرغوا هم من إقامة تلك الحجة على مناظريهم حتى يكونوا هم أول من ينتهك ذاك المبدأ، ويقوموا هم بالتأويل المجازي الذي كانوا يعتقدوا أنه نقيصة في حجة خصومهم، ولنقدم المثال تلو المثال على هذا الزعم.

لقد كان الحديث عن عذاب القبر مثلاً من الأمور التي أعيت الفكر الديني الإسلامي، وقد كان إيمان الغالبية العظمى من أهل السنة والجماعة شبه مطلق بوجود عذاب في القبر، ولكن عندما تبادرهم بالسؤال عن الدليل من كتاب الله على وجود عذاب في القبر، تبدأ رحلتهم في قصة تأويل النصوص القرآنية، فلقد

لوى الكثيرون منهم أعناق النصوص ليثبتوا حجتهم، ولكن ما إن تبادرهم بالمنطق نفسه قائلاً أنك تريد نصاً يذكر بصريح اللفظ وجود عذاب القبر في كتاب الله كالدليل الذي يطالبون هم فيه في حالة الإمامة، ما يكون من حالهم إلا أن يؤكدوا ضرورة المجاز في فهم النص القرآني، ومراد قولهم أن مثل الآيات التالية هي آيات تثبت وجود عذاب القبر:

- ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]
- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠﴾ [الأنفال: 50]

ولكن السؤال الذي نود طرحه عليهم هو على النحو التالي: لنقر معكم أن هذه آيات تتحدث عن عذاب ولكن أين القبر فيها؟ لم لم يذكر القرآن الكريم بصريح اللفظ أن ذلك يحدث في القبر؟ فما يكون ردهم إلا القول أن ذلك مفهوم ضمنياً، ولا ضير في تأويلها على هذه الشاكلة؟

ولكن عندما تبادرهم بالقول أن ذلك لا يعدو أكثر من تأويل مجازي للنص القرآني، ما يكون منهم إلا أن يغيروا إستراتيجيتهم في أقامة الحجة بالقول: إذا لم تقتنع أن هذه الآيات القرآنية (آية عذاب آل فرعون مثلاً انظر مقالتنا تحت عنوان: جدلية عذاب القبر) هي آية تثبت عذاب القبر حسب تأويلهم للنص فإن هناك عشرات بل مئات الأحاديث التي تصدّق دعواهم، وكم نقلوا من أحاديث تبين أن الناس يعذبوا في قبورهم، ولعل الحوار الذي نقل عما جرى بين النبي (صلى الله عليه وعلى آل بيته وصحابته أجمعين أفضل الصلاة وأتم التسليم) وعمر بن الخطاب بعد النصر في بدر، يصور لنا النبي يتحدث مع القتلى من الكفار، ولكن عندما تسأل من ينقل ومن يؤمن بمثل تلك الأحاديث عن آيات في كتاب الله مثل:

- ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠﴾ [النمل: 80]
- ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٥٢﴾ [الروم: 52]
- ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢﴾ [فاطر: 22]

ما يكون منهم إلا أن ينهالوا عليك بعشرات التفسيرات المجازية لمثل هذه النصوص القرآنية.

وهذا بالضبط ما يفعله علماء الشيعة في إثبات دعواهم بوجوب الإيمان بالإمامة، فهم يقدموا لمن لا يصدق تأويلاتهم المجازية للنصوص القرآنية الدليل على وجوب الإيمان بالإمامة في الأحاديث الشريفة الموجودة في أرشيفهم الذي لا يمكن أن ينضب عن أهل البيت عليهم وعلى صحابة رسول الله جميعاً أفضل الصلاة وأتم السلام.

ولكن عندما نزعم ثانية أن تلك الأحاديث تخلو من صريح اللفظ بوجوب الإيمان بالإمامة يعودوا إلى سيرتهم في رحلة المجاز التي ركبوها قروناً طويلة من الزمن، والتي أصبحت جزءاً من تفكيرهم وعقيدتهم، وعندما تبادرهم بالسؤال التالي: إذا كان لأهل البيت الحق في الإمامة كما يصوره فهمهم للآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، فكيف يرضى علي (وهو الأحق بها) بمبدأ الاحتكام؟ فهل يجوز لعلي أن يرضى بحكم الناس في شيء قضى الله ورسوله فيه الأمر؟ ألم يقرأ علي إذا قول الله تعالى:

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب: 36]

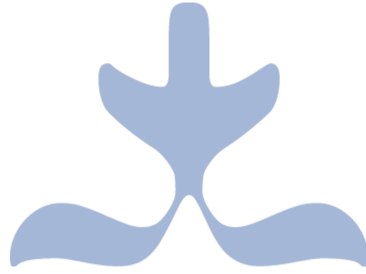
ألم يقضى الله ورسوله –حسب زعمهم- أمر الإمامة؟ أليست هي حق من حقوق أهل البيت حسب فهمهم المجازي لبعض النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة؟ وهنا ينهالوا عليك بعشرات التفسيرات والتأويلات المجازية لموقف علي في قبول تحكيم الناس بالخلاف الذي وقع مع بني أمية.

وهذا بالضبط ما يفعله أهل السنة والجماعة، فعندما تقدم لهم الحجة أن ليس بين مئات الأحاديث المرويّة عن عذاب القبر حديثاً واحداً صحيحاً، وأن جميعها أحاديث آحاد لا يمكن أن يبنى عليها عقيدة، فما يكون منهم إلا أن يتهموك بأنك قرآنيا منكراً للأحاديث خارجاً عن أهل السنة والجماعة، لكننا نرد عليهم بالقول البسيط: لا تتلاعبوا بعقولنا، عليكم الالتزام بمنهجيتكم، فلا يجوز أن تُحِلوا لأنفسكم ما تحرموه على غيركم، لقد كان الأولى بالجميع أن يبين منهجيته، وأن لا يكون هو أول من ينتهكها، فكم يا ترى قرأ السلفيون على مسمعنا "أن كل بدعة ضلالة"، ولكن هل توقف أحد (حتى وإن كان على درجة من الغباء مثلي) ليسأل مثلاً: هل اصطف أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام خلفه في أي رمضان في صلاة التراويح في المدينة المنورة أو في مكة المكرمة وختم لهم القرآن في اليوم الثامن والعشرين أو التاسع والعشرين؟ أم أن هذه من باب بدعتهم الحسنة؟ ربما لأن بدعة غيرهم كلها شر أما بدعتهم هم ففيها وجهة نظر.

أقسم بالله الواحد الأحد أني لا أقول هذا الكلام لكي أسيء لأحد أو لأنتصر لأحد، ولكن الهدف الذي لا أخلط فيه شيئاً آخر هو أن يكون المسلم على بينة من أمره، وأن لا يُرمى في سيل من المتناقضات التي تترك الحليم حيران. فليس الصراخ ولا ارتفاع الصوت هو ما يحق الحق، وإنما يقع الحق بالحجة والبرهان وتقبل الأمر الصحيح سواء كان لجانبك أو أنه جانبك في أي وقت وحين.

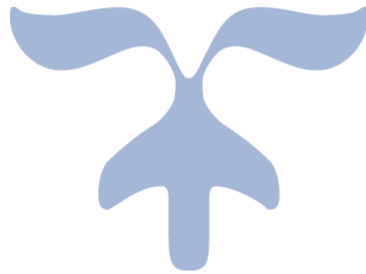
فلو أغلق أهل السنة والجماعة مثلاً باب التأويل من أساسه وحرموه على أنفسهم لكانت حجتهم على غيرهم دامغة، ولكن لما جوزوه لأنفسهم، لم (ولن) يستطيعوا أن يغلقوا بابه الذي فتحه غيرهم على مصراعيه وأصبح من المتعذر صد ولو جزء بسيط من الخرافات التي تدخل منه.

وللحديث بقية



# كتاب الجدليات

## هل للغة العربية قدسية خاصة؟



# هل للغة العربية قدسية خاصة؟

## جدلية الكتاب والقرآن (ملخص)

**السؤال**: لماذا جاءت "معجزة" سيدنا محمداً الخالدة معجزة لغوية (كلامية)؟

**جواب**: ربما يصل القارئ لهذه الصفحات إلى إجابة أفضل من تلك التي تداولها الفكر الإسلامي منذ زمن طويل.

أما بعد،

لعلنا نسأل القارئ الكريم عن سبب أنْ تكون معجزة سيدنا محمد قرآناً "لغة". فلقد تداول الفكر الإسلامي منذ زمن طويل جواباً قد لا يرضى –على ما نظن- صاحبه. فكان التعليل عند أهل الدراية كما نقله أهل الرواية عنهم فحواه لأنّ قريشاً كانت بارعة في علم البلاغة والكلام، فهذا قول – في رأينا- فيه من السذاجة ما فيه، وأبسط ما يمكن أن ينقض دعواهم تلك سؤال بسيط مفاده: هل الله - سبحانه وتعالى- بحاجة أنْ يتحدى قريشاً ليثبت أنّه أكثر براعة منهم في الكلام؟ وبالمنطق نفسه نقول: هل كان الله بحاجة أنْ يتحدى قوم فرعون ليثبت أنّه أكثر براعة منهم "بالسحر"؟ وهل كان الله بحاجة أنْ يتحدى قوم عيسى ليثبت أنّه أكثر براعة منهم بالطب؟

**رأينا**: معاذ الله.

**الدليل**

**أولاً**، ربما يأتي الدليل على ما نقول من الحقيقة الثابتة وهي أنّ هذا القرآن الكريم ليس كتاباً خاصاً بقريش بل هو للناس كافّة:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]

فكيف إذاً يكون القرآن الكريم معجزاً حتى لغير أبناء اللغة العربية؟

رأينا: إنّ افتراض أنّ القرآن الكريم معجزة لغوية لأنّ قريشاً بليغة اللسان يعني أنّ القرآن لا يتعدى إعجازه قريشاً، فهو إذاً ليس معجزاً لي لأني لا أملك لسان قريش، وهو إذاً ليس معجزاً للإنجليز أو الألمان أو الروس وغيرهم ((وكل الفرنجة) لأنهم بكل بساطة لا يملكون لسان ولا فصاحة قريش.

ونحن على يقين أنّ التحدي بإعجاز هذا القرآن لم يكن خاصاً بقريش فقط بل جاء متحدياً بإعجازه للإنس والجن كآفة:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88]

**والتساؤل البسيط هو**: كيف يمكن أنْ يأتي التحدي بالإعجاز لغوياً لأمم لا تعرف اللغة العربية أصلاً؟ أي كيف يمكن لهذه الأمم أنْ تأتي بمثل هذا القرآن ما داموا لا يعرفون حتى الكلام باللسان العربي؟

إنّ مثل هذا التساؤل يدعونا للنظر مرة أخرى في كيفية إعجاز القرآن الكريم، أي كيف يتحدى الله كافة الأمم (إنسها وجنها) نظم سور مثل سوره ما داموا أصلا لا يعرفون حرفاً من حروف العربية؟ فهل تستطيع أنت كعربي أنْ تأتي بمثل أي كتاب (أو جزء من كتاب) كُتِب باللغة الصينية أو الفارسية أو الإنجليزية وأنت لا تعلم تلك اللغة؟ إنّ مثل هذا التحدي إذاً باطل ليس فقط بالنسبة للقرآن الذي مصدره إلهي وإنما لأي كتاب إنساني. إنّ التحدي اللغوي في القرآن الكريم ليس في كونه ميسراً باللسان العربي وإنّما بشيء أكبر من ذلك بكثير. فما هو؟

قبل الإجابة على هذا التساؤل الكبير جداً، لعل من المفيد في هذا السياق التعرض (برأينا) للغة العربية التي بها أُنزل هذا الكتاب، لنطرح التساؤل التالي: هل اللغة العربية لغة مقدسة لأنه بها نظم كتاب الله الخاتم (أي القرآن الكريم)؟ وهل غيرها من اللغات أقل منها قدسية إذن؟ وهل لو اقتضت مشيئة الله أنْ ينزل هذا الكتاب بلغة أخرى (غير العربية) ألا يكون عندها معجزاً؟ وبكلمات أدق، هل جاء الإعجاز من اللغة نفسها أم من منزل الكتاب؟

## تفنيد الفكر السائد

لقد ذهب المغرمون بالعربية إلى أبعد مما يجب، حتى درجوا على الربط الذي لا يكاد يفك عراه بين العربية كلغة والقرآن الكريم ككتاب إلهي؟ فتغنوا بها وطيروها وطاروا بها، وتغنى القوميون منهم بالقول:

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعضات

وتحدث عنها الخطباء على المنابر، واقتبسوا مثل هذه الأقوال في خطبهم وحماسهم للدين، ونسوا ما جاء في كتاب الله ذاته:

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: 109]
- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: 27]

فهل بعد هذا القول من الحق سبحانه يمكن للعربية (أو حتى لـ أي لغة) أنْ تسع كلام الله؟

**ثانياً**، وماذا ستكون ردة فعل أولئك المتطيرين بلغتهم لو جاء الإدعاء من غيرهم بأنّ الله قد أنزل كتبه وصحفه الأخرى (كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم) بلسان غير عربي؟! فهل كانت تلك الألسنة أكثر قداسة من العربية آنذاك؟ وهل تنتقل القداسة من لغة إلى أخرى بتغير الزمان والأمم؟ وماذا لو زاد أحدهم القول أنّ الله قد "خط بيده" لأمم أخرى بلسانهم كما حصل في حالة ألواح موسى؟

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 145]

فهل تكون تلك اللغة (ولنقل أنها كانت لغة موسى آنذاك) أكثر قدسية من لغة الأمم الأخرى؟

**ثالثاً**، ولننظر إلى الأمر من زاوية أخرى، أليست العربية التي أنزل بها القرآن الكريم هي نفسها العربية التي كان يتحدث بها أبو جهل وأبو لهب وأمية بن خلف؟ و أليست اللغة التي كتب الله بها لموسى الألواح هي نفسها التي كان يتخاطب بها موسى وأخيه هارون مع فرعون من قبل والسامري من بعده؟ فأين تكمن القدسية إذاً في لغة أبي جهل وأبي لهب وابن خلف؟ وأين كانت تكمن قدسية لغة خطاب فرعون والسامري؟ (أرجو أن لا تقتبسوا هذه الفقرة بمعزل عن النص الكامل الذي وردت من أجله)

**رابعاً**، وماذا لو قال ثالث أنّ الله تحدث معكم بالعربية فإلهكم إذاً عربي، وإلههم تحدث معهم بالعبرانية فهو إذاً عبراني، بينما لم يتكلم معنا إلهنا بلساننا أو حتى بلسان نفهمه، فنحن إذاً ليس لنا إله، فلا زلنا ننتظره، فإن كان أصلاً موجود فليرسل إلينا بلساننا.

ربما قد يثير مثل هذا الكلام حفيظة المتحمسين للغتهم، ولكن جل ما أود إثارته هو أنّ كتاب الله هذا (القرآن الكريم) لا يكمن إعجازه – في رأينا- بكونه عربي ولا يكمن إعجاز ما جاء في ألواح موسى كونها كتبت بالعبرانية، ولم يكمن إعجاز كتاب أنزله الله كونه كتب بالعربية أو العبرية أو الآرامية أو الفارسية أو حتى الانجليزية والألمانية والصينية والروسية وغيرها. تنزه وتجلى الإله أنْ يتخذ جنسيته من هذه اللغات، قال تعالى

- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: 97]
- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: 58]
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: 4]

ألا يعني ذلك أنّ محمداً رسول كباقي الرسل أرسل بلسان قومه ليبين لهم:

- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: 144]

فأين إذاً يكمن الإعجاز في لغة القرآن أو حتى الإنجيل والتوراة والألواح وصحف إبراهيم وزبور داود؟

**افتراء من عند أنفسنا**: إننا نزعم الظن بأنّ القرآن الكريم جاء بلسان محمد كما جاء الإنجيل بلسان عيسى والتوراة بلسان موسى والصحف بلسان إبراهيم والزبور بلسان داوود، ولكن لم تكن أي من هذه اللغات هي لغة الله نفسه على الرغم أنهم بمجملهم من عند الله، فالله سبحانه قد يسّرهم بلسان أقوام الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، ولكنهم جميعاً جاءوا من مصدر واحد، المصدر الذي منه ينبعث نور الله، أي العلم الذي انطوت عليه تلك الكتب مجتمعة، فأخفق من أرسلت إليهم تلك الكتب في حفظ كتبهم كما أُنزلت إليهم، وتكرم الله على هذه الأمة بأنْ تعهد لها حفظ كتابها:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

**سؤال**: من أين جاءت جميع كتب الله؟

ما هو المصدر الذي جاءت منه جميع هذه الكتب؟ فنحن نعرف أنّ هناك القرآن والإنجيل والتوراة والألواح والصحف والزبور وجميعها جاءت من مصدر واحد، أليس كذلك؟ ألا يحق لنا عزيزي القارئ أن نطرح التساؤل التالي: هل - يا ترى- يمكن أنْ يكون كل من هذه مكتوب (في المصدر) باللسان الذي يسره الله به؟ أي هل كان الإنجيل في ذلك المصدر الإلهي الذي جاء منه آراميا؟ وهل كان التوراة في ذلك المصدر عبرانياً؟ وهل كان القرآن في ذلك المصدر عربياً؟

**رأينا**: نحن نظن أن الجواب هو النفي بكل تأكيد، لذا نحن نتجرأ على تقديم افتراء من عند أنفسنا مفاده أن التوراة والإنجيل والقرآن (وجميع كتب الله) كانت في المصدر منسوخة بلغة واحدة، ولكنَ الله – كما ذكرنا سابقاً- يَسَّر كلا منها بلسان قوم النبي الذي أرسله الله إليهم. ويقودنا هذا الطرح إلى سؤالين اثنين:

1. ما هو ذلك المصدر؟
2. وما هي تلك اللغة؟

للإجابة على هذين السؤالين فإننا ندعو القارئ الكريم إلى إمعان النظر في بداية سورة البقرة:

- ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 1-2]

فما هو الكتاب الذي تشير إليه الآية الكريمة؟

## تفند الفكر السائد

لقد درج جل الفكر الإسلامي على فهم هذه الآية على أنها تتحدث عن القرآن الكريم، وقليل من ظنّ أنها تتحدث عن التوراة والإنجيل (انظر مثلاً تفسير ابن كثير). أي أنّ الكتاب المذكور في هذه الآية هو القرآن الكريم، وقد أجهدوا أنفسهم للإجابة على استفسار جلي هو: لِمَ إذن أُستخدم أسم الإشارة "ذَلِكَ" بدلا من "هذا" مع العلم أنّ القرآن الكريم أصبح بين أيدينا؟ فقدم عدد من المفسرين بعض الملاحظات التي ظنوا أنها تسوغ استخدام اسم الإشارة "ذَلِكَ" للحديث عن القريب بجملة من المجازات (في حين أن

لغة آباءهم وأجدادهم تستخدم المفردة للإشارة للبعيد)، نحن نعتقد يقيناً أن القرآن الكريم يخلو من المجاز، فهو – لا شك عندنا- كلام الله على الحقيقة. للتفصيل انظر مقالتنا جدلية الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم

ولكن يبقى السؤال قائماً: لِمَ لَمْ يقل الله تعالى "الم. هذا الكتاب لا ريب فيه"؟ ولعلنا نحتاج هنا أنْ نجلب انتباه القارئ الكريم إلى أنّ هذه الصيغة وردت في مواطن أخرى من القرآن الكريم:

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: 92]

ولنتدبر كذلك الآيات التالية:

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: 155]
- ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف: 12]

ففي هذه الآيات يرد لفظ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ للدلالة على القرآن الذي أنزل باللسان العربي ولم تستخدم اسم الإشارة "ذلك"، فهل كان من الضروري إذاً استخدام اسم الإشارة "ذلك" في بداية سورة البقرة إنْ كان المقصود هو القرآن الكريم؟ وهل يحتاج علماء الإسلام إجهاد أنفسهم لتسويغ هذا الاستخدام للّيّ أعناق النصوص؟

**رأينا**: نحن نعتقد أنّ كلام الله دقيق، فالله يقصد ما يقول، فـ "هذا الكتاب" تعني "هذا الكتاب" و"ذلك الكتاب" تعني "ذلك الكتاب" وكفى.

وإلاّ كيف يمكن ربط هذه الآيات القرآنية بالآية التالية؟

- ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49]

فما هو هذا الكتاب الذي يشير إليه المجرمون في هذه الآية الكريمة؟ ولنتدبر أيضاً الآية الكريمة التالية:

- ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: 29]

فما هو هذا الكتاب الذي سينطق علينا في ذلك اليوم الرهيب؟ أليس هو ما كان منسوخ به جميع ما كنا نعمل في الحياة الدنيا؟

أما التساؤل المثير الآخر فهو: ما هي "الم" التي وردت في مطلع سورة البقرة قبل الإشارة إلى ذلك الكتاب؟

- ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 1-2]

## تفنيد الفكر السائد

فقد اعتقد معظم من تصدى للإجابة على هذا التساؤل المثير أنّ الله وحده يعلم ماهية هذه الأحرف، وغالباً ما جاء خطابهم صريحاً أو ضمنيا بعبثية البحث في هذا المجال، فمادامت أن عقولهم العظيمة قد قصرت عن إدراك حقيقة هذه الأحرف المتقطعة، فهل – يا ترى- ستستطيع عقول صغيرة (من أمثال عقل رشيد الجراح مثلاً) أن تدركها؟

**رأينا**: غن كان الأمر على هذا النحو فإننا نحن نرد عليهم بالمنطق المفترى من عند أنفسنا التالي:

هل هذه الأحرف جزء من القرآن؟

**جوابهم**: لا شك إنها جزء من القرآن

**سؤالنا**: إذا كانت جزء من القرآن، لما لا تخضع لقول الله تعالى:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النساء: 82]
- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: 24]

**منطقنا المفترى**: مادامت تلك جزء من القرآن فلابد أن نتدبرها بأن نفتح قلوبنا ولا نقفلها

**رأينا**: إننا نعتقد جازمين أنّ طرحنا السابق ربما يحل "اللغز" (كما صوره لنا علماؤنا الأجلاء) ويزيل الإبهام ويوجه النشء في الاتجاه الصحيح. ولكن كيف؟

**افتراء من عند أنفسنا (1):** إننا نعتقد أنّ الكتاب الذي ذكر في بداية سورة البقرة " ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ" هو ليس القرآن ولا الإنجيل ولا التوراة وإنما المصدر الذي جاءت منه جميع الكتب السماوية (الصحف والزبور والتوراة والإنجيل والقرآن).

**افتراء من عند أنفسنا (2)** وإن صح هذا المنطق فإننا نفتري القول أيضاً أن " الٓمٓ" التي جاءت في بداية سورة البقرة (وكذلك جميع الحروف المتقطعة في بداية بعض سور القرآن الكريم) هي لغة ذلك الكتاب المصدر. أي هي لغة الصحف ولغة الزبور والتوراة والإنجيل كما هي في مصدرها الإلهي، وهي كذلك لغة القرآن الكريم كما هو في مصدره الأصلي الذي جاء منه. وربما لهذا يصعب علينا (حتى الساعة بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمن) فهمها ومعرفة المقصود منها.

**افتراء من عند أنفسنا (3):** لما كانت جميع الكتب السماوية التي تلقاها بنو البشر مكتوبة بتلك اللغة، كان من الصعب على بني البشر فهم تلك الكتب إنْ هي نزلت بتلك اللغة الأم، فقدّر الله مشيئته أنْ يُيسِّرها لكل نبي بلسان قومه. فهذه الكتب تحوي كلام الله ولكن كما يُسِّر بلسان قوم نبيه الذي أُنزل عليه إحدى هذه الكتب. فكلمة الله موجودة في صحف إبراهيم ولكن بلسان قوم إبراهيم، وكلمة الله في زبور داود ولكن بلسان قوم داوود، وكلمة الله في التوراة ولكن بلسان قوم موسى، وكلمة الله في الإنجيل ولكن بلسان قوم عيسى، وكذلك كلمة الله في القرآن ولكن بلسان قوم محمد. ولله المثل الأعلى، فتلك الكتب هي الترجمة الحق لكتاب الله الحق كلٌ بلسان قوم الرسول الذي يسره الله بلسانه.

للتفصيل أكثر في هذه القضية انظر مقالتنا تحت عنوان: لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (11).

أي أنّ كتاب الله مترجم لنا إلى العربية كما كان الإنجيل ترجمة لكتاب الله إلى الآرامية والتوراة إلى العبرية.

إننا نزعم القول إذاً أنّ "الكتاب" الذي ورد في أوائل سورة البقرة هو المصدر الذي جاء منه القرآن الكريم ولكنه يُسِّر (بمشيئة الله) بلسان قوم محمد، وحتى يقتنع القارئ ببعض ما نزعم هنا، فإننا نذكّره بقول الله تعالى في الآية التالية:

- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: 37]

وهنا نوجه انتباه القارئ الكريم إلى صفة الكتاب الذي ورد في هذه الآية في قوله تعالى " ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ"، أليس هو إذاً نفس الكتاب الذي ورد في بداية سورة البقرة (ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ)؟ وإذا كان هذا الافتراض صحيحاً، فكيف يكون ذلك الكتاب هو نفسه القرآن؟ ألا تدل هذه الآية الكريمة أنّ القرآن شيء (وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ) وذلك الكتاب شيء آخر (وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ)؟ والأهم من ذلك كله ألا تعني هذه الآية الكريمة أنّ القرآن هو تفصيل لذلك الكتاب الذي لا ريب فيه؟ فالله سبحانه في هذه الآية الكريمة يثبت ثلاث حقائق تخص القرآن الكريم:

1. استحالة أنْ يفترى هذا القرآن من دون الله (وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ)
2. أنّ القرآن هو تصديق الذي بين يديه (وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ)
3. أنّ القرآن هو تفصيل الكتاب الذي لا ريب فيه (وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

وما نحن بصدده الآن هو طرح التساؤل التالي: كيف يمكن أنْ يكون القرآن هو تفصيل الكتاب إن كنا نزعم (كما أفهمنا بعض علماؤنا الأجلاء) أنّ ذلك الكتاب هو القرآن نفسه؟!

**رأينا**: إننا نريد أن نخلص إلى نتيجة مفادها أنّ القرآن الكريم شيء وذلك الكتاب شيء آخر، وما القرآن الكريم إلا تفصيلاً لذلك الكتاب. ولتأكيد الفكرة في ذهن القارئ الكريم نورد الآيات التالية:

- ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: 114]
- ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: 1]

وحتى يأتي التأكيد بأنّ ذلك التفصيل كان بلسان قوم الرسول:

- ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: 1-3]
- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: 44]

والملحوظ الدقيق هنا هو أنّ الآية الكريمة تثبت أنّ العربية أو العجمة ليست هي المهم وإنما " هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ " ولعلنا جميعاً نتفق أنّ الذين أمنوا ليسوا جميعاً عرب اللسان. فالقرآن الكريم بآياته هدى شفاء للذين أمنوا بغض النظر عن لسانهم من أمثال بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي، وهو عمى على الذين لا يؤمنون حتى لو كانوا بفصاحة سهيل بن عمرو وعمرو بن هشام وأمية ابن خلف وأبي لهب (عم النبي محمد نفسه). فالعرب كانوا سيطلبون قرآناً بلسان عربي لو لم يكن عربياً، وكذلك سيطلب العجم قرآناً أعجمياً ما دام أن المتوافر هو قرآن عربي، وهكذا. فكيف إذاً ستحل هذه الإشكالية؟

**افتراء من عند أنفسنا**: إننا نعتقد جازمين أن الجواب البسيط يكمن في الفهم أنّ العربية أو العجمة ليست هي الأمر الحاسم، وإنما المهم بالأمر هو تفصيل الآيات. ونحن نقصد بذلك تفصيل كتاب الله (المرجع الأصلي) إلى الكتب التي أنزلها الله بلسان قوم النبي أو الرسول، وهذا يعني بمنطقنا المفترى هذا أن التفصيل في القرآن تعني إذاً تحويل النص الأصلي إلى نصوص أخرى يستطيع الناس فهمها ما داموا أنهم يتحدثون لغات مختلفة. أي الترجمة

ربما يحل مثل هذا الطرح إشكالية أخرى نظن أنها أجهدت الفكر الإسلامي قروناً من الزمن تتمثل في التساؤل التالي: هل القرآن الكريم بحرفيته هو قول الله كما صدر من الإله نفسه؟ فهل فعلاً قال الله لموسى "اضرب بعصاك البحر" بتلك الحرفية؟ وهل قال الله لنوح "احمل فيها من كل زوجين اثنين" بتلك الحرفية؟ وهكذا. (وسنتعرض بالتفصيل لهذا الأمر لاحقاً)

**والسؤال التالي يكون إذاً**: كيف جاء القرآن الكريم تفصيلاً لذلك الكتاب؟ أي ما هي ماهية ذلك التفصيل؟ وماذا يترتب على هذا الظن المفترى من عند أنفسنا؟

**رأينا**: نحن نظن أن الآية الكريم التالية ذات علاقة وطيدة بالموضوع قيد البحث، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف: 52]

فهذه الآية الكريمة هي في رأينا دليل حاسم على أنّ هذا التفصيل ليس اعتباطياً أو ظنياً أو إتباعا للهوى وإنما هو "علم خالص" (بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ). وجل ما نسعى إليه أو ما يجب أنْ يبحث عنه من يتصدى لهذا العلم أنْ يحاول أن يستكشف ماهية هذا العلم، ونحن نظن يقيناً أنه حقل أوسع بكثير من العلوم الطبيعية كالرياضيات والفيزياء وحتى أوسع من العلوم القرآنية الأخرى كعلوم الفقه والعقيدة، إنه علم "تفصيل الكتاب".

---

**(دعاء: أسأل الله رب أن يعلمني كيف فصلت آيات الكتاب قرآناً عربياً، وأن يعلمني من لدنه علماً لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم)**

---

وربما يبادرانا الكثيرون بالسؤال: وهل هذا ممكن؟ فنقول رداً على ذلك دعنا نقرأ الآية التالية للآية السابقة من سورة الأعراف:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾ [الأعراف: 53]

تدلنا الآية الكريمة أن هناك تأويل (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ) وأنه لابد حاصل (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ)، وهذا ما نرغب نحن بتسميته علم التأويل

---

**(دعاء: أللهم رب إني اشهد أن رسلك قد جاءت بالحق، فأنت وحدك أسأل أن تعلمني التأويل، إنك أنت الحكيم العليم)**

---

فالآية السابقة تثبت إمكانية التأويل، ولكن قد يسبقنا البعض بالقول أنّ هذه الآية تتحدث عن إمكانية التأويل ولكن في الدار الآخرة، فهؤلاء الذين ينظرون تأويله –كما تشير الآية الكريمة- سيأتيهم ذلك التأويل ولكن بعد فوات الأوان. فنقول أنّ ذلك صحيح، ففي ذلك اليوم الرهيب ستتكشف الأمور للجميع، ولكن يبقى ما يهمنا في هذه الجزئية هو: هل سنتمكن نحن من تأويله أو حتى جزء منه في الحياة الدنيا؟ نقول نعم بكل تأكيد، فالله سبحانه يقول:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: 7]

---

**(دعاء: اللهم رب أسألك وحدك أن تنفذ قولك بمشيئتك وإرادتك لي أن أكون أكثر أهل الالأرض علماً بتأويله إنك أنت العليم الحكيم)**

---

## عودة على بدء

إننا نفترض هنا أنّ القرآن الكريم جاء معجزة لغوية لأنها أعظم معجزة وجدت منذ خلق الله آدم عليه السلام، فهي أصلاً أساس الخلق وسببه، وهي نهاية الكون وفناء الحياة على الأرض. وهي العلم الحقيقي المسيّر للكون وما فيه، فنحن نفترض هنا أنْ القرآن الكريم يحتوي على ذلك العلم الذي نبحث عنه "وهو معرفة سر العلاقة بين الأشياء ومسمياتها"، فهو يحتوي على الشيفرة التي بها تفك أسرار الحياة والكون ولا ننسى أنه في الأساس والجوهر كلام ولكن كلام من؟ إنه كلام الله الأبدي الذي تكفل الله بحفظه.

قد يجيب هذا الافتراض على تساؤل خالج الكثيرين وهو: لماذا لا نرى معجزات كالتي كانت تحصل زمن العصور السابقة؟ ففي زمن الأنبياء السابقين كان هناك ما يسمى خطأً "معجزات" وحقاً آيات وبينات، لماذا لا تتحقق الآن؟ وهل فعلاً ولى زمن ما سمي بـ "معجزات"؟

للتفصيل انظر مقالتنا: هل هي معجزات أم آيات بينات؟.

رأينا: إنّ الجواب ضمن الافتراض الجديد بسيط، "فالمعجزات" (كما يرغب في تسميتها الكثيرون) كلها موجودة في القرآن الكريم، ولكنها بحاجة إلى فك رموز تلك الشيفرة، فإن استطعنا اكتشافها كان القرآن كله معجزة وفيه الوسيلة على إحداث معجزة في كل شيء، وبالتالي الهداية إلى كل شيء، ليس فقط لأصحاب اللسان العربي وإنما للناس كآفة:

- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]

لاحظ عزيزي القارئ أن القرآن الكريم يتكون من آيات، ففي الفاتحة 7 آيات، وفي سورة البقرة مثلاً 286 آية، وهناك 200 آية في سورة آل عمران، وهكذا. والمتدبر للنص القرآني يجد أن الحديث عن عصا موسى أو عن ناقة صالح وغيرها جاء على صيغة أن تلك آيات، ونحن نرى الفرق بينهما هو في حين أن تلك الآيات التي جاء بها رسل الله كانت آيات ملموسة (مادية كالعصا واليد والناقة) فإن آيات القرآن الكريم هي آيات متلوة، وسنتحدث لاحقاً (عن أذن الله لنا بشيء من علمه عن العلاقة بين الآيات المادية الملموسة

التي جاءت بها رسل ربنا وآيات القرآن المتلوة التي جاءت في كتاب ربنا، لذا فالله أسأل أن يأذن لي بعلم من لدنه لا ينبغي لغيري غنه هو السميع العليم).

ويجب أنْ ندرك أنّ هذه الشيفرة هي غاية في التعقيد ، فلن نستطيع أنْ نفكها كلها ولكن قد نصل إلى تأويل بعضها ولهذا قال تعالى:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]

**افتراء خطير جداً جداً:** نحن نفتري الظن أن القرآن الكريم (وإن كان مكتوب باللسان العربي) فشيفرته ليست عربية وإنما حقيقية عالمية لكافة الخلق (الإنس والجن) بغض النظر عن لسانهم.

لتوضيح الفكرة فإننا نقدم المثال التالي (ولله المثل الأعلى)، فهل إن كتب اينشتاين معادلة فيزيائية باستخدام الرموز الإنجليزية (Z, Y, N…) والأرقام العربية (1, 2, 3, …) تصبح تلك المعادلة إنجليزية أو عربية ولا يستطيع الصيني أو الهندي فهمها؟ وهل إن كتبت معادلة رياضية بالرموز الإنجليزية تصبح خاصة بالإنجليز دون الأمم الأخرى؟

**رأينا**: إننا نسعى من خلال هذا النقاش المفترى من عند أنفسنا للتأطير للفكرة التالية: إن تفصيل الكتاب قرآناً عربياً لا يعني بأي حال من الأحوال أنّ العرب فقط من يستطيعوا فك شيفرته وإلا لجاء التحدي من الله خاصاً بالعرب فقط. ولكن لما كانت تلك الشيفرة موجهة للخلق كافة فلا بد أن يشترك في فكها الخلق كافة، ولن يتم ذلك إلا عند فك عرى الترابط بين القرآن ككتاب موجه للبشر كافة واللغة التي يسر بها كلغة خاصة بقومية محددة وهم العرب.

وهنا نتوقف قليلا لنؤكد على الفكرة الهامة جداً التالية: إن هناك ثلاث مستويات للفهم في القرآن الكريم غالباً ما خلط المفسرون بعضها ببعض، والمستويات الثلاث هي:

⇐ **مستوى التفسير**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: 32-33]

⇐ **مستوى التأويل**: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ... ٥٣﴾ [الأعراف: 53]

⇐ **مستوى التفصيل**: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [فصلت: 1-3]

وسنتعرض للتفريق بينهما لاحقاً لنبين كيف يجب التعامل مع القرآن الكريم ككتاب يحتوى على أسرار هذا الكون وعجائبه.

(فالله اسأل أن يعلمني من لدنه علما لا ينبغي لغيري إنه هو السميع العليم)

ونحن نجزم بإيمان ثابت أنّ فك تلك الشيفرة (علم التفصيل) سيقودنا إلى العلم الحقيقي الذي ظل الفكر البشري يطمح ويجهد للوصول إليه، فالعلم الحقيقي (في الطب والهندسة والرياضيات والفلك وحتى الجن) مرهون بفك تلك الشفرة. ولكن هل الشيفرة عربية؟ إن هذا السؤال يفضى إلى نقاش ضروري حول ماهية القرآن الذي أنزل على محمد

## جدلية الكتاب والقرآن

هل ما نمسكه بأيدينا قرآن؟ أي هل المكتوب بين دفتي المصحف الشريف هو القرآن الذي نزل على محمد بن عبد الله (عليه أفضل الصلاة وأتم السلام)؟

**الجواب** – في رأينا – كلا، إنه ليس القرآن الذي نزل على محمد بكل تأكيد, كلام خطير، أليس كذلك؟

ولكن قبل أنْ تُصدَر الفتاوى من مجالس الفتوى الإسلامية (وأنا والله لا أعلم الفرق بين فتاويهم وصكوك غفران غيرهم) بجواز ضرب عنقي فليعطوا أنفسهم فرصة قراءة الأسطر التالية لفهم فحوى ما نقول وندّعي، وقبل الولوج في شيء من التفصيل نودّ التأكيد على أنّ لهذا الإدعاء تبعات جمة ربما تصحح مسار عقيدة دخلتها البدع فضلّت أحيانا طريقها، وكما ذكرنا في أكثر من مكان فإنّ قوة هذه الانحرافات وانتشارها الواسع قد أغشت الأبصار عن النظر من غير زاويتها، وصمت الآذان عن سماع ما ينافيها، فأقفلت القلوب عن فهم الحقيقة، ولعل من الضروري الإشارة إلى أنّ هذه الجدلية قد أثارها الكثيرون قبلنا، ولكنّنا نعتقد أنه لا زال هناك فسحة من المكان لتسليط الضوء على الأمر من زوايا جديدة.

**أولا**، إننا نعلم أنّ القرآن قد نزل على محمد بن عبد الله عن طريق الوحي جبريل عليه السلام:

- ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة: 97]
- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: 193-195]
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء: 196-199]

ونحن نعلم كذلك أنّ جبريل عليه السلام لم ينزل على محمد بن عبد الله ومعه رقع مكتوب عليها القرآن، والثابت أنّ جبريل كان يراجع ذلك القرآن مع النبي شفهياً (كما تقول رواياتهم)، ولو كانت المراجعة

تتم بقراءة شيء مكتوب على "الألواح" لتبقى من تلك الألواح شي نعلمه، أو على الأقل لوصلنا شيءٌ من خبرها.

**ثانياً**، لم يكن محمدٌ بن عبد الله يعرف الكتابة " فلقد كان أميّاً، وهو بذلك لم يخط القرآن بيمينه:

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: 48]

**ثالثاً**، لقد كانت أمة العرب أمة أميّة، وكان معظم تراثها منقولاً شفهياً إلا اليسير اليسير منه، وقد كانت تتلقى تعليمها من الرهبان والكهنة (أهل الكتاب)، فلم تكن قد نضجت بعد في علوم التدوين والتقعيد.

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2]

**رابعاً**، لقد تلقى من تعلم من أبناءها علم الكتابة (التدوين) من مصادر مختلفة، ولنتصور الأمر على نحو ما كان يعرف حتى زمن قريب بالكتاتيب، فلكل شيخ طريقته، وينهج الطلاب على نحو ما يعلمهم شيخهم، ولذا تتفاوت الطريقة تبعاً للشيخ الذي تم تلقي المعرفة على يديه.

**خامساً**، إنّنا نعلم أنّ الأمر من النبي لأصحابه بنسخ ما ينزل من السماء قرءاناً جاء للعديد منهم، فلم يأمر شخصاً معينا بعينه القيام بالمهمة، فكان هناك ما سمي "بكتبة الوحي".

**سادساً**، كان الرسول يراجع القرآن معهم شفوياً، فهو كما أسلفنا لم يكن على دراية بعلم الكتابة حتى يتيقن مما ينسخون، ولكنه كان يتلقاه سماعياً، فيقرهم على ما يسمع منهم.

**سابعاً**، لقد تم جمع الرقع التي كتبت عليها آيات القرآن الكريم في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه خلال معارك الردة التي قتل فيها عدد كبير من ما سمي بكتّاب الوحي.

**ثامناً**، لقد جُمِع القرآن الكريم في نسخة واحدة في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه فيما أصبح يعرف منذ ذلك الوقت " بالرسم العثماني" للمصحف الشريف.

**تاسعاً**، قام عثمان رضي الله عنه بإتلاف النسخ الأخرى للمصحف الشريف (ولا ندخل هنا في جدلية هذا الأمر، فلا يعنينا ما الذي أحرق ولا يعنينا كذلك لماذا أحرق)، ومنذ ذلك اليوم والمسلمون يتداولون تلك النسخة من القرآن الكريم، وهي النسخة نفسها الموجودة في كل مكان على وجه هذه المعمورة.

**عاشراً**، تم إحداث التغيرات على ذلك الرسم القرآني في الحقب التاريخية المتعاقبة، فتم التنقيط والتشكيل (وكان الدافع في ذلك تجنب العجمة في اللفظ القرآني بعد دخول أمم كثيرة لا تتقن اللسان العربي في الدين الإسلامي)، ووضعت علامات الوقف وعلامات التجويد بغرض تسهيل القراءة بعد ذلك، وأدخلت الألوان على بعض الإصدارات في عهد قريب.

**حادي عشر**، لقد أدى ظهور الطباعة إلى إصدار نسخ من المصحف الشريف تتفاوت في حجم الخط ونوعه.

**ثاني عشر**: لقد أدى التقدم التكنولوجي إلى توافر إصدارات الكترونية من نسخ من القرآن الكريم على أجهزة الحاسوب والهاتف الخلوي وغيرها

**ثالث عشر**، يؤمن المسلمون إيماناً مطلقاً أنّ الله قد تعهد هذا الكتاب بالحفظ، مستمدين ذلك من قوله تعالى:

- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]

سنناقش لاحقاً معنى الذكر الذي تعهد الله بحفظه في ضوء الآيات القرآنية التالية:

- ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران: 58]
- ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 6-9]
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 43-44]
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: 7]
- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]
- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨﴾ [الفرقان: 17-18]
- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: 27-30]
- ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس: 10-11]
- ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: 1]
- ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص: 8]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥﴾ [فصلت: 41-45]
- ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾ [الزخرف: 1-5]
- ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥﴾ [القمر: 24-25]
- ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١﴾ [القلم: 51]

**رابع عشر**، ذهب معظم الناس في فهم هذه الآيات القرآنية الكريمة إلى أنّها تعود على القرآن الكريم، وأنّ هذا الحفظ يعني عدم التغيير ولو بحرف واحد، وطبقوا هذا الفهم (في غالب الأحيان) حتى على النسخة المكتوبة للمصحف الشريف، وهنا نتوقف للحظة لنتساءل: كيف يدعي هؤلاء أنّ المصحف لم يدخل عليه تغيير وهو ما زال حتى يومنا هذا تضاف إليه شتى الرموز التي لم تكن موجودة في طبعاته السابقة؟ ألم يدخل عليه التنقيط والتشكيل؟ ألم تدخل عليه علامات الوقف والوصل والتجويد؟ ألم تدخل عليه علامات الترقيم؟ ألم تضاف إليه مؤخراً علامات التلوين والإشارات المساعدة في القراءة الصحيحة؟

ونتيجة لذلك، ألم تتلقى هذه الأمة افتراءات الخصوم وإثارة الشبهات حول دوافع عثمان رضي الله عنه بإتلاف النسخ الأخرى للمصحف الشريف؟ فماذا كان دافع عثمان عليه السلام في ذلك؟ وفي الوقت ذاته ما هو الحفظ الذي تعهد الله به لما نزل على نبيه الكريم؟

**رأينا**: إننا نزعم أنّ عدم توخي الدقة في استخدام الألفاظ قد أدى إلى الخلط الذي شوّه الحقيقة فأمكن المتشككين والأعداء من القدح في أعظم وأجل معتقداتنا، ولقد ساعدهم في ذلك تعلق المسلمين وحبهم لكتابهم حتى ذهبوا معه- إلى حد - ما ذهب إليه بعض أهل الكتاب في حبهم لنبيهم عيسى بن مريم حتى أوصلوه إلى درجة التقديس ومن ثم التأليه (أي حتى جعلوه آلهاً يعبد مع الله).

**خامس عشر**، إننا نؤمن أنّ الأمر من النبي للعديد من أصحابه بنسخ ما ينزل من خبر السماء كان للتثبت وإقامة الحجة على الناس بإيصال الخبر كما نزل من السماء.

**سادس عشر**، لقد حفظ أبناء المسلمين ما نزل على محمد غيباً وتناقلته الأمة بالتواتر حتى يومنا هذا، وما أكثر الحفّاظ لكتاب الله حتى من غير الناطقين بالعربية، ولا أخال أنّ أي كتاب آخر على وجه الأرض (سماويا كان أو وضعياً) يحفظ من أول حرف حتى آخر حرف فيه كما يحفظ القرآن الكريم.

**سابع عشر**، لم ينزل القرآن الكريم كله دفعة واحد، وذلك لسبب بسيط حتى يثبت الله به فؤاد نبيه

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: 32]
- ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 106]

**ثامن عشر**: نزل الكتاب (وليس القرآن) جملة واحدة، للتفصيل انظر مقالتنا: لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه (11)؟

- ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾ [الدخان: 1-3]
- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: 1]

**تاسع عشر**: يثبت الله بصريح اللفظ في القرآن الكريم أنه لم ينزل على محمد شيئاً مكتوباً بأي شكل من الأشكال، قال تعالى:

- ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأنعام: 7]

وفي ضوء الحقائق السابقة فإننا سنقدم فهمنا لما تعهد الله بحفظه لهذه الأمة، وفي غايتنا أمرين اثنين، أولهما الرد على بعض الشبهات التي أثيرت ولا تزال تثار حول كتاب الله الكريم، وثانيهما تصحيح العقائد التي ظلت أحياناً طريقها بسبب عدم فهمها لحقيقة الأمر من وجهة نظرنا نحن، وهي بلا شك لا تمثل دين الله الحق إلا بما يصدقه منها كتاب ربنا.

## رد الشبهات

### فك عرى التلازم بين اللغة العربية والقرآن الكريم

يجب - أولا وقبل كل شيء- عدم خلط حدينا عن اللغة العربية مع حديثنا عن القرآن الكريم، فعندما ننتقد مسألة ما في اللغة العربية أو نشير بأصابع الاتهام إلى اللغة العربية فلا يجب أن يفهم أنّ في ذلك اتهاما لما في كتاب الله، وعندما نصف اللغة العربية بالقصور في أي شيء فلا يمكن أن نقصد أنّ ذلك يلازمه قصور في القرآن الكريم، فعقيدتنا مبنية على الافتراض بأن الحديث عن اللغة العربية شيء والحديث عن القرآن الكريم شيء آخر، وللتمثيل على ذلك نورد المثال البسيط التالي:

نقول أنّ اللغة العربية مثلاً تغيّر شكل الاسم بتغير عدده، فالاسم يكون مفرداً عند الحديث عن المفرد ويأتي بصيغة المثنى عند الحديث عن اثنين ويكون بصيغة الجمع عند الحديث عن أكثر من ذلك، ويتم الاشتقاق من نفس حروف الكلمة (الجذر)، فلقد تعلمنا في الصفوف الأولى من المدرسة شيئاً يشبه المثال التالي:

| | | |
|---|---|---|
| ولد | ولدان | أولاد |
| بنت | بنتان | بنات |
| رجل | رجلان | رجال |
| امرأة | امرأتان | ؟______ |
| ؟_____ | ؟____ | نساء (نسوة) |

**وتساؤلنا هو**: أين جمع كلمة "امرأة"؟ وأين مفرد ومثنى كلمة "نساء"؟

وقد يرد البعض على الفور بالقول أنّ جمع "امرأة" هو "نساء" ومفرد ومثنى "نساء" هو "امرأة وامرأتان"، فنرد بالقول : كلا وألف كلا، فالمفرد والمثنى والجمع للكلمة يشتق من نفس الجذر كما في مثال "ولد" و "بنت" و "رجل" أما كلمة "امرأة" وكلمة "نساء" فتأتي كل منهما من جذر مختلف، وهي بالتالي مفردات مختلفة، لكل منهم دلالاته واستخداماته التي يجب أنْ لا تتداخل مع غيرها.

**افتراء من عند أنفسنا:** إن مراد القول هنا أنّ العربية "كلغة" قد عجزت أنْ تشتق مفردة ثابتة لجمع كلمة امرأة، وعجزت عن اشتقاق المفرد والمثنى من كلمة نساء، وهذا ما يسمى بعلم اللغة "بالفجوة اللغوية" (accidental gap)

والمهم بالقول أنّ هذا لا يعني بأي حال من الأحوال قدحاً في كتاب الله الذي ورد فيه كلمة "امرأة" وامرأتان" و"نساء" ولم ترد فيه مفردةٌ لجمع كلمة "امرأة" أو مفردةٌ لمثنى ومفرد كلمة "نساء"، فهذا العيب (أو القصور) في اللغة – في رأينا- لم يؤثر على إعجاز القرآن الكريم الذي نزل باللسان العربي، ولكن كيف ذلك؟

**رأينا**: لنتدبر بعض ما نفهمه من إعجاز في الاستخدام القرآني لهذه المفردات

**أولاً**، جاءت مفردة كلمة "امرأة" في القرآن الكريم لتدل- حسب فهمنا- على "الأنثى التي تزوجت من رجل"، أما إذا لم تتزوج الأنثى من رجل فلا تسمى "امرأة"، قال تعالى في أواخر سورة التحريم:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 10-12]

فبالرغم أنّ مريم بنت عمران قد أنجبت عيسى عليه السلام إلاّ أنّ القرآن الكريم لم ينعتها بصيغة "امرأة"، والجواب البسيط – برأينا- هو أنها لم تتزوج من رجل، ففي حين أنّ النساء الأخريات نُعِتن بهذه الصفة لملازمتهم لأزواجهم. ويثبت ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]

افتراء من عند أنفسنا: من كان لها بعل فهي امرأة (وإن كانت مطلقة أو حتى أرملة)، ومن لم يكن لها بعل فهي ليست امرأة وإن أنجبت كمريم بنت عمران، وإن صح هذا الفهم فإنّ موسى عليه السلام كان قد تزوج بامرأة عندما حطت به الرحلة في أرض مدين، قال تعالى:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 23]

وسنتحدث عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل في مقالتنا " من هي زوجة موسى " و ثلاثية المرأة

وجاء عند الحديث عن الشهادة قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

وهذا يعني – بمفهومنا لمعنى كلمة امرأة- أن الشهادة لا تكون إلاّ للرجل وللمرأة (أي لمن كان قد تزوج)، فلقد اجتهدت المدارس الفقهية في تحديد شروط الشهادة، وحددتها المحاكم الإسلامية بالبلوغ والعمر والرشد، الخ، أليس كذلك؟

رأينا: إننا نرى (وقد نكون مخطئين) أنّ الشهادة التي بها يقع الحكم هو أنْ يكون الشاهد - أولا وقبل كل شيء- متزوجاً، أما الشروط الأخرى كالبلوغ والعمر والرشد فهي يمكن أن تأتي من باب قوله تعالى في نفس الآية الكريمة " مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ "، أما الشرط الذي ورد صراحة في الآية الكريمة فهو أن يكون الشاهد رجل أو امرأة (أي شخصاً متزوجاً)، فنحن نعتقد أنه حتى لو جاء ابن تيمية نفسه ليدلى بشهادته لما قبلناها كشهادة توجب الحكم لأنّه لم يكن متزوجا، فهي لا تعدو في فهمنا أكثر من دليل كباقي الأدلة التي يمكن أن تؤخذ لرجحان أو إبطال الاتهام (أي للاستئناس)، أما الشهادة التي توجب الحكم فلا تقبل إلا من رجلين (أي متزوجين) أو من رجل وامرأتين (جميعهم قد تزوجوا)، وأجد من الضروري إثارة التساؤل التالي لمن ظن أنّ

العمر والرشد والبلوغ هم شروط الشهادة (كما هو حاصل في محاكمنا الشرعية الآن): ماذا لو كانت الشاهدة عائشة بنت أبي بكر بعد أن تزوجها رسول الله وهي لم تتعدى التاسعة من العمر آنذاك (كما تقول بعض الروايات)، فهل يقبلوا أم يردوا شهادتها؟!

وربما يرد البعض بالقول: ولكن هذه عائشة، فنرد بالقول أننا لا نظن أنّ أمر الدين لعائشة يختلف عن أمر الدين لغيرها، فهل يا ترى تقبل شهادة عائشة عن شهادة رجل واحد من المسلمين وإن كان إيمانه لا يزيد عن إيماني أنا، فحتى أنا كرجل لا تقابل شهادتي إلاّ شهادتين من مثل شهادة عائشة وشتان شتان بين إيمان عائشة وهي زوج النبي عليه السلام وإيماني أنا على علاّته، لكن تبقى الحقيقة الثابتة أنها هي امرأة وأنا رجل، ولا يمكن جلب الطابع الإيماني في مسألة الشهادة، فكقاضي أقبل شهادة رجل حتى ولو لم يكن إيمانه كإيمان ابن تيميه ولا أقبل شهادة ابن تيميه لأنه لم يكن متزوجاً. فالزواج شرط في الشهادة.

أما في حالة الميراث، فقد جاء قوله تعالى على نحو:

- ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: 11]

فبالرغم أن المقابلة هي نفسها (واحد مقابل اثنتين، 1: 2)، إلا أنها لم تأتي في حالة الميراث كما جاءت في حالة الشهادة (رجل مقابل امرأتين)، وسؤالنا هو: لماذا تغير اللفظ من "رجل وامرأتين" إلى ذكر وأنثيين؟

**رأينا**: نظن أن الجواب بسيط، وهو أنّ الميراث يتحصل للإنسان بمجرد ولادته، فالذكر يرث مثل الأنثيين بغض النظر عن العمر أو الحالة الاجتماعية، فمن كان عمره يوماً واحد يرث كمن بلغ الأربعين أو الخمسين، ومن كان أعزب يرث كمن كان متزوجاً، فالزواج ليس شرطاً في الميراث ولكنه شرط في الشهادة.

هذه بعض من استخدامات القرآن للفظة امرأة كما نفهمها نحن، أما لفظة النساء (والنسوة) فقد جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

فهذا يعني أنّ لفظة نساء تطلق على مجموع النساء المتزوجات وغير المتزوجات، فنحن نفتري القول أنّ اللواتي تحدثنّ عن قصة يوسف مع امرأة العزيز واللواتي وقعن في حب وسف لم يكنّ كلهنّ من

المتزوجات، فلقد وقع في حب يوسف المتزوجات وغير المتزوجات، فلفظة النساء تطلق على عموم الإناث سواءً كن متزوجات أو غير متزوجات، ويثبت ذلك قوله تعالى:

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: 23]

فسواءً تم الدخول بها أو لم يتم الدخول بها فهي إذاً تعتبر من مجموع النساء بغض النظر عن عمرها، ففرعون كان يقتل المواليد الذكور وكان يستحيي النساء، أليس كذلك؟ ولا أظن أن الذي كان يستحيهن فرعون كنّ جميعاً من المتزوجات، بل المواليد من الأنات كما أظن. أما ما يقابل لفظة النساء من الذكور فقد ورد في قوله تعالى ما يدل على ذلك:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: 11]

فمخاطبة مجموع الإناث سواء كن متزوجات أو غير متزوجات تتم باستخدام لفظة "نساء"، أما مخاطبة مجموع الذكور المتزوجين أو غير المتزوجين تتم باستخدام لفظة قوم.

| ذكر | أنثى | مفرد بغض النظر عن العمر أو الحالة الاجتماعية | الميراث |
|---|---|---|---|
| رجل | امرأة | شخص مفرد متزوج | الشهادة |
| رجلان | امرأتان | مثنى متزوج | الشهادة |
| رجال | !!! | جمع متزوج | الشهادة |
| قوم | نساء | جمع بغض النظر عن الحالة الاجتماعية | الغيبة/ السخرية |

لنخلص إلى القول أنّه بالرغم من قصور اللغة العربية عن إيجاد مفردة منفصلة لكل شكل من أشكال الكلمة في حالة الإفراد والتثنية والجمع إلاً أنّ ذلك لم يكن عائقاً أنّ يستخدم القرآن المفردة المقصودة في مكانها الذي لا يمكن لمفردة أخرى أنّ تقوم مقامها.

## فك عرى التلازم بين قواعد اللغة العربية والقرآن الكريم

وهنا يجب التأكد أيضاً على عدم خلط ما يسمى بالقواعد التي من وضع البشر مع ما ورد في كتاب الله، فتلك "القواعد" قلما تسلم من "الشواذ" والاحتجاج بها ربما لا يخدم القرآن كما ظن الكثيرون وادعوا، وأبسط ما يمكن أن نقدمه في هذا السياق مثال الأعراب لفعل العربية، فلقد أنهكتنا كتب قواعد العربية

بتفصيلات أقسام الفعل إلى الماضي والحاضر والأمر والتام والناقص، الخ. ولكن هل - يا ترى-يكون الفعل الماضي ماض وهل المضارع مضارع وهل الأمر فعلاً أمرا؟

ولتبسيط الطرح نورد الآية الكريمة التالية:

- ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١﴾ [البينة: 1]

ألم يطلب منا معلم العربية إعراب لم على أنها أداة جزم، و"يكن" فعل مضارع مجزوم؟ ولكن ألا يدل ذلك كله على حدث تم وانتهى؟ فأين المضارعة فيه كما يدل إعرابه؟

وكم تجادل الناس في قوله تعالى:

- ﴿... وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦﴾ [النساء: 96]

فهل ذلك فعل ماض تم وانتهى كما تدل صيغته؟ أي هل ارتفع وانتهى غفران الله ورحمته؟

وعندما نبتهل إلى ربنا بالدعاء:

- ﴿... رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة: 201]

فهل يعني ذلك أننا نأمر الله (حاشاه جل وعلى) كما يدل إعراب الفعل آتِنَا والفعل قِنَا ؟! فكم تلقينا من تعليم أن الفعل إذا جاء على صيغة "افعل" يدل على الأمر، فهل يدل حديث لقمان لابنه في موعظته الشهيرة على الأمر:

- ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: 17-19]

وكم تلقينا من توجيه في التذكير والتأنيث، فهل يمكن للسان عربي (حتى وإن كان غير مبين) أن يخطئ في جنس الشمس والقمر؟ أليس القمر مذكر والشمس مؤنث في اللسان العربي؟ وإن كان كذلك فكيف إذاً نقرأ قول الله تعالى على لسان إبراهيم:

- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ [الأنعام: 78]

لاحظ عزيزي القارئ كيف تم معاملة الشمس على أنها مؤنثة مرة " رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ " وعلى أنها مذكر مرة أخرى " هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ "

لقد شوهت مثل تلك "القواعد" معاني القرآن الكريم، لا بل وأخرجتها عن سياقاتها ومعانيها، ولا أزال أذكر ذلك الجدل مع معلمي يوم أنْ أمضى وقته الثمين وهو يحاول شرح قواعد "قد" في العربية، فقال بلهجة المتيقن (إن كنت لا زلت أستطيع أن أعيد صياغة كلامه): " تدخل "قد" على الفعل الماضي فتفيد التوكيد وعلى الفعل المضارع فتفيد التشكيك"، وأعطى المثال تلو المثال ليبين ما يقصد ويدعي، وعندما فاجأته بالآية الكريمة (بالطبع لم أكن أحفظ الآيات كما ترد هنا، ولم يكن النقاش بهذا التصوير البطولي الذي أقدمه لنفسي في هذه الأسطر، ولكن الفكرة الرئيسية هي ما تدور حوله هذه الأسطر بغض النظر عن الطريقة التي جرت بها آنذاك):

- ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: 63]
- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: 64]
- ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: 18]
- ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: 144]

فهل هذا يعني تشكيكاً بأن الله يعلم أو أن الله يرى؟ كان رده الوجوم والدهشة فأسكتني بالقول بلهجتنا الأردنية "ولك إنت شو بعرفك"، هذا قرآن وله تفسيراته المختلفة، وأهل العلم عندهم التعليل، لما كنت أنا لا أعلم - بشهادة معلمي- وجمت وخرست، ولما كنت لا أعلم أين هم العلماء الذين يتحدث عنهم لم استطع أن أسأل أحداً منهم، ولما كنت أقدر هؤلاء العلماء ما شككت أنهم فعلاً أصحاب علم. ولكني لم أعدم الظن حينئذ أنّ هذا القرآن قد نزل على أناس يتمتعون بصفات خارقة في الفهم والإدراك وأنا بالتأكيد لا أملك حتى النزر اليسير من تلك الصفات، فلِمَ أتدخل فيما لا يعنيني؟ فعلى أي حال فقد لقيت من معلمي ما لا يرضيني بكل تأكيد.

لا بل لقد شوهت تلك التمثيلات القواعدية للغة بعض الحقائق العقائدية التي يجب الحذر والتنبه لها، وهي بلا شك كثيرة وكثيرة جداً ربما نحتاج لكتاب كامل لسردها وتبيان خطورة ما تنطوي عليه، وأقدم هنا مثالاً واحداً على سبيل التوضيح لا غير.

فلعل الجميع أمضى جزءاً من وقته (غير الثمين بالطبع لأنه لم يكن لدينا شي آخر نعمله) في حصص قواعد اللغة العربية حول الممنوع من الصرف، وقدم جهابذة اللغة تفسيراتهم المبسطة للموضوع لتتماشى مع قدراتنا الذهنية كطلبة تكمن مهمتنا في تخزين المعلومات الثمينة التي نتلقاها يومياً في مدارسنا (ولا أظن أن لنا الحق أن نتدبرها، فكما يقولون باللسان الأعجمي فإن مهمتنا في أحسن الأحوال كانت CHEWING THE OLD GUM)، وتولى المعلمون الأفاضل واجب نخرها في عقولنا إن لم يكن بالمعروف فبالعصا، وأول ما فرض علينا هو معرفة أنّ الممنوع بالصرف يجر بالفتحة نيابة عن الكسرة ولا ينون (أي لا تدخل

عليه علامة التنوين)، وعندما حاولت سؤال معلمنا عن سبب ذلك، كان جوابه الجاهز هو : "تعلم اللغة كما هي، هكذا وردت على لسان العرب"، وعندما سألته عن العرب، فرد عليّ بالقول أنهم نوعين: العرب العاربة الذين من سلالة عدنان وقحطان وغسان، والعرب المستعربة الذين من سلالة إسماعيل ولد إبراهيم عليهم السلام، ولم يمضي وقت طويل حتى استنتجنا (بعد جهد ذهني خطير بالطبع) أنّ أباء العرب جميعاً (عاربة ومستعربة) ممنوعون من الصرف، فلا إسماعيل ولا عدنان ولا قحطان ولا غسان يصرفوا، فيا سبحان الله!!

وتبين لنا أنّ فكر جهابذة مقعدي اللغة خلص إلى أن الاسم الذي ينتهي بألف ونون لا يصرف والاسم الأعجمي لا يصرف كذلك، وكطلاب أخذنا تطبيق تلك القواعد على المفردات الجديدة، فعلمنا أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ممنوعة من الصرف لأنها أسماء أعجمية، ولكن تخالجني سؤال غريب لم أستطع البوح به آنذاك لأني – كما شهد لي معلمي سابقاً - لا أعرف شيئاً، وذلك أمر يتطلب عقولا كبيرة جداً كعقول كسيبوية والخليل ومعلمي ذاك، الخ. وكان مفاد السؤال على النحو التالي: ماذا عن نوح عليه السلام؟ فهل نوح أسم عربي حتى يصرف؟ ولم لا يصرف إذاً آدم؟ من منهم عربي ومن منهم غير عربي؟ النتيجة العملاقة التي توصلت إليها بمساعدة قواعد اللغة العربية غاية في الذكاء: آه، آدم غير عربي ونوح عربي والدليل بلا شك ما يصرف وما لا يصرف، يا سبحان الله لقد قدمت حلاً جذرياً لجينات العرب الوراثية، هم إذاً ليسوا من نسل آدم بالتأكيد: فهو ممنوع من الصرف؟ ولكنهم قد يكونوا من نسل نوح: فهو ممنوع من الصرف؟ ولكني تراجعت بعد أعوام عن هذا الاعتقاد (أي أن العرب من سلالة نوح) يوم قرأت في كتاب الله الآية التالية:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: 33-34]
- ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: 2-3]

لتبيّن لي أنّ بني إسرائيل هم من ذرية نوح وليس نحن العرب، واستنتجت كذلك أن التوزيع الذي قدمه بعض الشارحين لآلهة قوم نوح هو محض هراء، انظر ما جاء في ابن كثير:

"وَهَذِهِ أَسْمَاء أَصْنَامهمْ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُون اللَّه قَالَ الْبُخَارِيّ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم حَدَّثَنَا هِشَام عَنْ اِبْن جُرَيْج وَقَالَ عَطَاء عَنْ اِبْن عَبَّاس صَارَتْ الْأَوْثَان الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْم نُوح فِي الْعَرَب بَعْد : أَمَّا وَدّ فَكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدُومَة الْجَنْدَل وَأَمَّا سُوَاع فَكَانَتْ لِهُذَيْل وَأَمَّا يَغُوث فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْف بِالْجُرْفِ عِنْد سَبَأ أَمَّا يَعُوق فَكَانَتْ لِهَمْدَان وَأَمَّا نَسْر فَكَانَتْ لِحِمْيَر لِآلِ ذِي كَلَاع ..."

فالعرب المستعربة هم من ذرية نوح، أما العرب العاربة فهم – حسب رأى علماء التشريع – ليسوا من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم الذي هو من ذرية نوح، فمن أين جاءوا يا ترى؟! الله أعلم.

ولندع هذا الحديث جانباً لنثير سؤالاً غاية في الخطورة لما يترتب عليه من مغالطات، فلقد أكد مقعدي اللغة العربية – وسار الناس على نهجهم قروناً من الزمن- أن الاسم الأعجمي (أي من غير الأصول

العربية) لا يصرف، وصدقنا بذلك حكاية عدم صرف يوسف و يعقوب وإسحق وإسماعيل وإبراهيم، فهم جميعاً عائلة واحدة، ولكن ألم يكن لوط أعجمياً كذلك، ألم يخرج مهاجراً مع إبراهيم يوم رفض قومه إتباع منهجه ودينه الجديد:

- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت: 24-28]

يا سبحان الله!! هاجر لوطٌ مع إبراهيمَ " فصرف لوطٌ ولم يصرف إبراهيمُ"! فأيهما أعجمي وأيهما غير أعجمي، ربما أنّ لوطاً الذي كان قد هاجر مع إبراهيم قد سماه أبواه اسما عربياً كما يفعل العرب اليوم عندما يسمون أبناءهم John, و Henry و Mike ، من يدري!!!

المهم بالموضوع أنّنا ننفق على مثل هذه الهراء الجهد والمال لتمريرها لأجيالنا، ونجبرهم على أخذها على أنها حقائق وثوابت يحرم التلاعب بها أو حتى إثارة التساؤلات حولها، واسمحوا لي أن أخرج عن النص بعض الشيء لأقول "إنها لا تساوي ثمن الحبر الذي كتبت به ناهيك عن الورق الذي كتبت عليه"

## الفصل بين الكتاب والقرآن

إنّ النقاش السابق يدعونا إلى التفريق بين ما هو قرآن (من عند الله) وما هو ليس بقرآن من وضع البشر، ولمّا كانت الحالة كذلك كان لزاماً جلب انتباه القارئ الكريم إلى الآيات القرآنية التالية:

جاء في سورة آل عمران الآية (61) قوله تعالى:

- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: 61]

وجاء في نفس السورة الآية (87) قوله تعالى:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [آل عمران: 87]

ومراد القول هو تدقيق ما تحته خط في الآيتين السابقتين " لَّعْنَتَ ٱللَّهِ" و " لَعْنَةَ ٱللَّهِ "، وسؤالنا هو: لِمَ اختلف الرسم القرآني في الحالتين؟ فإذا كان قد نزل كذلك من عند الله فلم تبدّلت اللفظة نفسها (مرة

بالتاء المفتوحة ومرة بالتاء المربوطة) ونفس المنطق ينطبق على قوله تعالى في المائدة الآية الحادية عشر والآية العشرون:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ [المائدة: 11]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠﴾ [المائدة: 20]

ولو طلبنا من أي متعلم للغة عربية كتابة كلمة امرأة لكتبها بالتاء المربوطة ولكن لو قرأنا في آخر سورة التحريم لوجدناها على النحو التالي:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾ [التحريم: 10-11]

**السؤال**: هل - يا ترى- هذا الاختلاف هو من المصدر الذي جاء منه، أي هل كتب الله القرآن على تلك الشاكلة، مرة بالتاء المفتوحة ومرة أخرى بالتاء المربوطة حتى لنفس اللفظة، و لربما بادرنا من يشكك بهذا الكتاب بالقول ربما أن ربكم لم يتقن بعد قواعد التاء المربوطة وقواعد التاء المفتوحة، فهو لا زال لا يتقن التفريق بينهما!!

إن المخرج من هذا الكلام هو بسيط للغاية، وهو ما أوردناه سابقاً والمتمثل في زعمنا بأنّ القرآن لم ينزل مكتوباً في الألواح مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: 7]

ولنستذكر كذلك أنّ الذي خط القرآن الكريم على الرقاع هم البشر (كتبة الوحي) وأنّ النبي نفسه لم يكن يعرف الكتابة بخط يمينه:

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت: 48]

عندها ربما يزول الإبهام ويفهم التباين في الرسم، ولكن كيف؟

**رأينا**: فكما ذكرنا سابقاً لقد تعلم كتّاب الوحي خط اللسان العربي من مصادر مختلفة، فلربما كان يكتب زيد التاء مفتوحة وكان يكتبها معاوية مربوطة، الخ. وعندما تم جمع القرآن أخذت آية التاء المربوطة من رقاع معاوية وأخذت آية التاء المفتوحة من رقاع زيد وهكذا.

**افتراء خطير جداً جداً**: لهذا نحن نتجرأ على البوح بأن الرسم القرآني ليس إلهياً، وهو لا يحمل صفة القدسية التي ظن الكثيرون أنها ملازمة له، وعندما تم إضافة التشكيل والتنقيط ورموز الوقف والتجويد أدخل على القرآن ما لم يكن فيه فزاد فيه الطابع البشري، ولعل هذا يفسر قرار عثمان (رضي الله عنه) بإتلاف المصاحف التي كانت موجودة آنذاك، فلقد رأى عثمان أنّ من الأولى أن تجمع الأمة على رسم واحد للمصحف، فلربما كان التباين في الرسم القرآني في المصاحف كبيراً فجاء قرار عثمان بالتخلص من الطابع البشري المتباين في الرسم القرآني.

نستنتج إذاً أنّ ما هو مكتوب بين دفتي المصحف هو الترميز البشري لما نزل من خبر السماء، فهو ليس قرآناً، سميه ما شئت ولكن لا تقل أنه قرآناً من عند الله.

## تبعات هذا الإدعاء

1. عندما أعتقد الكثيرون أنّ هذا المكتوب على الورق إلهياً، حرّموا لمسه على الحائض والنُفساء والجُنب متسلحين بقوله تعالى:

- ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة: 77-79]

وهم لا يفرّقون أصلاً بين المطهّرين والمتطهّرين الذين سنتعرض للحديث عنهم لاحقاً

2. ظن الكثيرون بدعم جواز لمسه من قبل الكفار، هذا مع العلم أن عدداً كبيراً من الكفار (لا شك يملكون في بيوتهم وفي مكتباتهم نسخاً منه

3. حزن الكثيرون لامتهان الكافرين هذا المكتوب على الورق بحرقه وتمزيقه وحتى إلقاءه مع القمامة، وكلنا يذكر الحفلات التي أقاموها لإحراق وتدنيس هذا الكتاب، فتباكت الأمة على ذلك وقامت الدنيا ولم تقعد في حين أننا نحن المسلمون نقوم بحرق نسخ القرآن المكتوبة في حالة تلفها.

4. يغضب الكثيرون عندما يرون ورق الجرائد التي تحتوي على آيات من كتاب الله ملقاة مع النفايات

5. يقوم الكثير من المسلمين (خصوصاً في بلاد الشام ومصر) بتقبيل النسخة من القرآن المكتوب عندما يمسكونها بأيديهم للتلاوة

6. يسيء الكثيرون فهم الآية القرآنية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]

فلو كان الحفظ كما يظن البعض يشمل الرسم البشري للقرآن الكريم (أي النسخة المكتوبة على الرقاع والورق)، فلم يسمح الله بكل ذلك الامتهان لكتابه، فلقد ظن الكثيرون أن الحفظ يعني الحفظ من التحريف والتبديل، ولكننا نقول أنّ الآية الكريمة تعني الحفظ غير المشروط فالله نزل الذكر وهو سيحفظه

من كل شيء ولا يستطيع أي بشر تدنيسه؟ فما الذي تعهد الله بحفظه؟ وما هو الذي لا يمكن أن يمسه إلا المطهرون؟ الجواب بكل بساطة هو ليس الرسم البشري للقرآن الكريم بكل تأكيد، فما هو إذاً؟

**افتراء من عند أنفسنا**: إنه الذكر وهو القرآن الكريم وهو الكتاب المكنون؟ وهذه ليست مفردات مختلفة لشيء واحد بل هي تسميات لأشياء متعددة مختلفة، ولنبدأ بها الواحدة تلو الأخرى:

## القرآن الكريم

لعل القليل يجادل بأن كلمة قرآن مأخوذة من مادة القراءة، وفعلها قرأ، فالشيء المقروء يختلف عن الشيء المكتوب بكل تأكيد، فنحن نكتب كلمة صلاة في الرسم القرآني على نحو "صلوة" ونقرأها صلاة، ونكتب "الم" ونقرأها (ألف لام ميم) في بداية البقرة وآل عمران والروم ونقرأها (الم) في بداية الانشراح، فنحن إذاً نكتب شيئاً لا نقرأه "كما في مثال صلواة و زكوة، ونقرأ شي ليس مكتوباً في كما في مثال "الم" في بداية البقرة.

إننا نظن أن القرآن الذي نزل على محمد لا يوجد به هذه الإشكاليات لأنه نزل مقروءاً وليس مكتوباً فنزلت الصلاة صلاة، والزكاة زكاة، وألم الم، وألف لام ميم إلف لام ميم، بغض النظر عن طريقة رسمها على الورق من قبل كتبة الوحي.

فجل القول أن الذي نزل على محمد نزل منطوقاً ولم ينزل مكتوباً، قال تعالى:

- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: 7]
- ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت: 48]

فالله لم ينزل على نبيه إذاً كتاباً في قرطاس يمكن لمسه بالأيدي، والذي تعهد الله بحفظه هو المنطوق وليس المكتوب، قال تعالى:

- ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ۝٤٩﴾ [العنكبوت: 49]

فقل لي بالله عليك هل يستطيع أبناء القردة والخنازير إذاً تدنيس ما تعهد الله بحفظه (الآيات البينات التي في صدور الذين أوتوا العلم) أي النص المنطوق (وليس المكتوب) من القرآن الكريم؟ كلا وألف كلا.

فحتى لو أحرق الذين كفروا النسخ المكتوبة من القرآن الكريم، فهل يستطيعون إحراق ما هو موجود في صدور المؤمنين؟ ولو دنسوا الرسم البشري لكتاب الله فهل يستطيعون تدنيس كلماته المنطوقة؟ وحتى لو أحرقوا كل النسخ الموجودة على وجه الأرض فهل يستطيعون إحراق حفظة كتاب الله؟

**تخيلات من عندي**: لو كنت أملك ميزانية جيدة لذهبت وشاركتهم احتفالهم بحرق النسخ المكتوبة من المصحف الشريف، ولأخذت معي بعض النسخ التالفة وألقيتها معهم في النار، ولكني كنت – بكل تأكيد-

سأسألهم بعد ذلك سؤالاً واحدا: هل يستطيعون إحراق رأس ابنتي التي لا تتجاوز من العمر ثلاث سنوات وهي أصبحت تحفظ فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص؟

الجواب: فإن أحرقوا السطور لن يستطيعوا إحراق الصدور.

## لا يمسه إلا المطهّرون: الكتاب المكنون

فلقد أعتقد البعض كما أسلفنا بعدم جواز مس المكتوب في السطور من القرآن الكريم من قبل الحائض والنفساء والجنب والكافر، متسلحين بقوله تعالى:

- ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة: 79]

ونحن نظن بخطأ اعتقادهم لسببين: أولهما، أنهم لم يدركوا ما هو الشيء الذي لا يسطيع مسه إلا المطهرون، وثانيهما أنهم أخطئوا بالمقصود من الاستثناء في قوله تعالى "إلا المطهرون"، ونثير هنا تساؤلين أثنين:

1. ما هو الشيء الذي لا يمكن أن يمسه إلا المطهرون؟
2. من هم المطهرون الذين يستطيعون مس ذلك الشيء؟

إنّ تدبر الآية الكريمة نفسها في سياقها الأوسع يزيل الإبهام بلا شك، قال تعالى

- ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة: 77-79]

فالضمير المتصل في فعل "يمسه" يمكن فهمها على وجهين لا ثالث لهما:

1. أنها تعود على القرآن الكريم
2. أنها تعود على الكتاب المكنون

ومهما كان التأويل فهي بكل تأكيد لا تعود على النص الذي رسمه البشر للقرآن الكريم، فإذا كانت تعود على القرآن الكريم فهي إذاً تعود على النص المنطوق الذي نزل به جبريل على النبي محمد وبذلك تتأكد استحالة أن يستطيع مسه البشر، أما ما رسمه كتبة الوحي للقرآن الكريم فهو ليس قرآناً كما أسلفنا، ولا ضير – برأينا- أن تلمسه الحائض والنفساء والجنب وحتى الكافر، فنحن نعلم أنّ كل مكتبات الغرب يوجد بها نسخ للقرآن الكريم حتى باللغة العربية وقد تقع تلك النسخ بيد الأجنبي الكافر والجنب أو الحائض في آن واحد فهل يعني ذلك أنه قد مسه وانتفت بذلك صدق الآية الكريمة التي تؤكد عدم قدرة غير المطهرين عن لمسه؟!

ومن ثم ما الإشكالية أن تلمس الحائض أو النفساء المصحف الذي هو من كتابة البشر لتقرأ فيه؟ ألا تكون في ذلك الوقت في أشد أوقاتها حاجة أن تقرأ في كتاب الله؟ لم تمنعوها عن لمس النص الذي كتبته

أيدي البشر وتسمحوا لها بقراءة كلماته دون مسه؟. فهل فعلا لمست القرآن الكريم أو حتى لمست الكتاب المكنون؟

ثم من هم المطهرون الذين يستطيعون هم فقط مس القرآن الكريم أو الكتاب المكنون؟ فهل أحد من البشر مطهر؟ إن استدعاء السياقات القرآنية التي تتحدث عن المطهرين تتجلى منها الحقيقة الثابتة أنهم ليسوا من البشر الذين يقطنون وجه الأرض، قال تعالى:

- ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: 25]
- ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران: 15]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء: 57]
- ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: 13-16]

والدقة تستلزم الانتباه أن الله عندما رفع عيسى من الأرض جاء قوله على النحو التالي:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥﴾ [آل عمران: 55]

أما البشر على الأرض فهم "متطهّرون وليس مطهّرون"، قال تعالى

- ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة: 108]
- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

فالحائض ليست النقيض للمطهرة وإنما هي النقيض للمتطهرة، والله لم يمنع بذلك الحائض أو النفساء أصلاً من مس بالمصحف، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بأمر المس. فكل البشر رجالاً ونساء متطهرين أو جنبا لا يستطيعون المس بالنص المقروء من القرآن الكريم وهم لا يستطيعون كذلك مس الكتاب المكنون. أما النسخة البشرية التي رسمها البشر بالخط العربي للقرآن الكريم فهي من شأن البشر أنفسهم، ونحن نظن أن الله لم ولا ولن يمنع البشر أن يمسوا ما كتبوا هم بأيديهم. وإنما جعل من المتعذر عليهم لمس ما كتب هو بنفسه (الكتاب المكنون) وما أنزل على نبيه منطوقاً (القران)

## الرقية والمشعوذين

وإذا كان هذا المكتوب على الورق هو من رسم البشر فهو ليس قرآناً، وبهذا لا يكون فيه شفاء للناس، قال تعالى:

- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82]

فلقد درج بعض الدجّالين (وحتى من أصحاب العمائم البيضاء والسوداء)، نقول قد درجوا على كتابة بعض التمائم وإعطاءه للناس بدافع التطبب والتشافي، وهم بذلك لا يرعون في مؤمن إلاّ ولا ذمة واستغلوا جهل الناس بكتاب الله، حتى أصبحت تجارة رائجة عند الكثيرين (وإن كنت لا تصدقني فقلب بنفسك فضائياتهم التلفزيونية لترى ما يسوقونه للناس):

- ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: 9-10]

فتنقسم الآن شاشة فضائياتهم لتبيع في شقها الأيمن مستحضرات تكبير القضيب وتكبير الثديين وشد الأفخاذ، الخ، بينما يتابع الجزء الأيسر من الشاشة قراءة الأعراف والكهف وطه، الخ)

فنقول لهؤلاء ولمن ظن بصدق دعواهم أنّ ما يكتبوه ليس قرآناً، والقرآن الكريم – في ظننا- منهم براء، فهم يكتبون بأيديهم ويرسمونه كما يحلو لهم ويدّعوا أنه قرآنا من عند الله:

- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: 79]

إنّ الرقية الشرعية من القرآن الكريم لا تكون إلا بالقراءة لأن القرآن مقروءاً وليس مكتوباً، ومتى كتب على الورق لم يعدوا أكثر من رسم بشري لآياته ولا يمكن أن يكون ذلك الرسم صحيحاً، فهو كذلك الرسم القرآني الذي يطلبه معلم التربية الإسلامية في الامتحان من طلابه في سؤاله التقليدي

أكمل قوله تعالى من ..... إلى قوله تعالى ........

فهل يا ترى ما يكتبه الطالب في ورقة الامتحان على علاّته النحوية والكتابية والتشكيلية والرسمية (كما أفعل أنا في كتاباتي) يكون فعلاً قرآناً؟ كلا وألف كلا.

فليتقي هؤلاء الدجّالين الله في الناس، وليفهم الناس حقيقة الأمر فلا يقعوا ضحية لمن ادعى وظن أنه علم شيئاً من كتاب الله، فأصبح يظن أنه قد أصبح على علم من الله، فتاجر به واشترى به ثمناً قليلاً، وهو لا زال في حاله مثلي يجهل حتى أبجديات كتاب الله.

وليراجع هؤلاء كيف كان يرقي النبي عليه الصلاة وأتم السلام نفسه، فهل حدث وطلب يوماً من كتبة الوحي إحضار رقعة مرسوم عليها شيئاً من كتاب الله ليضعها تحت رأسه في نومه أو يعلقها على صدره الشريف في يقظته أو يجعل منها شيئا في طعامه وشرابه؟

وقد يبادرنا البعض بالقول: إنك تدعي إذاً أن القرآن الكريم ليس مكتوباً إطلاقاً ويستحيل كتابته من بني البشر، أليس كذلك؟ فنقول نعم يستحيل على بني البشر كتابة القرآن الكريم، ومتى كتب لا يعدو أكثر من رسم بشري لكلمات الله، وليس بالضرورة أن يكون ذلك الرسم صحيحاً، فنحن نعلم أنه قبل إدخال التنقيط والتشكيل على النسخة المكتوبة للرسم القرآني كانت المفردة التالية ترمز لأكثر من شيء:

ك ت ب

فهي تمثل كتب في قوله تعالى:

- ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 2]

وهي تمثل في قوله تعالى

- ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ [البقرة: 180]

وهي تمثل في قوله تعالى

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

وقد أقرها النبي على ما هي عليه في بادئ الأمر، ونسخت في المصاحف الأولى كما هي، وأقرها مصحف عثمان في رسمه النهائي، فهل يا ترى كل تلك الكلمات كانت عند الله على تلك الشاكلة؟ وهل عندما أدخل التنقيط والتشكيل تم تصحيح تلك الكلمات على الشاكلة التي هي عليها في اللوح المحفوظ؟

ولعل القارئ قد فهم من كلامي هذا أنّ القرآن مكتوب عند الله، فنقول نعم هو مكتوب عند الله ولكنه ليس كما هو بين أيدينا، فهو منطوق عند الله كما ننطقه ولكنه مكتوب عند الله على نحو مختلف عن بين أيدينا، ففي لفظه هو قرآن وأما في رسمه فهو ليس بقرآن.

فالله سبحانه لم ينزل على محمد القرآن مكتوباً بل نزّله منطوقاً، وهذه حقيقة لا يمكن أن يجادلنا بها أحد، فنسأل من يتشكك بكلامنا هذا سؤالاً ملخصه: لو فعلاً نزل القرآن من عند الله مكتوباً هل يمكن أن يكون رسمه كما نراه على الورق الآن؟ وهل كانت الحاجة ستستلزم في فترات تاريخية متفاوتة إدخال التعديلات والإضافات على رسمه؟ كلا، إننا ندعي أنه سيكون منذ لحظته الأولى كاملا لا يستلزم إجراء أي

تعديل عليه، فهل يا ترى جرى تعديل على لفظ القرآن الكريم؟ الجواب لا، والسبب بسيط لأنه نزل منطوقاً فما تغير اللفظ بتغير عامل الزمن، أما الكتابة (الرسم) فقد عدلت وتبدلت مع مستلزمات الزمن.

وقد يرد البعض بالقول وهل كان من الممكن أن ينزل القرآن الكريم منطوقاً ومكتوباً في آن واحد؟ فنقول نعم لو لقضت حكمة الله بذلك، ولنتدبر الآية الكريمة التالية التي تثبت أن ألله قد ينزل كلماته مكتوبة كما أنزلها منطوقة، قال تعالى:

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 145]

وهذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ موسى عاد يحمل بيديه ما كتبه الله له في الألواح، فقضت حكمة الله أن يتلقى موسى الرسالة مكتوبة وأن يتلقى محمداً الرسالة منطوقة، ولذا تستلزم الدقة تدبر الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: 36-37]

فقد كان يملك موسى وإبراهيم صحفاً، وملك محمد قرآناً، واتينا داوود زبورا:

- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 105]

نستنتج من السرد السابق أنّ تلك الكتب نزلت مكتوبة، ونزلت رسالة الإسلام مقروءة، وقد يبادرنا البعض بالسؤال عن الحكمة في ذلك، فنقول لعلنا نظن أنّ السبب واضح وهو: ما عملناه نحن بالرسم القرآني عملته الأمم الأخر بالرسم الإلهي لكتبهم: وهو التحريف والإضافة عليه؟ فنحن قد أضفنا وزدنا في الرسم القرآني وهم قد أضافوا وزادوا على الرسم الإلهي لكتبهم، ولكن الفرق بيننا وبينهم أنه في حين لم تكن رسالتهم منطوقة اختلفوا في نطقها فأضافوا وبدلوا في النطق أيضاً فتحرفت رسالتهم كتابة ونطقاً وضاعت معها حتى لغتهم، فمن من البشر لا زال ينطق بلسان إبراهيم؟ ومن من البشر لا زال ينطق بلسان موسى؟ ومن من البشر لا زال ينطق بلسان داوود؟ ولكن كم من البشر لا زال يستطيع أنْ ينطق بلسان محمد عليه وعلى جميع رسل الله أفضل وأتم السلام؟

نعم لقد تحرفت رسالتنا كما تحرفت رسالتهم كتابة ولكنها لم تتحرف نطقاً، وقد تعهد الله بحفظ هذه الرسالة ليس كتابة (أي صحفاً) وإنما نطقاً (أي قرآناً).

وقد يبادرنا البعض بالسؤال التالي: ألم يقرأ أنبياء الله السابقون تلك الصحف لأقوامهم؟ نقول نعم لقد فعلوا، فيرد صاحبنا بالقول لقد كانوا إذاً يحفظون تلك الصحف كتابة وقراءة؟ فنقول كلا، لم يكونوا يحفظونها قراءة بل كتابة، فيرد صاحبنا بالقول وكيف ذلك؟ فنرد بالآية التالية من كتاب الله:

- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة: 5]

نعم كانت صحفهم على ظهورهم، فلم يكونوا هم أكثر من حمير تحمل أثقالاً لا تعي ما تحمل، ولا تفهم لم تحمله، ولما طال بها حمله على ظهورها اختلفت فيه، قال تعالى:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝١٧٦﴾ [البقرة: 176]

فتباينت ألسنتهم وضاعت لغتهم وتحرفت شريعتهم، فتفرقوا شعوباً وقبائل، كل حزب بما لديهم فرحون.

أما نحن فقد كان قرآننا منذ اللحظة الأولى في صدورنا، وليس في الصدر أثمن من القلب الذي هو موطن الإدراك ومكان التميز، فعرفت هذه الآمة كم هو ثمين ذاك الذي في صدرها فحفظه أبناءه من أول حرف إلى آخر حرف فيه، ولا يكاد مسلم على وجه البسيطة (حتى وإن كان معاقراً للخمر متخذاً أخدان) إلا ويحفظ شيئاً من كتاب الله.

والسؤال الذي نعود البحث فيه هو: "أين يكمن العلم الحقيقي؟" وما السبيل إلى استكشافه؟ إنّ جلّ النقاش السابق يفضي إلى هذه الأسئلة. وهو ذروة البحث ومقصده، ولا شك أنّ ما سنقحم أنفسنا فيه غاية في الخطورة لما قد يترتب عليه من نتائج. فالجواب على التساؤل الأول بمفهومنا بسيط وقد سبق ذكره وهو أنّ المعرفة كلها تكمن في كلام الله، ولكن السؤال الذي يعنينا هو إن صح هذا الافتراض فإننا بحاجة إلى السبيل للوصول إلى تلك المعرفة ومن ثم إثباتها عملياً لتصبح منهاجاً للتفكير العلمي الديني؟

وغاية ما نطمح إليه هو أن يصبح هذا التصور طريقة جديدة في البحث العلمي، الطريقة التي تجمع بين العلم المادي والإيمان العقائدي المستند على مصدر التشريع الإسلامي الأول وهو كتاب الله.

فنحن بحاجة إلى الطبيب الذي لا يدخل المسجد بفكر ويخرج منه بفكر، فلا نريد الطبيب المسلم أن يسمع كلام الله

- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ۝٨٢﴾ [الإسراء: 82]

ثم يذهب إلى العيادة فلا يؤمن إلا بعقاقير الـ و الـ..، الخ.

وهل نحن بحاجة إلى عالم الفلك المسلم الذي يدخل المسجد فيسمع كلام الله:

- ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ۝١٨﴾ [الحجر: 16-18]

ثم يذهب إلى غرفة الصف فلا يتحدث عن هذه الشهب إلا ضمن قانون الجاذبية الذي ابتدعه "نيوتن" ولا يؤمن بالقانون الإلهي الموجود في كتاب الله سوى أنّه اعتقاد ديني يصعب عليه تصديقه ويخجل أنْ يكذبه؟

ونحن بحاجة إلى العالم المسلم المتخصص بعلم الوراثة الذي يؤمن

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: 26-27]

فلا يجد في نفسه حرجاً أنْ يبني كل تفكيره العلمي على هذه الحقيقة القرآنية.

ونحن لسنا بحاجة عالم التاريخ الذي يقرأ في كتاب الله عن عاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وعن هامان وقارون وفرعون ثم يعود فلا يكتب إلا ما دونته كتب التاريخ الإنساني.

ونحن كذلك لسنا بحاجة لعالم الآثار الذي لا يؤمن بما جاء في كتاب الله عن تلك الأقوام البائدة في دراساته وكتاباته العلمية، ليستند على وثائق واختبارات وما كتب على حجارة وجدران وينسى ما كتب في اللوح المحفوظ، ألم يقل الله

- ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: 10]

ونحن كذلك لسنا بحاجة لرجل الحرب ومخططها الذي يقرأ في كتاب الله كيف أُستخدم الريح، أو المطر، أو الحجارة في هلاك أمم بأكملها ثم لا يكون في فكره أكثر من مهمة استيراد السلاح من العدو الذي لن يعطيه إلا ما أكل عليه الدهر وشرب، فهل فكر يوماً بأنّ الريح قد تكون أقوى من قنابل الغرب ومتفجراته؟ وهل فكر بأن المطر قد يكون نعمة في حربه مع أعدائه؟ وهل آمن بأن الصيحة قد تكون أشد ردعاً من القنبلة النووية؟ ألم يقرأ في كتاب الله؟

- ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ [ص: 15]
- ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات: 41-44]

ولو قرأ مخططو السياسات العسكرية سورة القمر وآمنوا بما فيها وعملوا في البحث عن وسائل الحرب فيها، لكنّا الآن في مأمن من كل التهديدات العسكرية التي تحاك ضد هذه الأمة.

ونحن كذلك لسنا بحاجة إلى التربويين ودعاة حقوق المرأة الذين يقرؤون ليل ونهار آيات الله:

- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: 34]

- ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: 11]

ثم يذهبوا لينشروا كتاباتهم التي تدافع عن الإسلام وعن القرآن وكأنه متهم، ولسان حالهم الاعتذار وإن لم يقولوها صراحة، وكأن غيرهم من أخوان القردة والخنازير هم من أعطى المرأة حقها وحرر الجنس الأسود من العبودية.

ونحن لسنا بحاجة إلى أصحاب وصاحبات القرار السياسي الذين يظهرون في برامج تلفزيونية وإذاعية للمفسدين والمفسدات ليعطلوا آيات الحجاب ويقدموا الفتاوى على أنّ الحجاب ليس أكثر من عادة اجتماعية أكل عليه الدهر وشرب، ولسان حالهم يقول لأسيادهم من إخوان القردة والخنازير أعذرونا نحن مثلكم نؤمن بالتحضر والتمدن والسفالة.

ونحن لسنا بحاجة لعالم الاجتماع الذي يقرأ في كتاب الله.

- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ [البقرة: 65]

ثم يذهب إلى غرفة الصف فلا يتجرأ حتى أن يضع هذا الموضوع للنقاش، ويعتبره (إن آمن به أصلاً) أمراً حصل فقط في السياق الديني ولا علاقة لذلك بل العلم إطلاقاً.

ونحن – ونحن – ونحن

إننا لا نزيد القول لهم جميعاً عن ما جاء بحقهم في كتاب الله:

- ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [يونس: 39]

والسؤال الذي أود أنْ أطرحه هنا هو: أليس هذا هو فصل الدين عن العلم؟ وهل ظن الناس أنّ موضوع فصل الدين عن الدولة يعني عدم تطبيق حفنة من القوانين والشرائع السماوية؟ أليس هذا كما ذكرنا سابقاً هو الانفصام للشخصية، انفصام بين ما يؤمن به الشخص في المسجد والبيت وخلوته وما يؤمن به في مختبره ودرسه وعلى الملأ من بني جلدته؟ ألم يقرأ هؤلاء قول الله تعالى؟

- ﴿... أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥﴾ [البقرة: 85]

وأيّ خزي أكبر من ذلك الخزي الذي أصاب هذه الأمة يوم أنْ تركت منهجها القرآني واتبعت المنهج الغربي في البحث العلمي وتناسوا ما جاء في كتاب الله:

- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: 44]

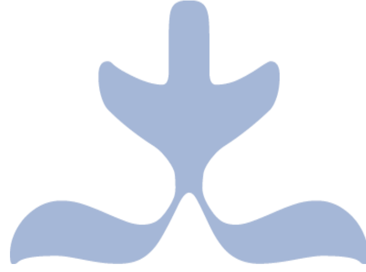
وحتى المسلم الحسن فقط يؤمن بما في كتاب الله تعالى، ولكن عندما يأتي ذكر هذه الأمور السالفة الذكر كالتي درج الناس على تسميتها بالمعجزات (ونسميها نحن كما وردت في كتاب الله بالآيات وبالبينات) – لا يزيد أنْ يعتبرها أكثر من أمور خاصة جداً غير قابلة للتطبيق إطلاقاً، وحتى قد يصل الأمر إلى درجة أن تخالج البعض أفكار قد تلقي بظلال الشك على بعض هذه الأمور، فإذا ما ذكرت قصة "الخضر" مثلاً وأصبح هناك جدل بين ذلك المسلم الحسن إسلامه وبين ذلك المحاور في آيات الله، وجدت الإنسان المسلم يحاول التهرب من هذه المواضيع، ولسان حاله كأنة يعتذر عنها، ولا نجد أنه مدافع مؤمن بكل حرف فيها، فقد ينظر إليها بعض ضعاف الإيمان على أنها نقاط ضعف في الدين، وكم من مسلم ممن يظنون أنهم أصحاب عقول ذكية، أخذتهم هذه الأمور إلى الطرف الآخر، ليكونوا هم المدافعين عن العلمانية، فغرتهم عقولهم لأنها لم توصلهم إلى طريق الحقيقة المنشود. فهذه العقول قد استهوتها شبه أكذوبة أصبحت لديهم من المسلمات، وهي ما سمي بالطريقة العلمية للبحث العلمي، وعلى أي حال لا أود أن أدخل في جدلية قد لا تفضي إلى شيء، ولكن أود أنْ أجلب انتباه القارئ إلى سؤال واحد وهو: ما الذي أفضت إليه هذه الطريقة في مجال العلوم المختلفة؟ هل استطاعت تلك الطريقة أن تحل ولو جزءاً بسيطاً من لغز هذا الكون. إن المعرفة الإنسانية التي تراكمت حتى باستخدام الطريقة العلمية لا تشكل حتى نزراً يسيراً جداً مما يطمح إليه الخيال العلمي، فهل ما أنجز مثلاً في مجال الانتقال والاتصال يقارن بما كان ميسراً لسليمان عليه السلام؟ وهل ما أنجز مثلاً في مجال الطب يشكل شيئاً مما كان ميسراً لعيسى عليه السلام؟ وهل ما أنجز مثلاً في مجال علم الاجتماع يمكن أن يقارن بما كان ميسراً للخضر أو للقمان؟

إنّ جل ما تفعله الطريقة العلمية في مجال الطب مثلاً أن يخضع عدد من الناس للتجربة فتحقن مجموعة من المرضى بدواء ما ومجموعة أخرى ضابطة لا يحقنون بذلك العقار، فإذا كانت نسبة الشفاء بين الذين أعطوا العقار أعلى من نسبة من لم يعطوا ذلك العقار توصل الباحث إلى نتيجة مفادها أنّ ذلك العقار ملائم لعلاج لذلك المرض. أليس هذا ما يحصل؟ فلم لا نبدأ نحن المسلمين بذلك؟ فلم لا نأخذ عينة منهم ونجرب آيات وكلام الله"؟ ألم يقل الله تعالى "وننزل من القرآن ما هو شفاء"؟ فإذا كانت النتيجة بين أولئك الذين سمعوا كلام الله أفضل من النتيجة على العينة الذين لم يسمعون كلام الله، فلِمَ لا نصل إلى نتيجة مفادها أنّ كلام الله هو شفاء؟ ولا تظن أنّ هذا الأمر يتم على أيدي الدجالين والمشعوذين، بل نحن نطالب بأنّ يكون ذلك مؤسساً على منهجية علمية موثقة ومكتوبة وقابلة للتجريب والاختبار والنقاش، ولو بدأنا بتنفيذ ذلك، فلا يمكن أنْ تتخيل الكم الهائل من الأبحاث العلمية الدينية التي قد تناقش حتى الفكرة الواحدة البسيطة، وعندها سيكون لنا علمنا البديل في كل العلوم المعروفة، ويصبح لنا منهجيتنا التي تميزنا عن غيرنا من الأمم، وأنا على يقين أنها ستكون منهجية أرقى من منهجية جميع الأمم الأخرى لأنها مؤسسة كما نؤمن جميعنا على المصدر الذي جاءت منه المعرفة أساساً. فقال تعالى:

- ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥﴾ [النبأ: 1-5]

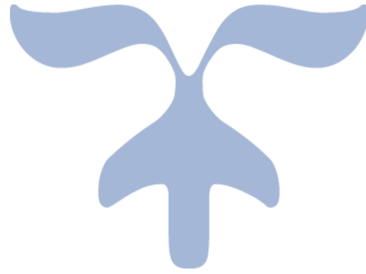
والقارئ الكريم مدعو لقراءة هذه السورة الكريمة التي أنزلت قبل أربعة عشر قرناً ليرى ما فيها من البينات العلمية، ليقنع أنّ هذا الكتاب هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

بقلم د. رشيد الجراح
مركز اللغات
جامعة اليرموك
الأردن



# كتاب الجدليات

## هل للغة العربية قدسية خاصة؟



# دراسة في الإحالة النصية من منظور نظرية الحلول المثلى

**النص الكامل بإطاره النظري مكتوب باللغة الإنجليزية**

## مقدمة

لقد أشكل هذا الأمر على العامة لأنّ علماء الأمة-كما يعلم الجميع- قسموا أنفسهم إلى فريقين: فريق يؤمن بعذاب في القبر وآخر لا يؤمن به، (انظر إثبات عذاب القبر للبيهقي، الروح لابن قيم الجوزية، وعذاب القبر في الميزان لعكاشه عبد المنان، المنهاج، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرآن العظيم، إثبات عذاب القبر، الغيبيات في ضوء السنة، موقف المدرسة العقلية من السنة. ثم انظر فضل الاعتزال، ميزان الاعتدال، لسان الميزان، شفاء الصدر في نفي عذاب القبر، الكتاب والقرآن، دفع الشبهات، السنة ودورها في الفقه الجديد:الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة)

وقد قدّم كل طرف حجته التي ظنّ أنّها تؤيد ما ذهب إليه، ودعا هذا الجدال إلى ظهور طرف ثالث (انظر ) يتخذ الموقف التالي: ما جدوى البحث بمثل هذه الأمور الخلافية إذا كان ما يترتب عليها هو من أمر الآخرة؟! فتمثل موقفهم في التفضيل بعدم الخوض في مثل هذه الأمور الغيبية، ولكنّنا نرى أنّ هذا الطرف الثالث قد أخطأ في تصوير الموقف وذلك لسبب بسيط وهو: لا يمكن تجميد فكر الأمة لمجرد الخلاف، فالخلاف والنقاش لابد أنْ يؤدي في النهاية إلى تبلور الحقيقة، فقد يسعف تسليط الضوء بكثافة على هذه الأمور في تجليها وانكشاف الغمام عنها، ونحن في هذا المقام لا نريد إعادة صياغة الأفكار القديمة، ولكننا نرى أنّ هناك متسعاً من المكان لتسليط الضوء على هذا الأمر من زوايا جديدة ربما تفتح على بعضنا أفاقاً لمتابعتها ومن ثم تأييد التفكير للأمة بأكملها في اتجاه معين.

## الافتراض النظري

إنّنا نزعم – حسب فهمنا اللغوي على أقل تقدير- أنّه لا يمكن أنْ يكون هناك عذاب في القبر، وما تناقله الفكر المعاكس من أدلة على وجود عذاب في القبر تتضارب بشكل لا لبس فيه مع صريح اللفظ القرآني، وسنحاول تبيان ذلك بحول الله وتأييده فيما سيأتي. ومن الجدير بالذكر أنْ نعيد التذكير هنا أنّ منهجيتنا تتلخص بمتابعة إشارات الترابط النصي في القرآن الكريم كله، فلقد دلت الأبحاث اللغوية أنّ الترابط النصي (textual cohesion) يمكن قياسه من الإشارات (cohesive elements) التي تعين القارئ على ربط المعلومات مع بعضها داخل النص الواحد أو قد ترجعه إلى معلومات وردت في سياقات سابقة أو لاحقة (Kintsch & Van Dijk, 1978; Graesser et al., 1994; Trabasso & van den Broek, 1985; Zwaan & Radvansky, 1998); Givon, 1995; Zwaan, 1996)، ومن الجدير بالذكر أيضاً القول أنّ هذه الإشارات قد ترد داخل الآية الواحدة أو السياق الواحد (locally) وقد ترد في سياقات أخرى (globally) (أنظر Graesser, McNamara, Louwerse, Gernsbacher, 1990 & Cai, 2004; Louwerse, 2002;)، ولكن من المفيد أنْ نذكر هنا أنّ الترابط النصي لا يعني وجود أو عدم وجود رابط وإنما هي درجة (أو قوة) الترابط التي يجب أنْ تؤخذ بالحسبان، فقد تكون الإشارة قوية في

موطن ما وقد تكون أقل قوة في موطن آخر وهكذا، فهي إذاً تدرجية (continuum)، فارتباط لفظة في آية في موطن ما من القرآن الكريم مع موطن آخر لا شك تثير روابط جديدة، وهكذا، ولقد دلت الأبحاث العلمية إنّ فهم كيفية ترابط هذه الإشارات تساعد في فهم النص بشكل أكثر دقة (e.g., Britton & Gulgoz, 1991; McNamara, 2001; McNamara, Kintsch, Songer, & Kintsch, 1996، وبمتابعة تلك الإشارات النصية في كتاب الله تبين لنا ما يلي:

**أولاً**، ليس هناك نص صريح واضح في كتاب الله-على الرغم من جدّيّة الأمر- يؤكد أنّ الكافرين من الناس يعذبون في قبورهم، أما الأحاديث النبوية في هذا الشأن فهي إما ضعيفة، أو أنّ ما هو موجود منها في الصحيحين- كما يعلم علماء الأمة- هي في مجملها أحاديث آحاد، ولا أرغب الدخول في هذه الجدلية لأنّ الأمر ليس من شأن العامة مثلي، ولكن يعلم علماء الأمة ما يترتب على أحاديث الآحاد في أمور العقيدة. وقد كانت هذه الفكرة محورية في الجدل الدائر بين المؤمنين بعذاب القبر والمنكرين له (أنظر )، ولذا فأنا لن أخوض في تلك الأحاديث ليس لأني أردها – كما قد يسيء البعض الفهم- ولكني أرغب في الدفاع عن موقفي بما لا يمكن لأحد أنْ يشكك ولو بحرف واحد فيه وهو كتاب الله تعالى، فجميع الأدلة التي سأقدمها ظانا أنّها تدعم موقفي مستمدة- بحول الله- من القرآن الكريم وحده، وهذا يعني بالضرورة أني لن أقتبس كذلك من أقوال الآخرين وإنْ تقاطعت معهم في بعض الأفكار والخواطر، ولكني أنوي أنْ أقحم نفسي في بناء فكر مستقل تتبلور جوانبه بطريقة عرض الفكرة نفسها.

يتلخص المنهج كما تصوره نظرية الحلول المثلى (optimal solutions) أو ما يشابها من منظور ترتيب الأولويات (setting up priorities) أنّ من الطبيعي أنْ تتعدد الآراء و تتضارب الأفكار، فليس هناك أفكار بشرية مطلقة الصحة، فقول البشر واجتهاداتهم تؤخذ أحياناً وترد في أغلب الأحيان، وبهذا تكون أفكارهم قابلة للنقض (violable)، ولكننا نرى أنّ السبب الرئيس وراء تضارب الآراء مع بعضها هو تضارب المحددات (conflicting demands or conflicting constraints) التي تحاكمت لها تلك الآراء، أي التي أُخذت بالحسبان عند مناقشة أمر ما، وكان ذلك بتمييز درجة أهمية أو قوة تلك الضوابط وهو ما يسمى بترتيب الضوابط أو ترتيب الأولويات (constraint ranking )، وهذا يعني بكلمات بسيطة أنّ هناك ضوابط قوية (high ranking) وهناك ضوابط أقل قوة (low ranking)، وهكذا.

والملفت للنظر أيضاً أنّنا غالباً ما نختلف حتى في ترتيب تلك الأولويات، وبذلك تكون نقطة البداية لقبول أو رد الفكرة هي البحث في كيفية ترتيب الضوابط التي نحاكم الفكرة على أساسها حتى يتم التوصل إلى النتيجة المطلوبة أو الحل الأمثل (optimal solution)، فإذا ما اختلفنا في ترتيب أولوياتنا لابد أنْ نتوصل إلى نتائج مختلفة وبالتالي اختلاف في الرأي، أما إذا ما انطلقنا من نفس الترتيب فغالباً ما سنتوصل إلى نتائج متشابه (وليس بالضرورة أنْ تكون متطابقة).

ومما لا شك فيه أنّ تلك الضوابط تتداخل مع بعضها، فلكل شخص الحق أنْ يقدّم ما يشاء من أدلة وأراء كيفما يتصورها، وبالتالي يكون عدد الخيارات أو البدائل لا نهاية لها (infinite)، ولكن لا شك أنّ جميع البدائل يتم محاكمتها على الضوابط التي تم الاتفاق على ترتيبها في البدء وقبل كل شيء، ويكون الحل الأمثل هو الذي لا ينتهك كثيراً من تلك الضوابط، وإنْ تم انتهاك الضوابط جميعها ينظر إلى ترتيبها، فانتهاك ضابط منخفض الأهمية والترتيب (low ranking) أقل خطورة من انتهاك ضابط مرتفع الأهمية والترتيب

(high ranking). وبالتمثيل على ذلك نقول ربما يتناقض رأي ما (ح1) مع الضابط (س) بينما ينتهك الرأي الآخر (ح2) الضابط (ص)، فأي الرأيين أجدر بالتبني؟ إنّ الجواب بكل بساطة هو الرأي الذي خالف الضابط المنخفض على سلم تدرج الضوابط كما في الشكلين التاليين (حيث تتدرج الضوابط أفقياً والبدائل عموديا):

| المدخلات | س | ص |
|---|---|---|
| ح1 | *! | |
| ح2☜ | | * |

لاحظ أنه عندما يكون الترتيب على نحو أنّ (س) يسيطر على (ص) يكون البديل (ح2) أجدر بالتبني (ويشار إليه بالرمز☜) ولكن عندما يعكس ترتيب الضوابط تنقلب الصورة رأساً على عقب ليكون الرأي المنافس (ح1) أحق بالأخذ والبديل (ح2) أحق بالرد (ويشار إليه بالرمز !).

| المدخلات | ص | س |
|---|---|---|
| ح1☜ | *! | |
| ح2 | | * |

وبتطبيق نفس المنطق على موضوع جدلية عذاب القبر فإنّ جميع الآراء أو الحلول (ح1، ح2، ح3 ... الخ) المتعلقة بهذا الموضوع (وبغيره بلا شك) مضبوطة بالكتاب والسنة، فالكتاب ضابط والسنة ضابط، فالكتاب ضابط والسنة ضابط وأقوال الصحابة ضابط وأقوال التابعين ضابط وأقوال العلماء ضابط والعادة ضابط والعرف ضابط ولغة العرب ضابط، ولك ما شئت أن تعتبره ضابط .ومما لا شك فيه أنّ ضابط الكتاب أقوى من ضابط السنة، فإذا ما حصل تضارب (حسب ظن البشر) بين ما هو موجود في الكتاب وما هو موجود في السنة، إننا نود التأكيد أننا نؤمن إيماناً مطلقاً أن ليس هناك تضارب بين الكتاب والسنة، فالسنة مكملة للكتاب والإيمان بها من ركائز العقيدة، أما التضارب الظاهر في ربط بعض الأحاديث ببعض الآيات القرآنية (أو حتى بين الآيات نفسها أو الأحاديث مع بعضها) فهو تضارب في فهم البشر وتفسيرهم لما هو موجود في الكتاب والسنة، لذا فإننا نؤكد مرة أخرى أنّ ما نقوم به هو محاكمة للآراء البشرية لما هو في الكتاب والسنة وليس لنصوص الكتاب والسنة نفسها. لجأنا إلى ترتيب الضابطين بتقديم الكتاب على السنة، ونتخذ الرأي الذي لا يعارض الكتاب وإنْ عارض-حسب ظننا- ما هو موجود في السنة كما في التمثيل التالي:

| المدخلات عذاب القبر | ض1 الكتاب | ض2 السنة |
|---|---|---|
| ح1 (يوجد عذاب في القبر) | * | |
| ح2 (لا يوجد عذاب في القبر) | | * |

فإنْ قلنا أنّ هناك عذاب في القبر خالف-حسب ظننا- بعض النصوص الموجودة في الكتاب، وإنْ قلنا لا يوجد عذاب في القبر خالف- حسب ظننا- بعض النصوص الموجود في السنة، فأي الرأيين أحق بالأخذ أو الرد؟ إنْ صحّ ما ندعي فلا شك أنّ التمسك بما في الكتاب أولى من التمسك بما هو موجود في السنة، وهذا بالضبط ما سنحاول تبيانه بالأدلة من كتاب الله في الصفحات التالية.

**ثانياً**، تتلخص منهجيتنا في نقل دليلينا على عدم وجود عذاب في القبر على مرحلتين، تتمثل المرحلة الأولى في تبيان الأدلة النقلية من القرآن التي تتعارض مع الإدعاء بوجود عذاب في القبر، وتتمثل المرحلة الثانية –وهي الأهم- في إعادة تفسير الأدلة المنقولة من الكتاب التي استخدمها معظم من ادعى بوجود عذاب في القبر.

## المرحلة الأولى: نفي عذاب القبر

**أولاً**، إننا نؤمن أنّ من أبجديات عقيدتنا أنّ الله سيحاسب الخلائق أجمعين، ونؤمن كذلك أنّ ذلك الحساب سيكون بعد أنْ يقوم الناس لرب العالمين، ونومن أنّ كلاً سيأخذ كتابه إما بيمينه أو من وراء ظهره:

- ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: 7-12]

ونؤمن بالمشي على الصراط، ونؤمن أنّ كل فريق سيذهب إما إلى جنة أو إلى نار:

- ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر: 71-73]

**وسؤالنا الأول هو**: ما فائدة كل ذلك إنْ بدأ العذاب في القبر؟ هل سيصبح هناك معنى للحساب يوم ينفخ في الصور النفخة الثانية ما دام العقاب قد حل قبل ذلك؟ فهل –يا ترى – يعاقب الله قبل أنْ يحاسب؟!

إننا ندعي حسب فهمنا أنّ هذه الآيات تتضارب بشكل جلي مع أحاديث عذاب القبر، من يدعي أنّ أحاديث عذاب القبر لا تتضارب مع فحوى هذه الآيات الكريمات (التي تؤكد جميعها أنّ الحساب سيبدأ بعد أنْ يقوم الناس كلهم لرب العالمين) فليقدم لنا فهمه لعذاب القبر في ضوء هذه الحقيقة القرآنية الجلية.

فأيهما أولى بالقبول؟ أنقبل أحاديث عذاب القبر لنرد مثل هذه الآيات؟ أم نقدم هذه الآيات على تلك الأحاديث؟ إنّ من أبجديات عقيدتنا مراعاة الأولويات، فتقديم الآيات أولى بعقيدة المؤمن.

**ثانياً**: إنّنا نعلم بنص القرآن الكريم أنّ ردة فعل الكافرين الأولى على بعثهم من قبورهم ستكون- بنص كتاب الله- على نحو:

- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾ [الروم: 55]

**وسؤالنا هو**: هل من كان يعذب في قبره –من نوع عذاب رب العالمين- ينقضي كل ذلك وكأنه ساعة من نهار؟ أليس في ذلك تقليل من جدية عذاب رب العالمين الذي قال في كتابه الكريم:

- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: 7]
- ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: 50]

ثم كيف بعذاب جهنم (النار يعرضون عليها) يقع في حفرة لا يزيد قطرها عن المتر الواحد، هنا لا نتحدث عن عذاب الله الذي وقع على بعض الأمم والأقوام السابقة (أي العذاب الأرضي) في الحياة الدنيا، وإنما عن عذاب النار بعد الموت، وسنرى لاحقاً كيف تتحدث الآيات –خصوصاً آية عذاب آل فرعون - عن عذاب النار "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا".

وهم من يقتبسون أحاديث عذاب القبر يقتبسون في الوقت نفسه الأحاديث التي فحواها أنْ لو طارت شرارة واحدة من نار جهنم على الأرض لأهلكت الأرض ومن عليها، روي في المعجم الأوسط - (ج 6 / ص 125):

عن انس بن مالك قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لو أنّ غربا من جهنم جعل وسط الأرض لآذى نتن ريحه وشدة حره ما بين المشرق والمغرب ولو أن شررة من شرر جهنم بالمشرق لوجد حرها من بالمغرب

فكيف إذاً بعذاب جهنم يقع على من هو في حفرة صغيره؟ لقد درج في ذهن العامة –من مثلي – أنّ في القبر عذاب حتى أصبح بعضهم يخاف عذاب القبر ويحسب له أكثر من عذاب جهنم نفسها، أليس في ذلك - عزيزي القارئ- تتفيه لعذاب الله؟، والأهم من ذلك تلك القصص المخيفة التي بتناقلها العامة عن ما شاهده غيرهم- في غالب الأحيان- عن قصص القبور، ولتتأكد من درجة انتشار الأكاذيب والافتراءات فأنت مدعو للبحث تحت عنوان "عذاب القبر" في الشبكة العنكبوتية لتجد العجب العجاب

لاحظ –عزيزي القارئ- كيف نفهم أنّ التضارب الظاهر ليس فقط بين الآيات والأحاديث وإنّما بين نصوص الأحاديث بعضها مع بعض، فبعضهم يروي أحاديث عذاب القبر (أي إمكانية حدوث عذاب النار على الأرض) وآخرون يرون هول عذاب رب العالمين من نوع نار جهنم (استحالة حصول مثل عذاب النار على الأرض).

والأخطر من ذلك أنّ بعض تلك الأحاديث وصلت للناس مجزوءة، فروّجوا لجزء من الحديث وغطوا على جزء آخر من الحديث نفسه، فالخطر الحقيقي –في ظننا- أنْ تسلك هذه الأمة طريق ومنهاج بني إسرائيل الذين جعلوا كتبهم قراطيس يبدون بعضها ويخفون أكثرها، قال تعالى في حقهم:

- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: 91]

وحتى لا ينعت القارئ كلامنا هذا بالافتراء على الآخرين ندعوه إلى التأمل بالنص الكامل لإحدى الأحاديث المروية عن عذاب القبر كما وردت في فتح الباري على صحيح البخاري:

**الحديث:**

حَدَّثَنَا عَبْدَانُ أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ شُعْبَةَ سَمِعْتُ الْأَشْعَثَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ فَقَالَتْ لَهَا أَعَاذَكِ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَقَالَ نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ زَادَ غُنْدَرٌ عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ

**الشرح:**

قوله: (سمعت الأشعث) هو ابن أبي الشعثاء سليم بن الأسود المحاربي.

قوله: (أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر) وقع في رواية أبي وائل عن مسروق عند المصنف في الدعوات " دخلت عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم " وهو محمول على أن إحداهما تكلمت وأقرتها الأخرى على ذلك فنسبت القول إليهما مجازاء والإفراد يحمل على المتكلمة.

ولم أقف على اسم واحدة منهما.

وزاد في رواية أبي وائل " فكذبتهما " ووقع عند مسلم من طريق ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت " دخلت علي امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور.

قال: فارتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إنما يفتن يهود.

قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل شعرت أنه أوحي إلى أنكم تفتنون في القبور.

قالت عائشة: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ من عذاب القبر " وبين هاتين الروايتين مخالفة، لأن في هذه أنه صلى الله عليه وسلم أنكر على اليهودية، وفي الأولى أنه أقرها.

قال النووي تبعا للطحاوي وغيره: هما قصتان، فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم قول اليهودية في القصة الأولى، ثم أعلم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ولم يعلم عائشة، فجاءت اليهودية مرة فذكرت لها ذلك فأنكرت عليها مستندة إلى الإنكار الأول، فأعلمها النبي صلى الله عليه وسلم بأن الوحي نزل بإثباته انتهى.

وقال الكرماني: يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ سرا فلما رأى استغراب عائشة حين سمعت ذلك من اليهودية أعلن به انتهى.

وكأنه لم يقف على رواية الزهري عن عروة التي ذكرناها عن صحيح مسلم، وقد تقدم في " باب التعوذ من عذاب القبر " في الكسوف من طريق عمرة عن عائشة " أن يهودية جاءت تسألها فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتعذب الناس في قبورهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عائذا بالله من ذلك.

ثم ركب ذات غداة مركبا فخسفت الشمس " فذكر الحديث، وفي آخره " ثم أمرهم أن يتعوذوا من عذاب القبر " وفي هذه موافقة لرواية الزهري وأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن علم بذلك.

وأصرح منه ما رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري عن سعيد بن عمرو بن سعيد الأموي عن عائشة " أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر.

قالت: فقلت يا رسول الله هل للقبر عذاب؟ قال: كذبت يهود، لا عذاب دون يوم القيامة.

ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار وهو ينادي بأعلى صوته: أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق " وفي هذا كله أنه صلى الله عليه وسلم إنما علم بحكم عذاب القير إذ هو بالمدينة في آخر الأمر كما تقدم تاريخ صلاة الكسوف في موضعه.

وقد استشكل ذلك بأن الآية المتقدمة مكية وهي قوله تعالى )يثبت الله الذين آمنوا( وكذلك الآية الأخرى المتقدمة وهي قوله تعالى )النار يعرضون عليها غدوا وعشيا( والجواب أن عذاب القبر إنما يؤخذ من الأولى بطريق المفهوم من حق من لم يتصف بالإيمان، وكذلك بالمنطوق في الأخرى في حق آل فرعون وإن التحق بهم من كان له حكمهم من الكفار، فالذي أنكره النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين، ثم أعلم صلى الله عليه وسلم أن ذلك قد يقع على من يشاء الله منهم فجزم به وحذر منه وبالغ في الاستعاذة منه تعليما لأمته وإرشادا، فانتفى التعارض بحمد الله تعالى.

وفيه دلالة على أن عذاب القبر ليس بخاص بهذه الأمة بخلاف المسألة ففيها اختلاف سيأتي ذكره آخر الباب.

قوله: (قال نعم عذاب القبر) كذا للأكثر، زاد في رواية الحموي والمستملي " حق " وليس بجيد لأن المصنف قال عقب هذه الطريق: زاد غندر " عذاب القبر حق " فتبين أن لفظ " حق " ليست في رواية عبدان عن أبيه عن شعبة، وأنها ثابتة في رواية غندر عن شعبة وهو كذلك.

وقد أخرج طريق غندر النسائي والإسماعيلي كذلك وكذلك أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عن شعبة.

(تنبيه) : وقع قوله " زاد غندر إلخ " في رواية أبي ذر وحده، ووقع ذلك في بعض النسخ عقب حديث أسماء بنت أبي بكر وهو غلط.

انتهى الاقتباس من فتح الباري

وهنا نتوقف –كما يقول عادةً مقدم برنامج الجزيرة الإخبارية في بداية برنامجه ما وراء الخبر- لنثير تساؤلين اثنين:

**أولهما**، لماذا روّجوا بشكل كبير لجزء من الحديث وهو الجزء الذي يثبت عذاب القبر، وأغفلوا الجزء الآخر من الحديث وهو الذي ينكر عذاب القبر (انظر ما تحته خط في الحديث السابق)، فالنبي بصريح اللفظ يقول "كذبت يهود، لا عذاب دون يوم القيامة"، أليس من روى الطرف الثاني صحابي جليل كالذي روى الطرف الأول من الحديث؟ لا بل فهم يؤكدون التضارب في الشق المتعلق بإثبات عذاب القبر ويثبتون صراحةَ اللفظ في الشق المتعلق بإنكاره (الرجاء قراءة النص المقتبس من فتح الباري بتمعن).

**وثانيهما** يذكر الشرح أنّ النبي (صلى الله عليه وسلم) خرج في الطرقات يصيح بأعلى صوته يستعيذ من عذاب القبر، أليس كذلك؟ (نقول خرج إلى الطرقات يصيح بأعلى صوته – انظر ما تحته خط في الحديث السابق) ثم تكون النتيجة أنّ هذا الحديث (ومثله أحاديث القبر الأخرى) من أحاديث الآحاد، ف يا للمفارقة لا يسمع استعاذة النبي بأعلى صوته في الطرقات إلاّ شخصاً واحدا (لربما كان المسلمون في إجازة في ذلك اليوم، من يدري!!!) انتهى.

والمفارقة الأكبر أنّ البيهقي يؤلف كتاباً تحت عنوان "إثبات عذاب القبر" فيذكر جميع تلك الأحاديث ويذكر هذا الحديث المروي عن عائشة ولكنه –يا لله- لا يورد الجزء المبتور دائما من الحديث وهو الذي ينكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم القول بعذاب القبر. تصور معي: كتاب كامل حول عذاب القبر يذكر فيه تقريبا كل شيء إلا ذلك الجزء، وسؤالنا هو: لماذا أخفي ذلك الجزء: خوفاً على الدين أنّ يُحدَث فيه ما لا يجب؟

**ثالثاً**، لقد كانت ردة فعل الكافرين على بعثهم من قبورهم يوم القيامة على نحو:

- ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس: 51-52]

ألا يعني ذلك أنّهم مستغربين لعملية البعث؟ فكيف لمن كان يعذب في قبره منذ يومه الأول فيه يستغرب من بعثه يوم القيامة ليتساءل عن مصدره حتى يدرك حينها أنّ ذلك وعد الرحمن وصدق المرسلين؟ فهل من كان منغمساً بعذاب ربه له أنْ ينسى المصدر الذي بعثه من مرقده أو السبب الذي يعذب من أجله؟ ألم تكن ردة فعل الكافرين حتى وهم في أشد العذاب الطلب من خزنة النار أنْ يطلبوا هم

من ربهم أنْ يخفف عنهم يوماً من العذاب، ولنتدبر حوار أهل النار لنرى هل فعلاً ينسوا مصدر عذابهم أو حتى سببه:

- ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: 47-50]

فها هم يتذكروا دعوة رسلهم ويعلموا السبب الذي من أجله يعذبوا، وهم قبل كل شيء يعلموا مصدر عذابهم، وتحصل عملية التذكر وهم في أشد عذاب جهنم، فكيف بهم ينسوا ذلك بسب "عذابهم في قبورهم"؟! إنّنا نفهم وجود تضارب بين هذه الآيات وأحاديث عذاب القبر، فأيهما أولى بالإتباع؟

**رابعاً**، إنّنا بحاجة أنْ نتوقف قليلاً لنتدبر ألفاظ الآية نفسها:

- ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: 52]

فمما لا شك فيه أنّ الكافرين-بصريح اللفظ القرآني- كانوا في مرقدهم، ونسأل القارئ الكريم عن معنى قوله تعالى " مِن مَّرْقَدِنَا"، وحتى نستجلي فهم اللفظ القرآني ندعو إلى عقد مقارنة مع آية أخرى في كتاب الله مركزين على هذا اللفظ:

- ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: 18]

هذه الآية تتحدث عن قصة أهل الكهف، أليس كذلك؟ ألم يكن أهل الكهف رقودا في كهفهم؟ فهل كانوا يعذبون وهم رقود؟ لقد أُستخدم فعل "الرقود" في الحالتين: حالة الكافرين المستغربين لعملية البعث وحالة أهل الكهف، وسؤالنا هو: ما وجه الشبه في الحالتين حتى يُستخدم الفعل ذاته؟ أم هل هي صدفة أنْ ترد نفس اللفظة في الحالتين؟! كلا وألف كلا، فالله لا يستخدم إلا اللفظة التي تؤدِ المعنى الذي لا يمكن لغيرها أنْ تؤديه، فلب القول أنّ أهل الكهف كانوا رقودا، والكافرين يقولون بصريح اللفظ القرآني أنهم كانوا هم كذلك في قبورهم رقودا، لا بل ولنتدبر ردة فعل أهل الكهف يوم أنْ بعثوا من مرقدهم ونقارن ذلك بردة فعل الكافرين يوم القيامة:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: 19]

وكذلك هي ردة فعل البشر كافة (مؤمنهم وكافرهم) يوم القيامة:

- ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣﴾ [المؤمنون: 112-113]

فمما لا شك فيه أنّ من كان راقدا ينقضي الوقت عليه بسرعة شديدة لدرجة أنّه لا يحس بسرعتها، فهل من كانت حالته كذلك يكون واقع في عذاب جهنم (أو في عذاب النار لمجرد أنّه يعرض عليها كما سنرى لاحقاً)؟!

- ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾ [الروم: 55]
- ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾ [يونس: 45]
- ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35]

إننا نفهم أنّ أحاديث عذاب القبر تتضارب مع صريح اللفظ في هذه الآيات القرآنية، ومع المعاني المستقصاة منها حسب فهمنا لها.

**خامساً**، إننا بحاجة أيضاً أنْ نتدبر الآية نفسها (آية استغراب الكافرين لبعثهم) في سياقها الأوسع فنورد الآية التي سبقتها مباشرة:

- ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾ [يس: 51-52]

ألا تصور هذه الآيات الكريمات خروج الكافرين من الأجداث (وليس من النار)؟ وهنا نتوقف لنفهم ما هي الأجداث التي يخرج منها الناس يوم القيامة، ولنتدبر النص القرآني التالي:

- ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾ [المعارج: 42-44]

ألا تصور هذه الآيات أيضاً خروج الكافرين من الأجداث؟ ولكننا نتساءل عن علاقة آية خروجهم من الأجداث " يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ " مع الآية التي سبقتها " فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ "، ألا يعني ذلك أنّ الله قد أعطى الكافرين مهلةً (فرصة من العذاب) حتى يوم الخروج من الأجداث؟ فكلمة " يَوۡمَ " في الآية (43) لا شك عائدة على كلمة " يَوۡمَهُمُ " في الآية (42)، فلب القول إذاً أنّ

الله قد أمهل الكافرين حتى ذلك اليوم، فهل يتراجع الله –حاشاه جل وعلى- عن وعده؟! إنّ القول بعذاب في القبر يناقض بشكل لا لبس فيه هذا الوعد من الله بإمهال الكافرين حتى يوم الحساب الأكبر.

وترد الفكرة ذاتها في سياق آخر في كتاب الله:

- ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾ [القمر: 5-8]

لا بل وتتأكد الفكرة ذاتها بشكل جلي في قوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ۝٤٣﴾ [إبراهيم: 42-43]

فما فائدة هذا التأخير إنْ كانوا فعلاً يعذبون في قبورهم؟ إنّ الله قد وعد بتأخير العذاب حتى ذلك اليوم، فالله ليس بغافل عن ما يفعل الظالمون وإنّما هو وعد منه بتأخير حسابهم حتى ذلك اليوم الذي ستشخص فيه الأبصار، ولا ننسى أنّ الله سبحانه قد وعد زعيمهم الأكبر (إبليس) بتأخيره إلى يوم الوعد المعلوم، فهل يمكن أنْ يعمل أحد ذنباً ويعصى ربه أكثر من إبليس نفسه، ولكننا نعلم أنّ الله ليس بغافل عما يعمل وإنما هو الوعد بالتأخير إلى اليوم المعلوم:

- ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝١٥﴾ [الأعراف: 13-15]
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: 36-38]
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٨١﴾ [ص: 79-81]

فهل نقبل هذا التناقض بين وعد الله بإمهال وتأخير الكافرين إلى يوم يبعثون والقول أنّ الكافرين من الناس يعذبون في قبورهم لمجرد أنّهم يعرضون على النار؟

وأخيراً، لقد ورد في أكثر من موضع من كتاب الله الحديث عن ما سيؤول إليه الكفار بعد موتهم، ونحن بحاجة إلى تدبر تلك الآيات لنربطها بجدلية عذاب القبر، فلقد جاء في كتاب الله:

- ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ۝٣٥﴾ [المؤمنون: 35]
- ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨٣ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤﴾ [المؤمنون: 82-84]

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾ [النمل: 67-68]
- ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨﴾ [الصافات: 16-18]
- ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾ [ق: 3-4]
- ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ٤٨ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠﴾ [الواقعة: 47-50]

إنّ المتمعن بهذه الآيات الكريمات يدرك حقيقة جلية وهي أنّ الله سبحانه لم يكذِّب المتحدين أنهم سيكونون تراباً وعظاما بعد موتهم وإنما كذّب إدعائهم أنّ الله غير قادر على بعثهم من قبورهم، ولنتدبر الحوار كما يصوره القرآن الكريم:

- ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨﴾ [الصافات: 16-18]

فالكافرون في الآيات السابقة يقدّمون الادعاءات التالية:

1. أنهم سيموتون (أَءِذَا مِتۡنَا)
2. أنهم سيكونون تراباً وعظاما (وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا)
3. أنهم متشككين من قضية البعث بعد تلك الحالة "أي تراباً وعظاما" (أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ)

وجل ما نود أنْ نجلب انتباه القارئ له في هذا السياق هو ربط الآية الكريمة السابقة (وكذلك آيات كثيرة في كتاب الله تؤكد حقيقة وقوع الموت) مع الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ [فاطر: 36]

إنّ فحوى الخطاب في هذه الآية يؤكد أنّ من وقع عليه عذاب نار جهنم لا يمكن أنْ يكون ميتاً، فهو عذاب شديد ولكنه لا يقضي بالموت على من وقع عليه.

وكما نرى يأتي الرد الرباني ليؤكد على حتمية البعث بقوله تعالى " قُلۡ نَعَمۡ "، ولكنه لا ينفي وقوع الموت وتحولهم إلى عظاما وترابا، لا بل ويزيد على ذلك ليصور هيئتهم في تلك اللحظة بالجملة الحالية " وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ "، وهنا لا بد من التعرض لمعنى قوله تعالى وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ، إننا نعتقد أنّها لا تعني بأي حال من الأحوال أنّ أجسادهم ملتهبة من شدة حرِّ عذاب القبر وذلك لأنها هي الحالة نفسها التي يكون عليها حتى من يسجد لله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨﴾ [النحل: 48]

والاهم من ذلك أنّ جميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم سيبعثون في ذلك اليوم على تلك الهيئة:

- ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل: 87]

فهل يا ترى نتناسى هذه المعاني لنقبل بجدلية عذاب القبر لمجرد أنّ آل فرعون يعرضون على النار؟!

إننا بحاجة أولاً –وقبل كل شيء – أنْ نفهم كيفية وماهية العرض على النار.

## المرحلة الثانية: إعادة تفسير الدليل القرآني الذي زعموا أنّه يثبت عذاب القبر

لقد ذهب معظم من ظنّ بوجود عذاب في القبر أنّ الدليل القرآني الذي يدعم موقفهم يأتي في جله من فهمهم للآيات الكريمات التاليات:

- ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46]
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ [الأنفال: 50]
- ﴿...وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣﴾ [الأنعام: 93]

وسنحاول تفنيد إدعاءاتهم بقراءة مفردات هذه الآيات كما ترد في كتاب الله.

### الدليل الأول

أولاً، لقد جاء في سياق الحديث عن آل فرعون قوله تعالى:

- ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46]

إنّ التناقضات السابقة تدعونا إلى إلقاء ظلال الشك على الاجتهادات المتعلقة بعذاب القبر والتي بُنيت على هذه الآية الكريمة. إننا نعتقد أنّ القراءة اللغوية الصحيحة لهذه الآية الكريمة-كما سنبين بعد قليل- لا تدعم بأي شكل وجود عذاب في القبر، لا بل إنّها لا تتعارض مع التصور الذي نطرحه بعدم وجود عذاب في القبر، وكل ما نحتاجه هو الفهم الدقيق لمفردات الآية نفسها، لذا نتوقف هنا للحظة لنطرح الأسئلة التالية:

⇐ هل فعلاً تذكر الآية القرآنية أنّ آل فرعون يتعذبون في قبورهم؟
⇐ ماذا سيحل فعلاً بآل فرعون قبل دخولهم النار يوم تقوم الساعة؟

⇐ ما هي النار التي يُعرض عليها آل فرعون غدواً وعشيا؟
⇐ ماذا يعني قوله تعالى " ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا "؟ فهل ذلك عذاب؟
⇐ ماذا يعني قوله تعالى غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ؟

إننا نودّ عدم الدخول في جدال، لذا سنحاول التمسك بالأفكار التي قلما يختلف فيها الكثيرون، فنقول أنّ الآية القرآنية تؤكد –وقبل كل شيء- أنّ ما سيحل بآل فرعون قبل الدخول في أشد العذاب يوم القيامة هو العرض على النار بصريح اللفظ القرآني " ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا "، أليس كذلك؟ وسؤالنا يكون إذاً على نحو: ما معني ذلك؟ ما هي النار؟ وكيف هو العرض؟ هل هو فعلاً عذاب؟ وإنْ كان كذلك فهل يكون ذلك العذاب وهم في قبورهم؟ وحتى نتمكن من محاولة الإجابة على هذا التساؤل لابد من الخوض في معنى قوله تعالى: " ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا "

لقد وردت لفظة "النار" في هذه الآية الكريمة، ونحن بحاجة أنْ نتعرف على ما هي تلك النار التي يعرض عليها آل فرعون غدوا وعشياً، وسؤالنا مفاده: هل هي نار جهنم نفسها أم هي نار أخرى خاصة بآل فرعون غير نار جهنم؟ قال تعالى:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: 16]

وقد وردت لفظة النار على أنّها مأوى ومثوى الكافرين يوم القيامة:

- ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤﴾ [الجاثية: 34]
- ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فصلت: 24]

والأهم من ذلك في هذا السياق أنّ النار هي المكان الذي سيخلد في الكافرون ولا يخرجون منه:

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾ [التغابن: 10]

ولقد وردت لفظة النار نفسها "النَّار" مرتبطة بآل فرعون في موضع آخر من كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: 97-98]

وهذه الآية الكريمة (هود 98) تؤكد أنّها النار التي ستكون هي نفسها مأوى الكافرين جميعا مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤﴾ [الجاثية: 34]

- ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فصلت: 24]
- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾ [التغابن: 10]

وجميع الآيات تشير إلى أنّ ذلك سيحصل في يوم القيامة:

- ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور: 13-14]

ونخلص إلى القول أنّ جميع السياقات القرآنية يشير إلى النار التي ستكون مآل الكافرين يوم الحشر الأكبر وهو ذلك اليوم الذي يكون فيه فرعون أول قومه ليرد معهم تلك النار، فمراد القول أنّ لفظة النار لا ترتبط في سياقها القرآني مع القبر وإنما مع يوم القيامة "يوم الحساب والعقاب".

**ثانياً**، ونتحول للحديث عن عرض آل فرعون على النار، فما هو العرض الذي تتحدث عنه الآية القرآنية؟

- ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]

لقد ورد في كتاب الله بصريح اللفظ أنّ الكافرين جميعا سيعرضون على ربهم، قال تعالى:

- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18]
- ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾ [الكهف: 48]

فمما لاشك فيه أنّ هذه الآيات تتحدث عن حقيقة عرض الكافرين على ربهم، وهنا ندعو القارئ إلى تدبر التطابق العجيب في الموقفين: عرض آل فرعون على النار وعرض الكافرين على ربهم؟ ونتوقف لنلفت انتباهه إلى سؤال غريب وهو: هل سيرى الكافرون ربهم عند عرضهم عليه؟ فالجواب بكل تأكيد النفي قطعاً، وذلك لأنّ التشرف برؤية الله- حسب معتقدنا- شرف لا يحضى به إلاّ ذو حظ عظيم، أليست رؤية رب السموات والأرض بحد ذاتها أكبر نعمة يكافأ بها المؤمن يوم القيامة؟ فكيف إذاً بالكافر يعرض على ربه ليتمتع برؤيته؟ وهل من يرى ربه يوم القيامة يمكن أنْ يعذب بعدها؟ ربما يرد البعض بالقول أنّ الكافرين قد يروا ربهم رؤية غضب، ولكننا نعارض مثل هذا الاعتقاد لانّ النظرة الفيزيائية لرب السموات والأرض هي بحد ذاتها نعمة وشرف ما بعده شرف، وجمال المنظر لا يمكن أنْ يطغى عليه شيء. ولنتدبر قوله تعالى:

- ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: 15]
- ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥﴾ [القيامة: 22-25]
- ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١﴾ [عبس: 38-41]

وقد يرد البعض بالقول: وما علاقة ذلك بعذاب آل فرعون في قبورهم؟

إنّ ما نبغي الوصول إليه القول أنّ معنى "يعرض على" يتطلب وجود معروض ومعروض عليه، فعندما تقول مثلاً "عرض التاجر البضاعة"، فهذا –مما لا شك فيه- أنّ البضاعة هي المعروض والزبائن هم من عرضت عليهم البضاعة، وبهذا يكون من معاني "يعرض على" أنّ ليس بالضرورة أنّ يرى الطرفان بعضهما البعض، فيكفي أن يرى طرف واحد الطرف الآخر، ومما لا شك فيه أنّ المعروض عليه يرى المعروض ولكن ليس بالضرورة أنْ يرى المعروضُ المعروضَ عليه، فالزبون يرى البضاعة التي لا ترى الزبون. وأنت عندما تقول "عرضنا المريض على الطبيب" فهناك احتمال- ولو من حيث المبدأ- أنْ لا يرى المريضُ الطبيبَ ولكن لا شك أنّ الطبيب يرى المريض، فهناك المعروض (المريض) وهناك المعروض عليه (الطبيب).

فأول ما علّم الله تعالى آدم الأسماء كلها عرضهم على جمع الملائكة في عملية العرض الأولى:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]

فمن المعروض ومن المعروض عليه؟ ففي حين أنّ المعروض "الأسماء ومسمياتها" لم تتدخل في الحوار كان رد المعروض عليه "وهم الملائكة" على نحو:

- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]

فعندما يعرض الكافرون على ربهم سبحانه –لا شك- يراهم هو ولكن لا يمكن للكافر أنْ يرى ربه، فالرؤيا تكون إذاً من طرف واحد. ومن سيجادل في ذلك فليتمعن فحوى الآيات الكريمات التاليات:

- ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: 15]
- ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥﴾ [القيامة: 22-25]

وهذا – باعتقادنا- هو الحال بالنسبة لآل فرعون: فهناك معروض وهناك معروض عليه، ويتمثل السؤال الأهم بـ من هو المعروض ومن هو المعروض عليه في هذه الحالة؟ ونحن نعتقد أنّ الإجابة على هذا التساؤل تحل الإشكالية التي وقع فيها المفسرون لهذه الآية الكريمة.

إننا نعتقد أنّ المعروض هم "آل فرعون" والمعروض عليه "هي النار"، ولهذا فعندما يعرض آل فرعون على النار نعتقد أنّ النار ترى آل فرعون بينما لا يرى آلُ فرعون النار، فلقد ذكرنا أنّ ليس شرطاً أنْ يرى المعروض (آل فرعون) المعروض عليه (النار)، ، والدليل على ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ [الكهف: 100-101]

فهنا ترد صيغة " وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ "، فتتمثل الصورة بوجود جهنم ووجود الكافرين مرة أخرى وحدوث عملية العرض كما في الحالة السابقة، والسؤال هو: لماذا تغير اللفظ هنا على نحو "لِّلۡكَٰفِرِينَ" وليس على الكافرين مثلاً؟ فليس هناك أدنى شك أنّ المعروض هنا هي جهنم والمعروض عليه هم الكافرون الذين سيروا النار في تلك اللحظة، فعندما تعرض جهنم للكافرين سيتمكنون من رؤيتها ولكن عندما يعرض الكافرون على النار لن يتمكنوا من رؤيتها، لذا فآية الكهف تتحدث عن يوم القيامة بلا شك وعندها سيرى الكافرون النار، آما آية غافر فتتحدث عن ما قبل يوم القيامة فيعرض آل فرعون على النار فتراهم وقد لا يرونها هم. ولنتدبر آية الكهف التي تتحدث عن رؤية الكافرين للنار يوم القيامة في سياقها الأوسع:

- ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ [الكهف: 100-101]

**وسؤالنا هو**: ألا تؤكد هذه الآية الكريمة أنّ أعين الكافرين كانت مغطاة وسمعهم معطل قبل هذا اليوم؟ ألا يعني ذلك أنهم لا يستطيعون الرؤية؟ ألا يؤكد ذلك ما ذهبنا إليه أنّ الكافرين لا يستطيعون رؤية النار عندما يعرضوا عليها وسيرونها فقط عندما تعرض لهم؟ نستنتج أنّ اللفظ القرآني يؤكد أنّ هناك حالتين من العرض: عرض الكافرين على النار وعرض النار للكافرين، ففي حين أنّ الكافرين في الحالة الأولى لا يرون النار، يستطيع الكفار رؤية النار في الحالة الثانية، وسنتعرض للحديث عن توقيت كل حالة فيما بعد. وحتى يتيقن القارئ أنّ الروية حدث منفصل عن العرض ندعوه إلى إمعان التفكير في قوله تعالى في سورة الشورى:

- ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾ [الشورى: 45]

فما فائدة قوله تعالى " يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ " إذا كان بمجرد عرضهم على النار يقع العذاب عليهم؟

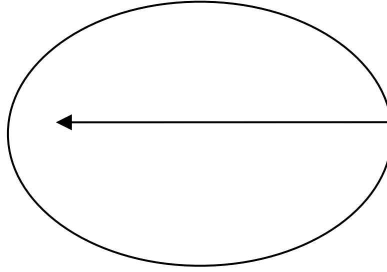
إننا ندعي أنه عندما يعرض الكافرين (وليس آل فرعون فقط) على النار لا شك تراهم النار، ولكن حتى يروا هم النار "يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ". فالسؤال هو: إلى ماذا ينظر الكافرون من طرف خفي إنْ كانوا يعذبون في النار في تلك اللحظة؟

والغريب أنّ علماء الشريعة الذين غالباً ما يتسلحوا بالدليل اللغوي لإثبات حجتهم قد غفلوا عنه هذه المرة، فمما لا شك فيه أنّ حرف الجر "على" مثلاً يحمل في ثناياه علاقة مكانية تتضمن الاتجاه والقرب المكاني، وتتطلب تحديد المعروض بالنسبة للمعروض عليه، فمما لا شك فيه أنّ المعروض لا يوازي المعروض عليه مكانياً، فعندما يعرض الكافرون على ربهم لا يمكن أن يكونوا في موازاة مع ربهم، وكذلك هي الحال عندما يعرض آل فرعون على النار:





ومن الجدير بالذكر أيضاً أنّ حرف الجر "على" لا يحمل معنى الاحتواء على الإطلاق، فـ لكي يعذب آل فرعون في النار يجب أنْ تحتويهم تلك النار كما في الشكل التالي:



ولكي يرى المعروضُ المعروضَ عليه فيجب أنْ ينظر إليه من مسافة، فأنت لا ترى الشيء بكليته إنْ نظرت إليه وأنت بداخله بل لا بد أنْ يكون بينك وبينه مسافة مكانية، وهذا بالفعل ما تصوره الآية الكريمة عند استخدام اللفظ "يعرض على":

- ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾ [الشورى: 45]

فلو كانت الرؤية جزءاً من عملية العرض لكانت العبارة " يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّۗ " غير مبرره في هذا السياق، ولكن ما دام العرض حدثاً والرؤيا حدث آخر منفصل كان الاستخدام مبررا.

**ثالثاً**، إذا كانت عملية عرض آل فرعون على النار هي عذاب يصيبهم (كما يدعي الكثيرون) فلم يتوقف العذاب بعض الوقت؟ ألا تذكر الآية الكريمة أنّ العرض غُدُوًّا وَعَشِيًّا؟ فما هي حالهم ظهراً وعصراً؟ أليس ذلك إذاً تخفيفاً للعذاب؟ وهل يتوقف عذاب جهنم عن الكافرين ولو لحظة واحدة؟ ألا يصطرخ الكافرون ليتوقف العذاب عنهم بعض الشيء:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾ [البقرة: 86]
- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة: 162]
- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨﴾ [آل عمران: 88]

- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾ [النحل: 85]

ألم يقل الله تعالى

- ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: 74-75]
- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ۝٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر: 36-37]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ [غافر: 49-50]

فبتدبر الآية الكريمة التالية ندرك أنّ مجرد رؤية الكافرين (الظالمين) عذاب جهنم لا ينقطع عنهم أبدا:

- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾ [النحل: 85]

وهذا يدلنا أنّه إذا رأى آل فرعون (وغيرهم) العذاب عندما يعرضون عليها لا ينقطع العذاب ولا يخفف عنهم، فكيف إذاً نفهم قوله تعالى في السياق نفسه النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا؟ وتؤكد الآية نفسها أنّ الكافرين إذا رأوا العذاب لا ينظرون، أي لا يؤجل عنهم لحظة واحدة، فهاهو إبليس يطلب من ربه التأجيل فيقول:

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: 36-38]

إنّ هذا يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً أنّ آل فرعون يعرضون على النار ولكنهم لا يرونها لأنه بمجرد الرؤية يستمر العذاب ولا ينقطع أبدا.

وقد يقرأ البعض قوله تعالى " النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا" على أنها تدل على أن العذاب مستمر وليس متقطع، فبالنسبة لهم يدل التعبير غُدُوًّا وَعَشِيًّا على الاستمرارية، ف لهؤلاء نورد الآيات الكريمات التاليات:

- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم: 17-18]

فما المقصود إذاً بقوله تعالى " حِينَ تُمۡسُونَ " و " وَحِينَ تُصۡبِحُونَ " و "وَعَشِيّٗا " و " وَحِينَ تُظۡهِرُونَ"؟
ثم أين الضحى وأين الليل بطوله، وأين دلوك الشمس وأين غسق الليل؟ أليست هي أوقات اليوم والليلة؟ ألم تُذكر جميعها في كتاب الله؟ وإنْ كان كذلك، فماذا ستكون حال آل فرعون في تلك الأوقات؟

أما عملية العرض المتقطعة فتكون للنار نفسها، فالفعل المضارع " يُعۡرَضُونَ " يدل هنا أنّ الحدث يحصل متقطعاً ولكنه متكرر بدليل قوله تعالى "غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ" وليس على سبيل الدوام، وأما عذاب جهنم فهو غير منقطع ولا متوقف، فالعرض يكون على النار لتنظر زبائنها غدواً وعشياً كصاحب السلعة الذي يتفقد بضاعته صباحاً ومساءاً.

**رابعاً**، لقد ورد في كتاب الله الكريم إنّ عملية عرض الكافرين على النار لن تكون لآل فرعون فقط، وإنما لكل من كفر بربه، قال تعالى في محكم التنزيل:

- ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ ٣٤﴾ [الأحقاف: 34]

فعملية العرض على النار تسبق عملية الدخول في العذاب، ولعل القارئ قد أدرك بنفسه أنّ هذا الحوار الذي يوجه إلى الكافرين سيكون ليس وهم في قبورهم وإنما حدث من أهوال يوم القيامة، والقارئ مدعو لعقد مقارنة بين هذه الآية الكريمة وآية عذاب آل فرعون، ونعيدهما معاً لتعقد المقارنة بسهوله:

- ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ ٣٤﴾ [الأحقاف: 34]
- ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]

ففي الآية الأولى نجد أنّ العرض يحدث في يوم ما، أما في الآية الثانية فالعرض متكرر، وسؤالنا هو: ما الفرق؟ كيف تؤكد الآية الأولى أنّ العرض يحدث في يوم واحد ويتم بعدها دخول الكافرين في النار بينما تؤكد الآية الثانية تكرار عملية العرض غدواً وعشياً حتى يأتي يوم الدخول في أشد العذاب؟ فهل هناك عرضان على النار؟ وإن كان كذلك فكيف يختلف العرض الأول عن العرض الثاني؟ إنّ جل القول هو أنّ العرض على النار ليس عذاب فعلي في النار لأنهم لا يرونها بينما تراهم هي، ويصبح ذلك عذاب عندما يرى الكافرون النار بدليل الآية التي أوردناها سابقاً:

- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥﴾ [النحل: 85]

ولكن ماداموا في قبورهم فهم يعرضون على النار فتراهم النار وليس بالضرورة أنْ يروا هم النار، وقد يقول قائل كيف ترى النار الكافرين؟ فنرد بالقول من كتاب الله:

- ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: 11-12]

وهو نفس التشخيص الذي نجده في صور أخرى لجهنم:

- ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾ [ق: 30]
- ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾ [الملك: 7-8]

نعم هي تلك جهنم التي تستعد وتتهيأ وتنتظر الكافرين، هي نفسها التي يعرض عليها الكافرون وهي نفسها التي يعرض عليها آل فرعون. ولا ننسى كذلك أنّ الله قد عرض مثلاً الأمانة على مخلوقات له كالسموات والأرض والجبال، قال تعالى:

- ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: 72]

فكما تم عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال تم كذلك عرض آل فرعون على النار، فهل بالضرورة أنْ تكون الأمانة (المعروض) قد رأت السموات والأرض والجبال (المعروض عليهم)؟!

**ولكن يبقى السؤال التالي**: متى يعرض آل فرعون (لا بل كل الكافرين) على النار؟ ويأتي الجواب جلياً لا لبس فيه في سورة الحاقة التي تصور عملية عرض آل فرعون أجمل تصوير، ولنتدبر ذلك المشهد بتمعن مركزين على فكرة العرض:

- ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩﴾ [الحاقة: 9]
- ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠﴾ [الحاقة: 10]
- ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: 11]
- ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾ [الحاقة: 12]
- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾ [الحاقة: 13]
- ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤﴾ [الحاقة: 14]
- ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥﴾ [الحاقة: 15]
- ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦﴾ [الحاقة: 16]
- ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ [الحاقة: 17]
- ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾ [الحاقة: 18]

ففي قوله تعالى " يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ " لا شك يحدث العرض ويكون ذلك عندما تقع الواقعة " فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ "، وستقع الواقعة يوم " فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ " ، ويكون المشهد على النحو التالي:

⇐ ينفخ في الصور نفخة واحدة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾
⇐ فتقع الواقعة ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾
⇐ يعرض الكافرون (بما فيهم آل فرعون) ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾

وهذا يعني أنّ عملية العرض تتم بعد النفخة الأولى (أي يوم أنْ تقع الواقعة)، فكلمة يَوۡمَئِذٖ في قوله يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ تعود بلا شك على كلمة يَوۡمَئِذٖ في قوله فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ، ولكننا نعلم أنّ هناك نفخة أخرى في الصور

- ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: 68]

ففي النفخة الأولى يصعق من في السموات والأرض وفي الأخرى يقوم الناس لينظروا، ولاحظ عزيزي القارئ أنّ عملية "العرض" تتم بعد النفخة الأولى وهذا يعني أنّ الكافرين (وعلى رأسهم آل فرعون) سيعرضون على النار في ذلك الوقت، وفي هذا عدل إلهي أنْ يتم عرض جميع الخلق من الكافرين على النار في وقت واحد وهو الوقت الذي لا يبقى فيه أحد على قيد الحياة - لقد شغلت هذه المسألة فكر كثير من الناس متسائلين عن العدل الإلهي في أنْ يقع العذاب على الناس في قبورهم بعد أنْ يموتوا مباشرة، وتساؤلهم ملخصه: كيف أنّ هناك أناس يتعذبون في قبورهم منذ بدء الخليقة بينما يقع العذاب على غيرهم بعد الآلف السنين ولنفس السبب ليس إلا لأنهم خلقوا بعدهم؟ لقد كانت ردة فعل الفكر الإسلامي المعاكس أنّ الرد يكمن في اختلاف وتنوع أصناف وشدة العذاب، ولكننا نظن أنهم غفلوا عن السؤال التالي: ماذا لو كانوا يعذبون لنفس السبب كالكفر مثلاً، فهل يتفاوت عذاب الله على من يعذبوا لنفس السبب؟ إنّ تبني الفكر الذي نطرحه يحل هذه الإشكالية برمتها، وذلك لأنّ عملية عرض الكافرين على النار تتم لكافة الخلق في الوقت ذاته، ويكون ذلك بعد النفخة الأولى في الصور، يوم يصعق من في السموات والأرض وهو يوم أنْ تقع الواقعة، وفي هذا عدل إلهي أنْ يتم الحساب والعقاب بنفس الطريقة والدرجة على من أرتكب نفس المعصية دون الرجوع إلى تفاوت العامل الزمني في الخلق والموت.

وهو الوقت نفسه الذي تتحضر جهنم (أعاذنا الله وإياكم منها) لاستقبال زبائنها، ولكنهم سيدخلون في أشد العذاب يوم تقوم الساعة، وسنحاول بعد قليل أن نبين الفرق بين الواقعة (النفخة الأولى) والساعة (النفخة الثانية).

إننا ندعي أنّ الساعة هي النفخة الثانية، وذلك لأنّ فيها يقوم الناس لربهم:

- ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ [الأنعام: 31]
- ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف: 36]

- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: 55]
- ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: 18]

وبعدها يحصل الحساب:

- ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: 15]

ولنرقب الدقة القرآنية في آية عذاب آل فرعون في قوله تعالى:

- ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: 46]

لاحظ عزيزي القاري كيف تصور الآية الكريمة عملية العرض من الناحية الزمنية على أنّها حدث سابق للساعة، ففي الحدث الأول الذي يصوره الشطر الأول من الآية تتم عملية العرض:

- ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ

ويصور الشطر الثاني من الآية الكريمة الانتقال إلى يوم تقوم الساعة:

- وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ

فدخول آل فرعون أشد العذاب -بنص الشطر الثاني من الآية الكريمة- ليس عندما ينفخ في الصور نفخة واحدة (الواقعة) وإنما عندما تقوم الساعة، فالانتقال الذي تصوره الآية الكريمة لـ آل فرعون من عملية العرض إلى عملية الدخول في أشد العذاب يكون من حالتهم بعد النفخة الأولى (العرض على النار) إلى حالتهم يوم تقوم الساعة (دخولهم أشد العذاب) وليس بين حالتهم في القبر الآن وحالتهم يوم القيامة، وإلاّ كيف يمكن ربط ذلك بقوله تعالى:

- ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: 90-92]

وسؤالنا هو: كيف يتعذب آل فرعون في قبورهم وزعيمهم وكبيرهم وسيدهم لا يمس بدنه العذاب؟ وقد يرد البعض (وقد ردوا فعلاً) بالقول: ولكن ليس بالضرورة أنْ يكون العذاب جسدياً، فالله يتخيّر نوع العذاب الذي يريد، فيعذب بما يشاء لتتنوع أشكال العذاب وأصنافه، فنرد على من يظن ذلك قائلين: وماذا نفعل إذاً بقوله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: 56]
- ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: 19-20]

ولنرقب آية عذاب آل فرعون:

- ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ

أليست هي إذاً النار نفسها؟ فكيف نفهم أنّ عذاب الكفار في النار يقع على جلودهم وعذاب النار على آل فرعون عذاب معنوي يقع عليهم كذلك الذي يقع على النائم إنْ رأى في منامه ما يتعبه؟! أهما إذاً ناران مختلفتان؟ إنّ عذاب النار (سواءً لآل لفرعون أو لغيرهم) عذاب حقيقي وهو عذاب الجسد، وإذا كان آل فرعون يتعذبون الآن في جهنم كما يظن من يقرأ آية عذاب آل فرعون فلابد أنهم يتعذبون بأجسادهم، وسؤالنا هو: كيف يكون ذلك وزعيمهم الآن ناجٍ ببدنه؟!

والأغرب من ذلك ربط ذلك بالصورة التي وردت في كتاب الله لمن يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله، ألم يتوعدهم الله بأنْ ستكوى بها جباههم وجلودهم وظهورهم؟

- ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: 35]

ومن أكثر أموالا (ذهباً وفضة) من قارون – أحد أكبر رجال بلاط فرعون؟

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: 76]
- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: 39]
- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: 24]

فهل يا ترى جسد قارون كذلك (كصاحبه فرعون) في إجازة الآن، فيتعذب عذاباً معنوياً؟

**رابعاً**، لا بل إننا بحاجة أنّ نقرأ آية عذاب آل فرعون في سياقها الأوسع فلنورد الآيات التي تليها ونتدبرها:

- ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾ [غافر: 46-48]

فمتى سيتم التحاجّ في النار: هل عندما يعرضون على النار أم عندما يدخلون في أشد العذاب؟ وإذا كان الجواب بلا شك –كما تصوره الآية الكريمة- عندما يدخلون في أشد العذاب، فلِمَ سكتوا كل تلك الفترة الطويلة؟ لِمَ لَمْ يتم التحاج أثناء عملية العرض إنْ كان ذلك العرض عذاباً؟ فنحن نعرف أنّ الناس يتحاجون في الشيء في أوله، فعندما يتبين الأمر تكون ردة فعل الناس الأولى هي التحاج فيما بينهم، وإذا كان آل فرعون يعذّبون في النار في قبورهم عندما يعرضون عليها فلم لم يحصل بينهم تحاج طوال فترة العرض ولا يتم ذلك إلاّ بعد دخولهم في أشد العذاب يوم تقوم الساعة؟ إننا نعتقد أنّ عدم حدوث التحاج بينهم أثناء عملية العرض على النار لأنّهم يكونون حينئذ رقوداً في قبورهم فلا يحصل بينهم اللقاء، و يكون لقائهم الأول يوم أنْ يدخلوا في أشد العذاب يوم تقوم الساعة.

ولا ننسى كذلك أنّ التحاج يكون بين الفئة المستضعَفة والفئة المستضعِفة، وحتى يتم التحاج لابد من وجود سيدهم الأكبر الذي كانوا هم له تبعا، فكيف سيتم ذلك اللقاء وهو الآن ناج ببدنه؟! ونحن نعتقد استحالة أنْ يحضر فرعون مع قومه ليتم التحاج بينهم فيكون هو ناج من العذاب ببدنه بينما هم يعذبون في النار! ويأتي التأكيد على ذلك في الآية التالية مباشرة:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾ [غافر: 48]

فالذين استكبروا وعلى رأسهم فرعون وهامان وملائهم هم جميعا مع قومهم فيها، والعذاب واقع عليهم جميعا، فيتحاجون في النار عندما يجتمعون فيها. وسيكون ذلك بصريح اللفظ القرآني على النحو التالي:

- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: 97-98]

فلنتدبر ألفاظ الآية الكريمة لنجد فرعون، ونجد قومه، ونجد النار، ونجد يوم القيامة، وهي جميعها مفردات عذاب فرعون قومه، ونجد كذلك التأكيد على فكرة أنّ فرعون نفسه هو من سيتقدم قومه إلى مصيرهم في النار يوم القيامة " يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ ".

## الدليل الثاني

لقد اقتبس الكثيرون الآية القرآنية التالية كدليل على عذاب القبر، قال تعالى:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: 93]

إننا ندعي أنّ الآية الكريمة لا تتحدث عن عذاب القبر وإنما هو مشهد من أهوال يوم القيامة، ودليلنا على ذلك يأتي من الآية الكريمة نفسها.

أولاً، جاء في الآية الكريمة أنّ الظالمين في غمرات الموت " وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ"، وسؤالنا يخص معنى كلمة غَمَرَٰتِ، فمتى يكون الظالمون في غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ؟ لا شك أنّ كلمة غَمَرَٰتِ مشتقة من الفعل "غمر" كما في قولنا "غمر الماءُ الرجلَ" أي أصبح الماء يحيط به من كل جانب، وإنْ دلّ هذا على شيء فهو يدل أننا لا نتحدث هنا عن سكرات الموت (كما ظن البعض) لأنّ الموت لم يغمر الإنسان كلياً في هذه اللحظة بعد، ولو كانت تعني سكرات لوردت لفظة سكرات نفسها بدل غمرات بدليل أنّه في مكان آخر من كتاب الله جاء قوله عز وجل على النحو التالي:

- ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: 19]

فما الذي يمنع أنْ تأتي على صيغة الجمع "سكرات" بدلاً من كلمة "غمرات" لو كان ذلك هو المعنى المقصود؟ إننا نعتقد أنّ كلمة غمرات لا علاقة لها بسكرات بل هي مفردة لها معناها الذي لا يمكن لمفردة أخرى أنْ توفيه.

ثم لنتدبر استخدام اللفظ بصيغة الجمع، وهذا يدل أنّ الغمر أصبح كثيفاً وكبيراً ولا يتم ذلك إلا بعد أنْ يكون قد قطع زمناً طويلاً في هذه الحالة.

ثانياً، لقد جاء في نص الآية الكريمة أنّ الملائكة تطلب من الظالمين أنْ يخرجوا أنفسهم وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ، ولو كان ذلك عند حدوث الموت لعلمنا –حسب معتقدنا- أنّ هناك ملكاً واحداً للموت فلِمَ وجود جمع الملائكة؟ فالآية إذاً لا تتحدث عن ملك الموت وإنما عن ملائكة العذاب.

**ثالثاً**، لقد جاء طلب الملائكة على نحو أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ، ونحن نعلم أنّ الخروج يعني الانتقال من مكان إلى مكان، وغالباً ما يكون من الداخل إلى الخارج (ولنا العبرة في قصة خروج إبليس من الجنة)، فكيف إذاً بالميت أنّ يخرج وهو في تلك اللحظة سيدفن، أي سينتقل من الخارج إلى الداخل، فما هو الخروج الذي تتحدث عنه الآية الكريمة؟ لعل الكثيرون ظنوا أنّها خروج الروح من الجسد، فنقول كلا وألف كلا، إنّ نص الآية الكريمة بصريح اللفظ يدل على خروج النفس وليست الروح، ونحن نفهم بالمنظور الإسلامي أنّ النفس غير الروح وسنتعرض لذلك عند الحديث عن الجسد والروح والنفس معاً، ويكفي هنا أنْ نورد الآية الكريمة التالية لتأكيد فكرة أن الروح غير النفس مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧﴾ [التحريم: 6-7]

لاحظ عزيزي القارئ كيف تتحدث هذه الآيات عن عذاب النفس ووجود ملائكة العذاب، وعن كيفية الجزاء وهذا اليوم الذي سيحصل فيه كل ذلك، فهل يكون ذلك كله في القبر أم في يوم القيامة.

وليتيقن القارئ أنّ النفس غير الروح ندعوه لتدبر الآيتين التاليتين:

- ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: 20-21]
- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]

ففي حين أنّ الله يطلب منا التدبر والإبصار في النفس، يستحيل ذلك في أمر الروح لأنّها من أمر ربنا.

**رابعاً**، هل تعود كلمة اليوم في قوله تعالى "فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ "، وفي قوله تعالى لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ على يوم الموت أم على يوم الحساب والعقاب؟

**خامساً**، ولنتدبر الآية الكريمة التي تتحدث عن " عَذَابَ ٱلۡهُونِ "،

- ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾ [الأحقاف: 20]

ونلفت انتباه القارئ الكريم إلى التطابق العجيب بين هذه الآية الكريمة والآية السابقة التي نحن بصدد فهمها، ونعيد الآيتين معاً لتتم المقارنة بسهولة ويسر:

- ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾ [الأحقاف: 20]
- ﴿... وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: 93]

بعد كل ذلك يأتي سؤالنا: متى يكون " عَذَابَ ٱلۡهُونِ " إذاً: في القبر أم يوم القيامة؟

## الدليل الثالث

ولا بد أيضاً من تسليط الضوء على آية أخرى غالباً ما استخدمت للتدليل على وجود عذاب في القبر، قال تعالى:

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ [الأنفال: 50]

ففى هذا دليل -كما ظن الكثيرون- على عذاب القبر، أليس كذلك؟ فهم يعتقدوا أنّ الملائكة يبدءون ضرب الكفار لحظة الموت، فنقول كلا وألف كلا، لأنّ في ذلك عدم دقة في فهم معاني مفردات الآية نفسها، فنحن نعتقد أنّ الضرب يحدث بعدما يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ- وذلك بنص الآية نفسها- وليس عندما يموت الكافر مباشرة، وقد يرد البعض على الفور بالقول: وما الفرق؟ نقول أنّ الملائكة-كما ورد في الآية نفسها- لا تميت الكفار وإنما تتوفى الكفار، وهذان معنيان مختلفان، فالإنسان يموت والإنسان يتوفى، ونحن بحاجة للتفريق بين الحالتين، ودليلنا على ذلك قوله تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الزمر: 42]

**وسؤالنا هو**: كيف يتوفى الله الأنفس حين موتها؟ فهل يعني ذلك أنّ الله يميت الأنفس حين موتها؟ أليس في ذلك تناقض؟ وإنْ كان كذلك، فما فائدة اللفظ إذاً؟ والأهم من ذلك كيف ستقرأ الآية نفسها؟

لقد دأب الكثيرون على قراءة الآية بالوقف بعد قوله تعالى حِينَ مَوْتِهَا وبالوصل عند قوله فِي مَنَامِهَاۖ وذلك بدليل إشارة الوصلۖ، فقسموا الآية عند ذلك، فنقول كيف سيستقيم المعنى إنْ قرأت الآية على ذلك النحو

- ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا.
- وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

إننا نعتقد أنّ ذلك غير صحيح، فليس هناك وقف في هذا الموضوع وليس هناك وصل في ذاك، فالوقف يجب أنْ يكون بعد قوله تعالى "فِي مَنَامِهَا" (أي عند إشارة الوصل) حتى يستقيم المعنى ويتوازن طرفا الآية الكريمة على النحو التالي:

- ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا / وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ

لذا يجب تصحيح الرسم القرآني هنا بإبدال علامة الوقف أولى ۖ بعلامة الوصل أولى ۖ.

- فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ / وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ...

فيستقيم المعنى ويتوازن طرفيا الآية الكريمة، وبهذا يكون المعنى أنّ الله يتوفى (1) ﴿ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ وهو كذلك يتوفى (2) ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾، وبذلك يفهم الحذف الموجود في الآية، فكلمة يتوفى موجودة في الطرف الأول ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، ولكنها محذوفة تقدر في الطرف الثاني من شطر الآية الأول ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾

وبهذا يستقيم المعنى في الشطر الثاني من الآية الكريمة، فالله (1) ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾، وهو سبحانه (2) ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾

فنخلص إلى القول أنّ الوفاة إذاً تحدث للطرفين (1) للأنفس التي قضى عليها الموت و كذلك (2) للأنفس التي لم تمت في منامها، ودليلنا على ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾ [الأنعام: 60]

فهل يموت الإنسان عندما ينام، كلا إنها الوفاة فقط.

وإنْ صح هذا الإدعاء فإننا نفسر بذلك حقيقة جدلية أعيت الكثيرين في قوله تعالى:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥﴾ [آل عمران: 55]
- ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: 117]

فهل فعلاً مات عيسى بن مريم؟ كلا وألف كلا، وهل عيسى بن مريم إذاً حي لم يمت؟ كلا وألف كلا، هذه أحجية، أليس كذلك؟ إننا نفهم أنّ عيسى ليس ميتاً وهو ليس حياً كذلك، وإنما توفاه الله، فلم يرد في كتاب الله أنّ عيسى قد مات وإنما ورد أنّه توفي، ولنتدبر الدقة القرآنية في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: 116-117]

**وسؤالنا هو**: هل فعلاً كان عيسى ابن مريم شهيداً على الناس حتى يقول عن نفسه "وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ "؟ أليس الله هو الشهيد والرقيب على الناس جميعاً؟ فيرد البعض على الفور بالقول لم لا يكون شهيداً عليهم ما دام فيهم؟ فلا ضير في ذلك، فنرد بالقول إذا كان عيسى بن مريم لازال حياً (كما يعتقد الكثيرون) فلم لا تستمر شهادته عليهم؟! لم انتقلت الرقابة إلى ربه يوم أنْ توفاه الله؟ الجواب-كما نظن- لأنه ليس حياً الآن بل هو متوفى؟ فهل يستطيع من يتوفاه الله بالليل (كما في قوله تعالى وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ) مثلاً أنْ يقوم بأعمال الشهادة أو الرقابة؟ فلب القول أنّ عيسى لا يستطيع القيام بأعمال الشهادة على قومه لأنّه ليس حياً، فمثله كمثل النائم الذي يسقط عنه عبء الرقابة حتى يستيقظ.

وهذا الإدعاء يسلط الضوء أيضاً على جدلية عودة عيسى بن مريم للحياة "إي نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان"، فلقد شكك البعض بهذه الحقيقة، وتساءل الكثيرون عن سبب عودة ابن مريم على وجه الخصوص، وظن البعض أنّ ذلك تكريماً له من دون أنبياء الله ورسله، فنقول أنّ كل ذلك غير صحيح، والسبب - كما نظن - هو لأنّ عيسى بن مريم متوفى. ففي ذلك تحقيقاً وليس خروجاً عن نواميس الكون، فمن توفي بالليل يستيقظ بالنهار (إن لم يمت بالطبع)، أليس كذلك؟ ومادام عيسى بن مريم متوفى (وهو لم يمت) لا بد أنْ يستيقظ وإنْ طالت الفترة الزمنية، فها هم أهل الكهف يستيقظوا من سباتهم بعد أنْ لبثوا ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعا.

إنّ الفهم الدقيق لألفاظ القرآن يزيل – لا شك- الإبهام الذي يصادف الكثيرين، وما أهمنا هنا هو التفريق بين أنْ يكون الشخص متوفى أو أنْ يكون ميتاً، فالوفاة تحدث للميت وللحي.

وسنرى في بحث لاحق أنّ الوفاة تكون بتعطيل عمل المستقر والموت يكون بتعطيل عمل المستقر والمستودع، قال تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾ [الأنعام: 98]

فالنفس البشرية تتكون من مستقر (وهو القلب) مستودع وهو العقل ( أو المخ بتعبير أدق)، فعندما يتوفى الإنسان يتوقف عمل القلب (ولا أعني هنا أداة ضخ الدم وإنما أداة التفكير واتخاذ القرار) ولكن عندما يموت الإنسان يتوقف عمل القلب (أداة التفكير واتخاذ القرار) والمخ (أداة التخزين واسترجاع المعلومة). والقلب هو المستقر (أي المكان) الذي تمكث فيه المعلومة لفترة وجيزة حتى يتم اتخاذ القرار، ولما يحدث ذلك تنتقل المعلومة إلى المستودع، فالأرض مستقر لأننا نمكث فيها فترة وجيزة، قال تعالى:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]

فنحن نفهم أنّ عيسى عند الله متوفى (أي معطل عنده عمل المستقر كالنائم مثلا، لكنّ مستودعه لازال يعمل وبالتالي فعندما يعود إلى الأرض يرجع له المستقر عاملاً كما كان (وسنتحدث عن دقائق الأمور في هذا الشأن –بحول الله وتوفيقه- في بحث مستقل عند الحديث عن النفس والروح والجسد)

نعم إننا نفهم معنى توفي الذي جاء في آية عذاب الملائكة للكافرين على نحو ما جاء في كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: 281]
- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾ [آل عمران: 161]

نخلص إلى النتيجة أنّ الملائكة لا ولن يضربون الكفار إلا بعد أنْ " تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ " ولا يكون ذلك إلاّ بعد الحساب، ولنتدبر الآية مرة أخرى متسلحين بهذا المعنى، قال تعالى:

- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠﴾ [الأنفال: 50]

إنها الصورة نفسها التي تتكرر في قوله تعالى:

- ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾ [الحاقة: 25-32]

ويكون ذلك بعد أنْ يتلقى الكافر كتابه بشماله فتؤمر الملائكة بأخذه إلى عذاب الحريق.

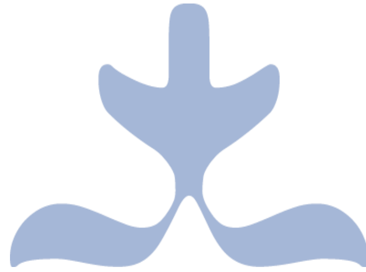
## الخاتمة

لقد حاولنا في هذه العجالة تسليط الضوء على قضية جدلية في الفكر الإسلامي من منظور لغوي بحت، ألا وهي جدلية عذاب القبر، فاجتهدنا في تقديم الدليل على استحالة وجود عذاب في القبر على مرحلتين، كانت الأولى تتلخص بجمع الأدلة من بعض آيات القرآن الكريم التي يتعارض فحواها – حسب فهمنا لها- مع القول بوجود عذاب في القبر، ولذا قدمنا منطوق النصوص القرآنية على فحوى بعض الأحاديث المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم والتي تتعلق بعذاب القبر، والتي بيّنّا في مكان آخر أنها لا تتناقض فقط مع ما نفهم من منطوق الآيات القرآنية وإنما مع نصوص الأحاديث نفسها، والتي لم تنقل للعامة بالموضوعية التي لا بد أن ترتبط بالنقل عن رسولنا الكريم، فنحن نؤمن إيماناً يقينياً أنْ ليس هناك في سيرة محمد بن عبد الله ما يجب إخفاءه، فهو نفسه يقول تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي، ولكنه في الوقت نفسه يحذر من يكذب عليه أن يتبوأ مقعده من النار، وكانت المرحلة الثانية تتمحور حول تبيان أنّ الدليل القرآني الذي قدمه الأقدمون لإثبات إدعائهم بجود عذاب في القبر قد أسيء فهمه، وحاولنا مناقشة مفردات ثلاث آيات كريمات تم إشغال ذهن العامة في فكرة مستوحاة منهم على نحو ما لا تعني مفرداتهم إطلاقاً.

**أسأل الله أن أعلم منه ما لا تعلمون، وكفى بالله رقيبا. وكفى بالله شهيدا،**

**وكفى بالله وكيلا، وكفى بالله حسيبا، وكفى بالله نصيرا.**

بقلم د. رشيد الجراح
مركز اللغات، جامعة اليرموك، الأردن، 2009



# كتاب الجدليات

## مصادر التشريع في الفكر الإسلامي



# مصادر التشريع في الفكر الإسلامي

لقد أنشغل أهل العلم بالمصادر التي يرتكز عليها في استنباط التشريعات، العقائدية منها والفقهية، في الدين الإسلامي، وكانت خلاصة بحثهم عبر السنوات تتلخص في الاعتقاد الجازم بأن مصادر التشريع الرئيسية في الفكر الإسلامي هي أربعة مرتبة تنازلياً على النحو التالي:

1. القرآن الكريم
2. السنة النبوية
3. الإجماع
4. القياس

فأهل العلم يعودون أولاً إلى كتاب الله للتدليل على التشريعات (المستنبطة) التي يقدّمونها للناس، فإن تعذر عليهم حل الإشكال من القرآن الكريم لجاءوا إلى المصدر الثاني من مصادر التشريع وهو الحديث الشريف، فإن أشكل الأمر عليهم ذهبوا إلى إجماع أهل العلم وفي مقدمتهم صحابة رسول الله، وإن تعذر الأمر عليهم راح كل عالم منهم يقدّم رأيه بالدليل المقاس على الأحكام الأخرى. وبقي هذا منهج أهل العلم لقرون عديدة، وقلّ من يشكك بمثل هذه المنهجية من بين أبناء المسلمين، ونحن –كغيرنا- إذا لا نشكك بهذه المنهجية إلاّ أننا نود أن نسلط في بحثنا هذا الضوء على الإشكالية التي نجمت عن التطبيق العملي لهذه المنهجية عند أهل العلم عبر العصور، ضانين بأن الغلط الذي حصل في التطبيق نجمت عنه أثار سلبية عديدة نذكر منها على سبيل المثال: (1) ركود الفكر الإسلامي وجموده لقرون طويلة و (2) تفتت الأمة إلى فرق وجماعات متصارعة ومتناحرة فيما بينها و (3) زج الناس في إشكاليات أصبح من المتعذر مع مرور الزمن التغلب عليها، وهذا ما سنحاول تبيانه في بحثنا هذا.

إن مراد القول هنا هو أنّ الفكر الإسلامي الذي وضع إطاراً نظرياً ليتمسك به كمرجعية ثابتة يهتدي بها من تصدى للتشريع هو نفسه الذي نقض ذاك الإطار النظري عند التطبيق، وبكلمات أكثر دقة فإننا نقول أن الفكر الإسلامي يرتب مصادر التشريع ترتيباً تنازلياً يبدأ بالقرآن الكريم وينتهي بالقياس، معتبراً أن الدليل المشتق من القرآن الكريم مقدماً على الدليل المأخوذ من السنّة المطهرة والتي بدورها مقدمة على الإجماع أو حتى القياس، ولكنّ الإشكالية تكمن أنه مع مرور الزمن استقرت كثير من تلك الأحكام والتشريعات بغض النظر عن الدليل الذي استندت إليه، لتأخذ تلك المصادر أهمية (تكاد تكون) متساوية عند التطبيق، فالتشريعات المستنبطة التي استندت إلى الدليل من السنة المطهرة أو إلى إجماع أهل العلم أو حتى القياس قبل مئات السنين لم ينقضها الدليل من القرآن الكريم حتى بعد حصول التشكيك في تلك التشريعات والدليل الذي ذهب إليه، ولتبسيط الفكرة فإننا نقول: لقد ظهر في الفكر الإسلامي (عند أهل السنة والجماعة مثلاً) مذاهب أربعة رئيسية وهي المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية، ولم تتفق تلك المذاهب الفقهية حول كثير من التشريعات العقائدية والفقهية، والغريب في الأمر هو أن سلوك أهل العلم لم يتمثل في تمحيص تلك الاختلافات على مر الزمان وإنما اكتفوا بالقبول بها كما هي، وأخذوا ذلك من باب القول (الذي نظن أنه قول خاطئ) أن اختلاف الأئمة رحمة بالأمة. وبكأن لسان حالهم يقول لا ضير في الاختلاف حول هذه الأمور. وقد روّج كثير من أهل العلم لهذا الاختلاف وجعلوه (في نظرهم) مصدر قوة في العقيدة،

وتغنوا بذلك في كتاباتهم ومؤلفاتهم، ونحن لا ننكر عليهم صنيعهم هذا وحسب، بل نعتقد جازمين أن تلك لم تكن أكثر من أكذوبة استخدمها أهل العلم لتسويق بضاعتهم الفاسدة على الناس (وخصوصاً العامة منهم)، وهذا هو موقفنا الذي سنحاول الدفاع عنه في هذه المقالة.

إن هذا المبدأ نابع من عقيدة مفادها أن الاختلاف بين أهل العلم أمر مذموم في النص القرآني مصداقاً لقول الحق في أكثر من سياق في كتابه الكريم:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾ [البقرة: 176]
- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]
- ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [البقرة: 253]
- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

وقد جاءت الدعوة صريحة في القرآن الكريم إلى الابتعاد عن الاختلاف في الدين، فقال تعالى:

- ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: 105]

وذلك لأن الاختلاف لا ينبع من حقيقة الدين نفسه وإنما من إتباع الناس لظنهم وأهوائهم:

- ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾ [النساء: 157]
- ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية: 17-18]

فطريق الناس جميعاً إلى الله هي طريق واحدة لا تحتمل الاختلاف:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾ [يونس: 19]

ولكن الاختلاف نبع من عند الناس أنفسهم، وليس من الكتاب الذي أنزله الله على أنبيائه ورسله:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود: 110]
- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت: 45]

وذلك لأن الله قد أنزل الكتاب أصلاً لتبيان الأمور التي اختلف الناس فيها:

- ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: 64]

وقد طلب الله منا أن نرد كل ما اختلفنا فيه إليه:

- ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: 10]

وما ظهر التحزب في أمة إلا بسبب الاختلاف، فكانت العاقبة عند الله وخيمة:

- ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: 37]
- ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف: 65]

إن العقيدة التي نؤمن بها تؤكد أن سبيل الله واحدة لا مجال للاختلاف فيها، قال تعالى:

- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: 108]

فسبيل أهل العلم يجب أن تكون واحدة، وهم لن يعدموا سلوكها إن هم طلبوها وبحثوا عنها:

- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: 19]
- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإنسان: 29]

فالهداية إلى الحق لا محالة حاصلة للذين امنوا:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: 213]

دعاء: رب اهدني لما اختلف فيه الناس من الحق بإذنك

ولكنها أبعد ما تكون عن من ابتعد عن الطريق ولم يطلبها:

- ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء: 88]

## خلاصة:

نحن نفهم من مجمل هذه الآيات الكريمة أن في الاختلاف ضياع للحقيقة التي نبحث عنها، وما دام أن الحقيقة صادرة من إله واحد، فإن للإله سبيل واحدة لا يجوز تسويق فكرة الاختلاف فيها، وأهل العلم مطالبين بالبحث عن تلك الحقيقة وليس الوقوف عند اختلافاتهم، أو قبول تلك الاختلافات على أنها تحمل جميعها الحقيقة التي انطوت عليها شريعة الله. إنّ الدعوة التي نقدمها تتمثل فيما يلي: عندما نفتح كتب الأحكام ونجد فيها اختلافاً في الاستنباط فلابد أن نخلص إلى نتيجة بسيطة مفادها أن الحقيقة لم تستجلى بعد، ولا بد من تكثيف البحث في الموضوع لتجلية الحقيقة التي لا اختلاف فيها، فلا يجب إذاً أن نقف عند هذه الاختلافات وكأنها أراء جميعها صحيحة، لأنّ الوقوف عند الاختلافات والظن بصحتها تؤدي – في رأينا- إلى نتائج كارثية في مقدمتها تفتت الأمة إلى مذاهب وفرق متصارعة متناحرة تسعى كل طائفة وكل فرقة إلى الترويج لفكرهم ويكأنهم الفرقة الناجية، فعلى الرغم من الترويج لفكرة الاختلاف في الفكر الديني الإسلامي إلا أن الواقع الحقيقي لهذه الأمة يدل على تعصب أعمي يقفل القلوب ويغشي الأبصار ويصم الآذان، يظن كل طرف أنه هو من يملك الحقيقة المطلقة، وأن غيره ليس أكثر من ضال مضل (يؤسف لحاله، ويخشى عليه من الهلاك والانتهاء في نار السعير)، وموقفنا هذا لا يتطلب جهدا كبيرا لإثباته، فنظرة سريعة على حال الأمة تدعوك إلى التساؤل عن السبب الذي أدى بها إلى هذا التشرذم العقائدي (بالضبط) كما حصل عند الأمم السابقة، وهي الهوّة التي حذرنا الله من الانزلاق فيها:

- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: 105]

## ما هو المخرج؟

إننا نظن أن المخرج الحقيقي من أزمة الأمة الفكرية هذه يتمثل في العودة إلى مصادر التشريع والالتزام ليس فقط بها كمصادر موثوقة بل والالتزام كذلك بالترتيب الذي بنيت عليه في الأساس، فهذه المصادر هي على النحو التالي:

1. القرآن الكريم
2. السنة النبوية
3. الإجماع

4. القياس

وقد يقول قائل وما الجديد في ما تقول؟

**الجواب**: إننا نظن أن الالتزام بهذا الترتيب لمصادر التشريع يعني أن القرآن الكريم هو المصدر التشريعي الأوحد لهذا الدين، ولا تأتي الاستعانة بالمصادر الأخرى إلا في غياب الدليل القرآني، وفي اللحظة التي يتوافر فيها الدليل القرآني تغيب الحاجة إلى اللجوء إلى المصادر الأخرى، فلا داعي للدليل من السنة أو من الإجماع أو من القياس في ظل وجود دليل من كتاب الله.

إنّ الذي دفع بأهل العلم إلى الزج بالمصادر الثلاث الأخرى (السنة والإجماع والقياس) في استنباط الأحكام هو – في رأينا- عدم قدرتهم على استنباط الدليل على كل الأحكام التي طرحت بين أيديهم من كتاب الله، لذا كان اللجوء إلى مصدر آخر للتشريع أمراً لا مناص منه. وإننا على يقين أنه لو توافر لهم الدليل من كتاب الله على كل تشريع تعرضوا له لما كانوا أصلاً بحاجة إلى اللجوء إلى مصادر أخرى للتشريع. إنّ هذا الزعم مبني على الاعتقادات التالية

1. أن كتاب الله كامل، لا نقص فيه ولا زيادة، قال تعالى:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: 41-42]

2. يستحيل على بشر الإحاطة الكليّة بما في كتاب الله، فالظن بأن فئة من الناس قد امتلكت العلم، ولا بد من الرجوع إليهم في كل صغيرة وكبيرة، والوقوف عند أرائهم مخالفة فاضحة للاعتقاد بأن كتاب الله لا يمكن الإحاطة بعلمه، قال تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]
- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]

3. أن العلم من كتاب الله لا ينقضي، فما زال العلم المكنوز في ذلك الكتاب تتوالى صفحاته مع تقدم الزمان

- ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: 87-88]

إن كارثة الأمة تتمثل – في رأينا- أنهم وقفوا عند أفهام السلف لهذا الكتاب، وهم بذلك مقتنعون (وإن كانوا لا يجهروا القول بذلك) أن أولئك السلف قد أحاطوا علماً بكل ما في كتاب الله. وفي الوقت الذي يدافعون عن موقفهم أنهم لا يزعمون ذلك لا تنفك تصرفاتهم عن التأكيد على مثل هذا السلوك، فمن يتجرأ (غير رشيد الجراح بالتأكيد) الزعم أن أبن عمر قد أخطأ أو أن ابن عباس قد شطح بعيداً عن الحق، أو أن مالك و أبو حنيفة و الشافعي وابن حنبل قد عجزوا جميعاً عن حل إشكالية ما في الفكر الديني؟ إن مثل هذا التساؤل لوحده كفيل أن يخرج من يقوله (رشيد الجراح) – في نظرهم – من الملة بأكملها.

أقول لمثل هؤلاء إن كانت مفاتيح الجنة بأيديكم (كما تظهر في فتاواكم)، فلا تسمحوا لمن يخالفكم الرأي دخولها، ولكني لن أتوقف عن الإيمان اليقيني بأن السلف الصالح قد أخطأ ولم يمسك بناصية الحقيقة في الكثير الكثير من قضايا الأمة الفقهية والعقائدية، وسنحاول التعرض لبعض الأمثلة للتدليل على صحة ما نزعم، ومخالفتهم جميعاً ضرورة لا مفر منها لحل إشكالات كثيرة جداً، ومن ثم التقدم بالفكر الديني إلى الإمام.

**مثال**

لقد أختلف أهل العلم كثيراً في قضية مثل زواج المتعة مثلاً، واتخذ كل طرف موقفاً يعارض الطرف الآخر، أليس كذلك؟ وهنا يتساءل العامة من مثلي: أين يا ترى تكمن الحقيقة؟ لا شك أن كل طرف يظن أن الحق لم يجانبه، وأن الطرف الآخر هو طرف ضال بنفسه ومضل لغيره؟ فما الذي أدى إلى هذا الموقف الذي قسم الأمة إلى مشجع حاث على زواج المتعة (كغالبية الفرق الشيعية)، ورافض راغب عن التمتع محذراً منه (ككل الفرق السنيّة)؟

**الجواب**: إنه اللجوء إلى مصدر تشريعي غير القرآن الكريم. ولكن كيف؟

إن المدقق في آراء العلماء حول موضوع التمتع يجد أنها تخلو جميعاً من دليل واحد مستند إلى مصدر التشريع الأول وهو كتاب الله، وعندما عجز أهل العلم عن فهم التمتع من كتاب الله وذلك لندرة الآيات الكريمة المفصّلة له، أو لصعوبة فهم ما هو متوافر منها، لجاءوا إلى المصدر الثاني من مصادر التشريع وهو السنة النبوية، ولكن الغريب في الموضوع أنهم في اللحظة التي لجاءوا فيها إلى ذلك المصدر التشريعي للتدليل على مواقفهم لم يعدم كل طرف القدرة عن الإتيان بعشرات الأحاديث (إن لم يكن بالمئات منها) التي تؤيد موقفه، فظهر من الأحاديث ما يشجع ويحث على المتعة (انظر كتب أهل التشيع) وظهر منها ما يمنع التمتع ويحذر منه (انظر كتب أهل السنة والجماعة)، فانبرى كل فريق يقدح بصحة الأحاديث التي يستدل بها الطرف الآخر، الأمر الذي أدى بالعامة (خصوصاً الراغب الباحث عن الحقيقة، وليس المعتد المتعصب لفرقته) إلى صعوبة التميز إلى أي الطرفين يجب أن ينحاز في مثل هذه القضية.

وحتى يدعم كل طرف موقفه الذي اتخذه لجاءوا إلى الإجماع وإلى القياس (مصادر التشريع المكملة للكتاب والسنة)، ولكن المفارقة العجيبة أن كل طرف استطاع أن يحشد لرأيه من أهل العلم ما يصعب على العامة (الباحثين عن الحق) إنكار الدليل في ذلك. فضاعت قضية الأمة هذه (أي التمتع) في سجال فكري نابع من مخيلة العلماء لا أساس له في ديننا وفي تشريعنا.

**الخلاصة**: إننا نعتقد جازمين أنه لو تم الاحتكام إلى كتاب الله، وبحثنا عن الدليل على جواز أو عدم جواز التمتع في كتاب الله لما عدمنا الحل والخروج إلى الناس كأمة متفقة لا مختلفة ولا متناحرة بعد الذي جاءنا من الحق في الكتاب (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان زواج المتعة)

## هل فعلاً الاختلاف ممنوع في الدين؟

نعم، الاختلاف في الدين مرفوض، وذلك لأنّ الله – في رأينا- قد جعل لكل الأمم سنن لا تبديل لها، فسنة الله لم تتغير ولم تتبدل منذ أن بدأ الله الخلق، وهي نفسها التي جاءت بها جميع الديانات السماوية، فسنّة الله التي جاء بها إبراهيم هي نفسها التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد من بعدة، وكانت هي نفسها التي جاء بها نوح من قبلهم، وذلك مصداقاً لقول الحق في كتابه الكريم في أكثر من موضع:

- ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨﴾ [الأحزاب: 38]
- ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: 62]
- ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح: 23]

ولكن الله الذي جعل سنته ثابتة لا تتغير في جميع الشرائع قد جعل في الوقت ذاته لكل أمة تشريعاً ومنهجا:

- ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ [المائدة: 48]

إن من أبسط المعاني التي يمكن استنباطها من هذه الآيات الكريمة هو أنه في الوقت الذي جعل الله الأمم جميعاً تشترك في سننه جعل لكل أمة شرعة ومنهاجاً لا تقتضي التعددية، فيقتضي الحق أن يكون لهذه الأمة شرعة ومنهاجاً واحداً. لذا كان السؤال الذي يجب طرحه عند التصدي لكل قضية في الفكر الديني الإسلامي هو التالي:

ما هو شرعة ومنهاج الإسلام في .............؟

فمن المستحيل أن يكون شرعة الإسلام في زواج المتعة مثلاً رأيان متضادان متناحران: جواز زواج المتعة (كما تروج له بعض الفرق) وعدم جواز زواج المتعة (كما تروج له فرق أخرى) في آن واحد. إننا كمسلمين مطالبين أن نحسم أمرنا في مثل هذه القضية، فديننا له شرعة ومنهاجاً يتوجب على أهل العلم تبيانه للناس جميعاً. وهذا التشخيص ينطبق على كل قضايا الفكر الديني صغيرة كانت أم كبيرة.

ومما يؤسف له أن أهل العلم روجوا لفكرة الاختلاف في القضايا البسيطة التي ظنوا أنها لا تؤثر في العقيدة، ونحن نعتقد جازمين أن هذا ليس أكثر من مهرب للتنصل من واجبهم وهو استجلاء الحقيقة في كل شيء.

إننا نظن أن البحث عن الحقيقة تتطلب العودة إلى مصدر التشريع الأول في ديننا وهو كتاب الله لاستنباط الحكم في هذه القضايا، والكف عن الوقوف عند الاختلاف والرضا بواقع الحال، فمما لا شك فيه أن العلم الذي يحتويه هذا الكتاب كفيل بحل كل هذه الإشكالات إن نحن جهدنا للوصول إليها، ولكن الكارثة تكمن في أننا آثرنا الوقوف عند أفهام غيرنا، وظننا أن ما خلصت إلية بنات أفكارهم هي الحقيقة المطلقة التي لا جدال فيها.

كان الأجدر بعلماء الأمة أن لا يتوقفوا عند أراء العلماء السابقين في مثل هذه القضايا، أو الكف عن البحث عن حل لها من كتاب الله، فذاك يؤدي إلى جمود الفكر الديني عند فترة السابقين ثم لا يكون من يأتي بعدهم أكثر من مقلد متبع، لا يفيد الأمة في شيء.

## هل نكف عن الأخذ بالحديث؟

قد يقول البعض أننا نفهم من كلامك هذا أنك تدعونا للكف عن الأخذ بالحديث الشريف، أليس كذلك؟ لا ليس بالضرورة أن نكف عن الأخذ بالحديث، ولكنّنا يجب أن لا نغالي في الأخذ فيه، ونحن نظن أن الأخذ بالحديث الشريف في كل صغيرة وكبيرة قد أوقع الأمة في إشكالات أصبح من المتعذر مع مرور الزمن (بعد أن ترسخت في أذهان العامة) التخلص من المغلوط منها. فأهل الحديث قد أدخلوا في أذهان العامة عقائد وتشريعات ظن الكثيرون أنها من صلب الدين وحقيقته، وما هي إلا لحظات حتى أدت إلى الاختلاف والفرقة، فتضاربت الآراء حولها ونشب الجدل الفكري، واستند جله إلى أدلة من غير مصدر التشريع الأول وهو كتاب الله (للتفصيل حول هذه القضية انظر المقالة السابقة تحت عنوان جدلية عذاب القبر)

### هل فعلاً يتضارب الدليل من القرآن مع الدليل من السنة؟

إننا لا نعتقد أن التضارب موجود أصلاً بين ما في كتاب الله وما قاله أو فعله أو أقره نبي الله. فرسول الله لا يقول ولا يفعل أو يقر ما يتعارض مع ما في كتاب الله، ولكن الإشكالية وقعت في النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، لذا ربما حصل التضارب بسبب هذا النقل في حالتين اثنتين وهما:

1. النقل الخاطئ (أو ربما النقل الكاذب) عن رسول الله
2. الفهم الخاطئ لما في كتاب الله أو لما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم

وسنقدّم فيما يأتي بعض الأمثلة للتدليل على هذا الزعم

## النقل الخاطئ عن رسول الله

لقد ذهب أهل الحديث إلى تصنيفات لما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أقروا بأنفسهم حقيقة مفادها بأن ليس كل ما نقل عن النبي مطلق الحقيقة والصحة والثبوت، فظهرت في تصنيفاتهم الأحاديث المتواترة وأحاديث الآحاد، والأحاديث الصحيحة والحسنة والضعيفة وحتى المدسوسة. وكانت نقطة القوة في تصنيفاتهم منصبة على علم ظهر تحت مسمى علم الجرح والتعديل، فكانت صحة الحديث نابعة من قوة سند الحديث، فما رواه الثقات من الناس (حسب معرفتهم هم بالرجال) ارتقى أن يكون حديثاً صحيحاً، وقد يضعف الحديث إن وجد خلل في سلسة رواته، ونحن إذ لا ننكر عليهم صنيعهم هذا (لا بل ونحمده) لأنه قد حدّ من مشاكل النقل عن النبي، إلا أننا نظن أن هذه المنهجية وحدها لم تكن كافية لتمحيص ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، إننا نزعم أنه في الوقت الذي أعطي سند الحديث أهمية كافية في البحث لم تعط مثل هذه الأهمية لمتن (أي نص) الحديث نفسه. إننا نعتقد أنه عندما لم يعط أهل الحديث الاهتمام الكافي لنص الحديث ظهرت أحاديث –نظن نحن- أنها تتعارض مع السياقات القرآنية، وهنا تكمن مشكلة أهل العلم عندما يتخذوا من مثل هذه الأحاديث دليلاً تبنى عليه أحكاماً وتشريعات وعقائد تمس حياة المسلمين في كل زمان ومكان.

وحتى لا يبقى كلامنا هذا في إطاره النظري فإننا سنقدم بعض الأمثلة للتدليل على صحة زعمنا هذا. ومثالنا الذي نقدمه للتدليل على ظننا هذا هو الحديث التالي:

## حديث: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه"

روي عن النبي في بعض كتب الصحاح حديث آحاد عن طريق أبي بكر الصديق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه"، وقد نشب الخلاف بين أهل السنة وأهل التشيّع حول متن هذا الحديث لأنه يخالف صريح اللفظ في كتاب الله في أكثر من موضع، فقد ورث سليمان داود:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]

وطلب زكريا الذرية الصالحة لكي يرثه ويرث من آل يعقوب

- ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 6]

وحتى يوفق أهل الحديث بين ذاك الحديث وهذه الآيات الكريمة ذهبوا إلى التفسيرات المجازية، فانطلقت أفهامهم في كل اتجاه ونسوا (أو تناسوا) الحقيقة البسيطة أنه في حين أن نص الحديث ونص الآيات الكريمة متطابقة، إلا أنهما متعارضان في المعنى والدلالة: فكيف يقول الرسول مثل هذا الكلام وهو الذي يقرأ هذه الآيات على الناس من كتاب الله الذي أنزل عليه؟ لقد ذهب بعضهم إلى القول أن الورثة في حالة الأنبياء (كداوود وسليمان) مقتصرة على الميراث الديني وليس المادي, ولكننا نقول لهم: وماذا تفعلون

بكل آيات الميراث التي جاءت في كتاب الله باللفظ ذاته؟ ألم ترد كل الآيات التي تتحدث عن الميراث المادي بلفظة "ورث" ويرث" ومشتقاتها؟

- ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: 176]

وذهب أهل التشيع إلى استخدام هذا الحديث ليصبوا لجام غضبهم على أبي بكر وعمر، وتناقلوا خبر فاطمة تطلب ورثة أبيها من أبي بكر فيمنعها أبو بكر من ذلك بحجة هذا الحديث، والقارئ الباحث عن الحقيقة يجد في مؤلفات أهل التشيع نصرة لمواقفهم العقائدية لا بحثاً عن الحقيقة، وكأنهم وجدوا ضالتهم في هذا الحديث للوقوف مع طرف ضد طرف آخر، ولكنهم نسوا حقيقة بسيطة مفادها أن أبا بكر أو عمر (أو حتى كل من على الأرض من الناس) ليسوا مصدراً من مصادر التشريع الذي تبنى العقائد على موقفه أو فهمه لآية كريمة أو حديث شريف.

إننا نعتقد أنه كان الأولى بأهل السنة والجماعة أن لا يأخذوا بمثل هذا الحديث حتى لو صح سنده وإن ورد في كتب البخاري ومسلم وذلك لأن متنه يتعارض مع صريح اللفظ القرآني. لقد كانت الدقة تستدعي من أهل الحديث ليس الوقوف على سند الحديث وتفقده فقط وإنما تمحيص المتن كي لا يتعارض مع صريح اللفظ القرآني.

إننا نظن أن مشكلة النقل لهذا الحديث (ومثله من الأحاديث الأخرى) تتمثل في واحدة من أمرين:

1. أن النبي لم يقل شيئاً كهذا (يتعارض مع صريح اللفظ القرآني)
2. أن النقل عن النبي لم يكن دقيقاً، فلربما نقل الراوي حديث النبي بتصرف، أي لقد فهم الناقل شيئاً من كلام النبي ولكنه صاغه بلغته هو وليس باللفظ الدقيق كما قاله النبي. وليس أدل على وجاهة زعمنا هذا من النتيجة التي انتهى إليها هذا الحديث (وهي أن هذا الحديث ليس أكثر من حديث من أحاديث الآحاد)

إن هذا التشخيص ينطبق على كل قضايا الأمة العقائدية منها والفقهية، ولو تمحصنا الجدال الذي دار بين العلماء في بطون مؤلفاتهم لوجدنا أنّ جلّه يتمحور حول الدليل المستند إلى مصادر التشريع الثلاث الأخرى وهي الحديث والإجماع والاجتهاد، وقلما حصل الجدال حول الدليل المستمد من مصدر التشريع الأول وهو القرآن الكريم. فلا نجد خلافاً بين العلماء حول حد السرقة وذلك لأن الدليل صريح في كتاب الله:

- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: 38]

ولكنّ الخلاف كان شائكاً في حد الرجم للزاني المحصن، وذلك –في رأينا- لأن الدليل من القرآن غير متوافر، وقد بني الحكم على حديث منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم، فنحن نستطيع إثارة تساؤل

حول حد الرجم للزاني المحصن أو الزانية المحصنة عندما نطالب علمائنا الأجلاء توضيح حد الرجم في مثل هذه الحالة التي تثيرها الآية الكريمة التالية::

- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ [الأحزاب: 30]

فكيف يمكن أن يقع العذاب (ضعفين) بحد الرجم على نساء النبي إن هي جاءت بفاحشة مبينة؟! وقد يقول البعض بأن هؤلاء نساء النبي فلا يمكن أن يقعن بمثل هذه الفاحشة ليطبّق عليها الحد المنصوص عليه في الآية الكريمة. وقد يقول آخر أن ضعفين العذاب يقع عليهن من الله وليس من الناس، والله لا شك يعلم كيف يعاقب بضعفين من العذاب المنصوص عليه.

لنفترض أننا نوافقكم الرأي هنا، ولكن ألا نستطيع التشكيك بحد الرجم عندما نطرح سؤالاً مشابهاً يتعلق بتطبيق قوله تعالى بحق ما ملكت اليمين من المؤمنات:

- ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ [النساء: 25]

وسؤالنا موجهاً لمن آمن بحد الرجم على الزاني المحصن أو الزانية المحصنة: كيف سيعاقب مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ بنصف الحد الذي يقع على المحصنة المؤمنة؟ أي كيف يمكن أن نرجمها نصف رجمة؟ وسنكون شاكرين لهم إن هم دلّونا كيف يمكن تطبيق نصف الحد في حالة الرجم هذه؟!

إننا نؤمن أنّ الدليل من القرآن الكريم لا يجاريه دليل آخر، حتى لو كان ذاك الدليل هو عشرات الأحاديث المرويّة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لسبب بسيط (تعرضنا له في أكثر من موضوع في كتاباتنا السابقة) وهو أن النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مباشراً، فأهل الحديث أنفسهم يضعّفوا الكثير مما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم. وغالباً ما ناقضت تلك الأحاديث بعضها بعضاً، وعارضت ما جاء في كتاب الله، وقد قدمنا أمثلة عديدة على مثل هذه الأحاديث في أماكن أخرى (انظر مقالتنا السابقة تحت عنوان جدلية عذاب القبر وسلسلة مقالاتنا تحت عنوان صلاة الاستسقاء).

إن الملفت للانتباه أن الكثيرين ربما لا يميّزون بين الإيمان بما قال النبي والإيمان بما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وشتان بين الاثنين، فنحن كمسلمين مطالبين بنص القرآن الكريم الإيمان والتمسك بكل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مطلب جاء صريحاً في كتاب الله:

- ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر: 7]

كيف لا والله قد قال في حقه:

- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥﴾ [النجم: 2-5]

ولكننا في الوقت ذاته غير مطالبين بتصديق كل ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم. فلقد نقل عن النبي ما لا يمكن قبوله أو الأخذ به (كما أكده أهل العلم والخاصة منهم في كثير من مؤلفاتهم).

كان الأولى بأهل العلم أن يتمسكوا بمصدر التشريع الأول وهو القرآن الكريم وأن لا يساووا أي مصدر آخر مهما عظم بهذا المصدر، ولكن التطبيق على أرض الواقع شهد عكس هذا المنطق تماماً، فغالباً ما تم التمسك بإجماع أهل العلم منذ اليوم الأول لذاك الإجماع، ولم يتم التنازل عنه تحت أي ظرف آخر، فنحن لا نعلم (كعامة المسلمين) أن أهل العلم قد أجمعوا على أمر ما بان خطأه لاحقاً في ضوء ما تكشف من علم الكتاب. وسأكون ممتناً لمن يدلنا على مثال واحد ينقض زعمي هذا.

إن هذا الموقف نابع من العقيدة التي مفادها استحالة الإحاطة بكل ما في كتاب الله في وقت أو زمن واحد، إن فهم كتاب الله يتطلب أجيالا عديدة وأزمنة طويلة، وعندما تظهر أفهام جيدة لما في كتاب الله فيجب الكف عن قبول ما حصل من أفهام سابقة، وهذا في نظرنا السبب الآخر للتضارب الذي قد يحصل بين بعض الأحاديث المروية مع ما جاء في كتاب الله، وقد قدمنا في مقالاتنا السابقة كثير من الأمثلة على الأفهام الجديدة لما جاء في كتاب الله، والقارئ مدعو لقراءة مقالتنا تحت عنوان تعدد الزوجات و زواج المتعة، وجدلية الذكر والأنثى مثلاً ليرى كيف أدى الفهم المغلوط لآيات الكتاب الكريم إلى التناقض الفاضح بين ما في كتاب الله :

- ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ [النساء: 3]

والحقيقة التي لا جدال فيها أن النبي نفسه قد تزوج بأكثر من هذا العدد. وقد ظهرت نتيجة لهذا التضارب الفاضح تعليلات لا ترقى أن تقنع من قدمها ناهيك عن من يتربص بهذا الدين ويحاول الانقضاض عليه من كل ثغرة يجدها في طريقه (للتفصيل حول هذا الموضوع انظر تعدد الزوجات و زواج المتعة، وجدلية الذكر والأنثى.

سنحاول في هذه العجالة تبيان أن فهم ما جاء في كتاب الله لا يتوقف عند زمن محدد أو جيل معين، لذا كان لزاماً البحث الدءوب عن هذه الأفهام حتى تنجلي الحقائق للناس، وسنقدم مثال قصة ذي القرنيين التي وردت في كتاب الله لنبين من خلال عرضنا هذا كيف يمكن أن تكون الصورة على غير ما ظن الأقدمون وزعموا.

## قصة ذي القرنين

لقد تعرضنا لهذه القصة في مقالتنا السابقة تحت عنوان جدلية الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم، وكانت الغاية حينئذ إثبات شيء واحد وهو حتمية قراءة النص القرآني – في نظرنا- على الحقيقة وخلو القران الكريم بأكمله من المجازات، ولمّا كانت الغاية هنا تبيان كيف يمكن أن تختلف الأفهام مع مرور الزمن لا نجد ضيراً في إعادة جزء مما ذكرناه سابقاً لنبني عليه في متابعة تفاصيل القصة ومطاردتها من زاوية أخرى.

لقد أكّدنا سابقاً أن النص القرآني يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ ذي القرنين قد بلغ مغرب الشمس مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ [الكهف: 86]

وطرحنا حينها التساؤل التالي: كيف يثبت القرآن الكريم بلوغ ذي القرنيين مغرب الشمس ونحن نعرف يقيناً أن الشمس لا تغيب في مكان واحد؟ فمغيب الشمس يختلف باختلاف المكان، فهل مغيب الشمس بالنسبة لأهل المشرق هو نفس المغيب بالنسبة لأهل المغرب، والمنطق نفسه ينطبق على مطلع الشمس، فلا شك أن للشمس مطلع يختلف باختلاف المكان الذي يتواجد فيه الإنسان، وهنا جاء دور المفسرين في إدخال الاستعارة والمجاز في التفسير، ولكن تبقى الحقيقة صارخة: إذا كان المغرب أو المشرق يختلف باختلاف المكان، فأي مشرق وأي مغرب بلغه ذو القرنين؟ فلو ظن أهل الشرق الأوسط مثلاً أنه مغربهم أو مطلعهم، لنبرى أهل الصين أو أهل أوروبا ليقولوا أن القرآن لا يخصنا، وإن صح هذا القول فلم يثبت القرآن أن للشمس مغرب ومطلع واحد في هذه الآية (وهو ما بلغه ذو القرنين) في حين أنه يثبت في مكان آخر أن هناك مشارق ومغارب؟

- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥﴾ [الصافات: 5]
- ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [المعارج: 40]

لا بل ويثبت القرآن الكريم أن للمكان الواحد عدة مشارق (باختلاف أوقات السنة)، فلا شك أن الشمس تشرق من مكان في فصل الصيف يختلف عن مشرقها في الربيع أو الخريف أو الشتاء، لا بل فإن الشمس تشرق في كل يوم في مشرق يختلف عن اليوم الذي يليه أو الذي سبقه كما يراه أهل المكان الواحد، قال تعالى:

- ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف: 137]

## الدليل الأول

إن الجواب يكمن –في رأينا- في فهم الآيات على حقيقتها، نعم للشمس مشارق ومغارب ولكن ذي القرنين بلغ مشرقاً واحداً للشمس وبلغ مطلعاً واحداً للشمس، ولكن كيف؟

إن نزعم الفهم أن الجواب على هذا التساؤل يكمن في إعادة فهم الآيات القرآنية التي تتحدث عن قصة ذي القرنين نفسها، والتي أظن أن الفكر الديني السائد أخفق في فهمها فهماً حقيقاً، وأخص هنا على وجه التحديد عبارة "أتبع سببا" في قوله تعالى:

- ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ [الكهف: 85]
- ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٩﴾ [الكهف: 89]
- ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢﴾ [الكهف: 92]

لقد وردت هذه العبارة ثلاث مرات في قصة ذي القرنين، ومما لا شك فيه أنها كانت ترد في بداية انتقاله من مكان إلى مكان آخر، فجاءت في المرة الأولى وكانت النتيجة بلوغه مغرب الشمس،

- ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ۝٨٦﴾ [الكهف: 85-86]

ووردت مرة أخرى فكانت النتيجة وصوله مطلع الشمس:

- ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ۝٩٠﴾ [الكهف: 89-90]

ثم وردت مرة ثالثة فكانت النتيجة أن بلغ بين السدين:

- ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝٩٣﴾ [الكهف: 92-93]

إنّ المتدبر للنص القرآني يجد أن تلك العبارة (أَتۡبَعَ سَبَبًا) تدل على حركة ذي القرنين من مكان إلى مكان آخر، ولب القول هو أنه كلما كان ذو القرنين بحاجة إلى الانتقال إلى مكان آخر (غير المكان الذي هو فيه) كان عليه أن يتبع سبباً، أليس كذلك؟ فما معنى أن يتبع ذو القرنين سببا؟

لقد وردت هذه المفردة في مواطن أخرى من كتاب الله لتدل على طريقة الحركة، فها هو فرعون يطلب من هامان أن يمكنه ليبلغ الأسباب:

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ [غافر: 36-37]

لا شك أنّ فرعون طلب من هامان أن يبني له صرحاً أفقياً ليصعد إلى الأعلى لظنه – كما يقول موسى- أن الإله في السموات، أي في الأعلى، فمن كان بحاجة إلى الحركة إلى السماء لا شك هو بحاجة إلى الأسباب، ومن هنا جاء قول الحق:

- ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠﴾ [ص: 10]

فالأسباب (ومفردها سبب) هي – حسب فهمنا لهذه النصوص- الطريق الفضائية بين السماء والأرض، ومن أراد أن يسلكها فعليه أن يرتقي إلى الأعلى، وقد يرد البعض بالقول: هل وردت مفردة "سبب" بصيغة المفرد في القرآن الكريم لتدل على الطريق الفضائية؟ الجواب: نعم، ولنتدبر قوله تعالى:

- ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ [الحج: 15]

وبعد، هل هناك قول أوضح من هذا القول؟ لذا فإن مراد القول هو أن الحركة بالأسباب (ومفردها سبب) هي حركة خارج نطاق الحركة الأرضية (أي حركة ارتقاء)، لهذا جاء قول الحق على النحو التالي:

- ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]

وبذلك فعندما كان ذو القرنين يتبع سببا كان يرتقي في السماء، فيتنقل بالطرق الفضائية (أي يتبع سببا)، لذا كانت حركته –كما يبينها القرآن الكريم- غاية في السرعة، فبلغ مغرب الشمس وبلغ مطلع الشمس وبلغ بين السدين وكأن ذلك يحصل بين ليلة وضحاها، ولو لم يكن يتبع سببا لما استطاع القيام بذلك بتلك السرعة والقوة التي يصوّرها النص القرآني.

ما يهمنا هنا هو إنّ الفهم أن ذا القرنين كان يتبع سببا (أي يسلك طريقاً فضائية) يمكننا من الفهم الحقيقي للآيات الكريمات، فالحركة بطريقة " أَتۡبَعَ سَبَبًا" يخرجه من نطاق الكرة الأرضية، وبالتالي يخرجه من نطاق اختلاف مغارب الشمس ومطالعها، وبالتالي فهو سيصل إلى مغرب واحد للشمس ومطلع واحد للشمس كما وردت بصريح اللفظ القرآني

## الدليل الثاني

أما الدليل الثاني الذي نقدمه لإعادة تغليف قصة ذي القرنين بأفهام جديدة فيأتي من طلب القوم ورده عليهم، أما طلب القوم فقد جاء في قوله تعالى:

- ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ٩٤﴾ [الكهف: 94]

وجاء رده على النحو التالي:

- ﴿... أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٩٥﴾ [الكهف: 95]

فلماذا لم يجعل ذو القرنين بينهم سداً كما طلبوا؟ لقد جاء الجواب من ذي القرنين واضحا:

- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ... ٩٥﴾ [الكهف: 95]

نعم لقد مكن الله ذا القرنين بشيء خير من طلبهم ذلك، فجاءت تكملة الآية الكريمة على نحو:

- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٩٥﴾ [الكهف: 95]

نعم، إن ما فعله ذو القرنين هو الردم، لكن ردم ماذا؟ إنه ردم السبب، أي الطريق الفضائية التي يستطيع من خلالها أن تصل يأجوج ومأجوج إلى الأرض لتفسد فيها، لقد أغلق ذو القرنين بما مكّنه الله فيه الطريق التي بدونها لن تستطيع يأجوج ومأجوج الوصول إلى الأرض، ومن ذلك الوقت ويأجوج ومأجوج يموج بعضهم ببعض لعدم قدرتهم الوصول إلى الأرض.

ولكن متى ستفتح يأجوج ومأجوج؟

لا شك أن القرآن الكريم يثبت أن يأجوج ومأجوج سيبقون يموجون في بعضهم بعضا حتى النفخ في الصور:

- ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ٩٨ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ٩٩﴾ [الكهف: 98-99]

وتتأكد الصورة نفسها في موطن آخر من كتاب الله،، فلقد ورد الحديث عن يأجوج ومأجوج في سورة الأنبياء على النحو التالي:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: 96-97]

إن ما يهمنا هنا هو أن الفتح على يأجوج ومأجوج لن يتحصل إلا مع اقتراب الوعد الحق كما في هذه الآية الكريمة أو مع النفخ في الصور كما في آية الكهف السابقة. ونحن نتساءل هنا عن المكان الذي يمكن أن يتواجد فيه يأجوج ومأجوج (على كثرتهم وبطشهم كما يصورها القرآن الكريم) ولا يتم لهم الخروج منه إلا مع اقتراب الوعد الحق (أو النفخ في الصور). إن أبسط ما يمكن أن نخرج به من هذا الفهم هو استحالة

أن يكون مأجوج ومأجوج قد خرجوا من موطنهم ذاك كما صورتها بعض التفسيرات السابقة للنص القرآني. أو احتمالية وجودهم في مكان ما على سطح الأرض بعد أن تجلت الأرض بكليتها للناس مع هذا التقدم الهائل في الاستكشاف والبحث.

### الدليل الثالث

وهنا نتوقف مع القارئ الكريم على جزئية مهمة في الآيات التي تصور خبر يأجوج ومأجوج كما وردت في سورة الأنبياء وهي قول الحق " وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ "، لنسأل: كيف سينسل يأجوج ومأجوج من كل حدب. إن الفهم السابق الذي ظن أن يأجوج ومأجوج هم قوم على هذه الأرض لا يمكن أن يتماشى مع هذه العبارة القرآنية، فكيف يمكن لقوم موجودون في مكان محدد على وجه الكرة الأرضية أن ينسلوا من كل حدب؟ صحيح أنهم قد يذهبوا في كل اتجاه/ فتلك وجهتهم ولكننا نتساءل عن مصدر خروجهم، فلا يمكن أن يأتوا من كل حدب (جهة) ماداموا أنهم موجودون أصلاً في مكان محدد على سطح هذا الكوكب كما في التصوير التالي:

ولكن لننظر الآن إلى الفكرة التي نحاول الترويج لها وهي أن يأجوج ومأجوج هم قوم خارج نطاق الأرض، إن هذا الافتراض يحل الإشكالية برمتها فمن كان خارج نطاق الأرض يمكن أن يصل إليها من كل اتجاه كما في التصوير التالي:

ثم لننظر إلى الدقة القرآنية التي تصف الحركة على شكل حدب " وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ "، فكيف ستكون الحركة من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر على سطح الأرض؟ الجواب لا يمكن أن تكون على شكل حدب، ولكن كيف يكون الانتقال بالطرق الفضائية؟ الجواب إن الحركة من الفضاء الخارجي إلى مكان آخر لا يمكن أن تتم إلا بطريقة الحدب (ولتسهيل الفكرة ما على القارئ الكريم إلا أن يتصور عملية هبوط أو إقلاع الطائرة). فنحن نفهم أن الحركة الفضائية مهما كانت لا تتم إلا بطريقة الأحداب.

ما يهمنا في هذا الطرح هو التالي: عندما يتحصل فهم جديد لما في كتاب الله لا بد من ترك والتخلي عن ما فهمه أسلافنا، فكثير من علمائنا الإجلاء يضفون شيئاً من القدسية (وإن لم يقولوها صراحة) عندما لا يتنازلون عن ما قاله الأقدمون لا لشيء وإنما لظنهم أن أولئك القوم هم الأقدر على فهم ما جاء في كتاب الله.

## الإجماع والقياس:

لقد كانت الحجة الزائفة – في رأينا- عند كثير من أهل العلم أن يتحدوا من يتمسك بمثل موقفي هذا بظنهم الذي مفاده أن هناك من الأمور المستحدثة في حياة الناس التي لم يأتي ذكرها في كتاب الله، فكيف يمكن – حسب ظنهم- الاستدلال عليها (أو استنباط الأحكام فيها) من القرآن؟ ف هم بمثل هذا الموقف يروّجون للمنطق القائل باستحالة حل إشكالات كثيرة دون الرجوع إلى إجماع العلماء أو القياس. ولنقدم مثالاً لتوضيح زعمهم هذا.

## مثال: حقنة الدواء

ظنّ الكثير من أهل العلم أن حقنة الدواء – مثلاً- تفطّر الصائم في نهار رمضان، وأجمع الكثير من أهل العلم على مثل هذا الموقف، وظن الكثيرون أن مثل هذا الأمر هو مما استحدث في حياة الناس التي – في نظرهم- يستحيل وجود الدليل عليه من كتاب الله أو حتى من السنة المطهّرة. فلسان حالهم يقول: أين الحديث عن حقنة الدواء في القرآن الكريم أو في السنة النبوية؟ وهل كانت حقنة الدواء موجودة في ذاك العصر الذي نزل به القرآن الكريم؟ لذا كان لزاماً –في رأيهم- اللجوء إلى الإجماع أو القياس.

وبالرغم من حجتهم التي قد تبدو للوهلة الأولى أنها مقنعة وفيها شيء من الحقيقة، لم تعدم الأمة بعض أصوات العلماء الذين ذهبوا إلى المخالفة في الموقف، فظهرت دعوات من بعض أهل العلم تظن أن الحقنة الدوائية التي يأخذها المريض في نهار رمضان لا تفطّر الصائم، وجرى نقاش بعد ذلك حول أنواع الحقن الدوائية، وطلب أهل العلم الشرعي الاستعانة بأهل الاختصاص، وذهبت مجموعات من أهل العلم إلى تفعيل مقاصد الشريعة (للتفصيل حول هذا الجدل انظر ....)، ولكن ظلت الحقيقة صارخة وهي أن الجدال لم يحل المشكل، (لاحظ كيف لم يحصل جدال بين العلماء بخصوص الدواء الذي يتم تناوله على شكل أقراص أو على شكل شراب سائل، فجميعهم يؤمن يقيناً أن تناول الدواء على هذه الشاكلة يفطّر الصائم في نهار رمضان)، لكننا لم نصل إلى مثل هذا الإجماع عند الحديث عن حقنة الدواء التي يتم حقنها للمريض عن طريق الجلد أو الأوردة والشرايين، لم نعثر حتى اللحظة على الجواب الذي يرضي الجميع، فأين يا ترى تكمن الحقيقة؟ وبكلمات أخرى: أين هي شرعة ومنهاج الإسلام في ذلك؟ فلو كان محمد بن عبد الله بين ظهرانينا ماذا كان يمكن أن يكون موقفه؟ وأي الفريقين سيرجح محمد بن عبد الله رأيه؟

**سيرد الكثيرون بالقول**: لو كان محمد بين ظهرانينا لما احتجنا إلى ذلك الاجتهاد والقياس؟

⇐ سنرد عليهم بالقول: ولكن ألم يترك فينا محمد ما إن تمسكنا به لن نظل أبدا؟ أليس كتاب الله الذي جاء به محمد بين ظهرانينا؟ ألا يوجد في ذلك الكتاب الذي تركه فينا محمد ما يحل مثل هذه الإشكالية البسيطة؟

**الجواب**: بلى، لابد أن الكتاب الذي تركه محمد فينا يحل هذه الإشكالية (لا بل وكل إشكالية)، ولكن كيف؟ هل يوجد في كتاب الله حديث عن حقن المريض؟

⇐ نعم يوجد.

⇐ أين هو إذن؟

نقول إن المنطق بسيط للغاية يتمثل في السيناريو التالي:

⇐ إذا قلت لك أن جهاد هو طفل ذكر، فهل أنا بحاجة أن أقول لك أنه ليس بأنثى؟

⇐ الجواب كلا، فلقد عرفت أنه ليس بأنثى دون أن أذكر اللفظ نفسه.

⇐ وبالمنطق نفسه هل يجب على القرآن أن يذكر كل شيء بلفظه لنعرف أنه من المفطرات مثلاً؟ فهل تحدث القرآن الكريم عن اللبن والحليب واللحم والخضروات والفواكه عندما تحدث عن

المفطرات في نهار رمضان؟ وأين الحديث عن البصل الفوم والبقل والقثاء عند الحديث عن مفطرات رمضان كما جاء ذكرها عندما طلبها بنو إسرائيل من نبيهم؟

⇐ لكننا لا نختلف في أن جميعها من المفطرات لو تم تناولها في نهار رمضان، أليس كذلك؟ فهل تجادلنا يوماً حول الفرق بين الخضروات والفواكه في أنها من الأطعمة التي تفطر الصائم في نهار رمضان؟

⇐ كلا

إذاً، نستنتج من هذا الطرح حقيقة بسيطة وهي: ليس من الضروري أن يرد كل شيء بلفظه لنعلم أنه موجود في القرآن الكريم، فالقرآن يتحدث عن كل شيء حتى ولو لم يذكر كل شيء، لذا جاء قول الحق على النحو التالي:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

فما معنى قوله تعالى " مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ " في حين أننا نعلم يقيناً أن كثيراً من الأشياء لم تذكر في القرآن الكريم؟ إننا نؤمن بلزوم التمييز بين مفهومين رئيسيين في كتاب الله وهما:

1. عدم التفريط
2. عدم الذكر

فعدم ذكر شيء ما في كتاب الله لا يعني أنه غير موجود، أو أن القرآن لم يتحدث عنه، فهذا – في نظرنا معنى عدم التفريط- فعدم التفريط لا يعني بالضرورة ذكر الشيء بلفظة، وإلاّ لأصبح لزاماً أن يتحدث القرآن الكريم عن كل لفظة بعينها، وهو ما لا يمكن تصوره:

- ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ [لقمان: 27]

فكيف بالقرآن أو بأي كتاب أنزله الله على بشر أن يحتوي على كل الألفاظ ؟ ألست أنا شيء وأنت شيء، فأين أنا وأين أنت في كتاب الله؟ هل نحن مذكورون باللفظ ؟

**الجواب**: يستحيل ذلك

ولكن بالرغم من ذلك، فالله لم يفرط في الكتاب من شيء، فعدم التفريط يعني وجود العلم بالشيء (أي خبره) في كتاب الله حتى ولو لم يذكر الشيء بلفظه في كتاب الله، وبهذا الفهم نعود إلى حديثنا عن خبر الحقنة الدوائية في كتاب الله بالقول: إن العلم بك (أو خبر) الحقنة الدوائية موجود في كتاب الله حتى لو لم تذكر الحقنة الدوائية بلفظها، والعلم بالتدخين مثلاً موجود في كتاب الله حتى وإن لم يكن هناك لفظة تدل على التدخين والمدخنين في كتاب الله، والعلم بالقنبلة الذرية موجودة في كتاب الله حتى ولو لم تذكر

بلفظها، والتفاح موجود في كتاب الله وإن لم يذكر بلفظه، والبرتقال موجود في كتاب الله ولو لم يوجد بلفظه، وهكذا.

وهنا ربما يقول البعض: وكيف ذلك؟ أين هو العلم بك (أو خبر) الحقنة الدوائية في القرآن الكريم؟

لنحاول ألآن تبيان العلم (أو خبر) الحقنة الدوائية في القرآن الكريم، وذلك بربطها بقضية المفطرات في نهار رمضان.

## المفطرات في نهار رمضان

إن الحديث عن المفطرات في نهار رمضان جاء في كتاب الله في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة: 187]

والمدقّق في هذه الآية الكريمة يجد أنّ المفطرات هما نوعان:

1. الجماع: أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم
2. الأكل والشرب: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

وبتفصيل ذلك نجد أن المفطرات في رمضان هي ثلاثة:

1. الجماع في غير ليلة الصيام
2. الأكل بعد أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود
3. الشرب بعد أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود

إن المدقق في النص القرآني يجد أن الأمر جاء على المعكوس، فالله لم يقل لنا لا ترفثوا إلى نسائكم في نهار رمضان بل قال لنا أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم، وهو لم يأمرنا أن لا نأكل أو أن لا نشرب في نهار رمضان، بل أتاح لنا الأكل والشرب قبل أن يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وهذا يدلّنا أن الله لا يقدم لنا كل ما يجب علينا أن لا نفعله، بل يبين لنا ما يجوز لنا أن نفعله، وهو على النحو التالي:

1. الجماع في ليلة الصيام (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ)
2. الأكل حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ)

3. الشرب حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود (وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ)

ويأتي استنتاجنا على النحو التالي: إن أي شيء يمكن أن يكون من المفطرات يجب أن يندرج تحت واحدة من هذه الأبواب الثلاثة، فإما أن يكون في باب الجماع أو في باب الأكل أو في باب الشرب، ولا نجد في كتاب الله شيئاً آخر يعتبر من المفطرات حتى لو كان قتل رجل في واضحة النهار، فالغيبة والنميمة والكذب والسرقة والغش وحتى القتل لا تفطر الصائم بالرغم من عظم الذنب، صحيح أن القاتل قد أهدر نفساً ربما تكون بريئة لكن ذلك لا يفطّره في نهار رمضان، والمنطق نفسه ينطبق على ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ف فقه الصيام لا يتعلق بارتكاب ذنب أو عدم ارتكاب الذنب، بل هو النهي عن ما هو حلال كالجماع والأكل والشرب (وهي ملذات الحياة).

وبهذا الفهم يأتي سؤالنا على النحو التالي: أي من هذه المجموعات الثلاثة يمكن أن تندرج حقنة الدواء تحته؟

فهل ذكر الله في كتابه أن تناول البطاطا (على وجه التحديد) تفطر الصائم في رمضان؟ ولكن هل اختلف العلماء في أمر البطاطا أو تناول البندورة (الطماطم في لغة غير أهل الشام)؟ لماذا؟

⇐ لأنها جميعاً تندرج تحت باب ما يؤكل

هل ذكر الله في كتابه أن شرب عصير البرتقال (على وجه التحديد) يفطر في شهر رمضان؟ ولكن هل تجادل العلماء في الفرق بين شرب عصير البرتقال أو شرب الحليب؟ لماذا؟

⇐ لأنها جميعاً تندرج تحت باب ما يشرب.

هل ذكر القرآن أن جماع الزوجة الأولى (على وجه التحديد) يفطر الصائم في رمضان؟ ولكن هل تجادل العلماء في أي جماع يفطر وأي جماع لا يفطر الصائم في نهار رمضان؟

وهنا نكرر السؤال الذي طرحناه سابقاً بخصوص حقنة الدواء: أي من هذه المجموعات الثلاثة يمكن أن تندرج حقنة الدواء تحته؟

مما لا شك فيه أنها لا تقع تحت باب الرفث، فلا يمكن لعاقل أن يظن أن حقنة الدواء تقع في هذا الباب (حتى ولو تشابهت في الطريقة!)

لذا، فإننا نعتقد أن الذي أفتى بان حقنة الدواء تفطر الصائم في نهار رمضان قد ظن بأن حقنة الدواء تقع في باب الأكل أو الشرب، فأفتوا بأنها تقع ضمن المفطرات في نهار رمضان.

ولكننا نرد عليهم بمنطق (سؤال) سهل بسيط: لم ظننتم أن حقنة الدواء هي طعام أو شراب؟ ما الذي دفعكم إلى هذا الاعتقاد؟

**هل حقنة الدواء طعام؟**

إذا تبين لنا من كتاب الله أن حقنة الدواء هي طعام يؤكل فيجب القطع بأنها من المفطرات في نهار رمضان، ولكن إن تبيّن لنا أنها ليست طعاماً يؤكل فيجب القطع بأنها ليست من المفطرات في نهار رمضان.

**هل حقنة الدواء شراب؟**

إذا تبين لنا من كتاب الله أنّ حقنة الدواء هي شراب يشرب فيجب القطع بأنها من المفطرات في نهار رمضان، ولكن إن تبيّن لنا أنها ليست شراباً يشرب فيجب القطع بأنها ليست من المفطرات في نهار رمضان.

**رأينا**: أما نحن فإننا نظن أن الذي يعتقد أن حقنة الدواء تقع في باب الطعام أو الشراب لا يختلف كثيراً عن من يظن أن حقنة الدواء تقع في باب الرفث.

النتيجة: حقنة الدواء ليست من الرفث وهي بالتأكيد ليست من الشراب وليست من الطعام، إن الذي يمكن أن يفطر الصائم في نهار رمضان هو واحدة من ثلاث: الرفث أو الأكل أو الشرب، وما دام أن حقنة الدواء لا تقع ضمن أي من هذه المجموعات الثلاث، فهي غير مفطرة في نهار رمضان.

**التبرير**

إن المدقق في النصوص التي تتحدث عن ما يفطر الصائم في نهار رمضان يجد أمرين أثنين وهما

1. توافر القصد
2. القيام بواحدة من هذه الأفعال الثلاث (الرفث، الأكل، الشرب)

فإن لم يتوافر القصد (فلا يمكن أن يحدث الإفطار وليس أدل على ذلك من الذي يأكل ويشرب ناسياً في نهار رمضان)، وثانياً القيام بالرفث عن قصد أو الأكل عن قصد أو الشرب عن قصد.

**لماذا لا تعتبر حقنة الدواء من الأكل أو الشرب؟**

إن هذا السؤال يدعونا إلى تفقد السياقات القرآنية التي تتحدث عن الأكل والشرب في كتاب الله لنفهم معنى الأكل والشرب كما قصده الإله في الكتاب لا كما نظنه نحن. لنخلص إلى نتيجة واحدة وهي أن كل ما يؤكل وكل ما يشرب يقع ضمن المفطرات، وبالمقابل فإن الذي لا يؤكل أكلاً ولا يشرب شرباً لا يقع ضمن المفطرات، فالإله تحدث عن المفطرات بلفظ الأكل والشرب وهو يعي ما يقول (وإلا كان الأجدر به أن ينتبه إلى ألفاظه- إن صح زعم الفريق الآخر- حاشاه جل وعلا)

**ألا يؤكل التفاح؟**

نعم فهو يفطر

ولكن ماذا عن الورق مثلاً؟

فبالرغم أن الناس لا تأكل الورق إلا أنه لو قام شخص بأكل ورقة لأفطر في رمضان لأن تلك العملية تسمى أكلاً، فما يتم تناوله عن طريق الفم ودخل إلى الجوف هو فقط ما يسمى أكلاً.

**هل يشرب العصير؟**

نعم، فهو إذا يفطر الصائم.

وكن ماذا عن السم أو زيت وقود السيارات؟

كلا لا يشرب

ولكن لو قام شخص بشرب السم أو زيت السيارات فإن ذلك يفطره في رمضان لأن تلك العملية تسمى شرباً، فما تم تناوله عن طريق الفم ودخل الجوف من السوائل يسمى شرباً، ولا شيء غير ذلك.

**هل التدخين يفطر الصائم في نهار رمضان؟**

إن كل ما يؤكل أكلاً أو يشرب شرباً يفطر الصائم في رمضان، فماذا عن التدخين؟ هل التدخين يقع في واحدة من هذه المجموعات؟

نعم لأن المدخن يشرب الدخان شرباً،

ولكن ماذا لو استنشق الصائم الدخان المنبعث من السجائر أو السيارات أو المصانع، هل يفطره ذلك في نهار رمضان؟

**الجواب**، لا، لان ذلك لا يسمى شرباً.

فاللغة العربية تستخدم الفعل شرب مع التدخين، فنقول فلان يشرب دخاناً أو يشرب سيجارة، ولمّا كان القرآن الكريم قد نزل مفصلاً بالعربية، فلا داعي أن يرد ذكر التدخين بلفظه في القرآن لأنّه (كما العصير أو الحليب) يشرب شرباً.

ولكن ماذا لو نزل هذا القرآن بغير اللسان العربي، فلو نزل هذا القرآن باللغة الانجليزية –مثلاً- لوجدنا لزاماً تفصيل الدخان بلفظه في ذلك الكتاب، أي لكان لزاماً ذكر التدخين بلفظه في ذلك الكتاب وذلك لأنّ التدخين في اللغة الانجليزية لا يقع ضمن المشروبات، فاللغة الانجليزية لا تستخدم لفظة drink للدخان، فلو كانت هذه الآية منزلة باللغة الانجليزية لكان لزاما تفصيلها على النحو التالي:

- وكلوا وشربوا ودخنوا حتى يتبين ....

أي لجاء التفصيل في ذلك القرآن الإنجليزي بألفاظ ثلاثة الشرب والأكل والتدخين بدلاً من اثنتين "الأكل والشرب:

- وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

وماذا لو نزل القرآن بلغة لا تستخدم فعل الشرب للحليب مثلاً؟ لنتصور أن لغة ما لا يستخدم الفعل "شرب" ومشتقاته لتناول الحليب، ولنفترض أن الفعل "يمص" ومشتقاته هو فقط ما يستخدم في تصوير عملية تناول الحليب، فكيف سينزل التوجيه الإلهي في ذلك القرآن؟

**الجواب**: سيكون الأمر الإلهي مفصلاً على النحو التالي:

وكلوا واشربوا ومصوا حتى يتبين

وماذا لو نزل القرآن بلغة تستخدم مفردة واحدة فقط (مثل : تناول" ومشتقاتها) للأكل والشرب والتدخين، الخ؟ الجواب سيأتي تفصيل ذاك القرآن عند الحديث عن المفطرات بلفظة واحدة على نحو:

"وتناولوا حتى يتبين...."

وقد يرد البعض بالقول: لماذا لم ينزل القرآن في اللغة العربية بمفردة واحدة مثل "تناول" ومشتقاتها مادام أننا في العربية يمكن أن نستخدم المفردة في حالة الأكل والشرب (فنقول: تناول فلان الطعام وتناول فلان الشراب)؟

**الجواب** لان ذلك كان سيشمل الطعام وسيشمل الشراب ولكنه لن يشمل التدخين (عندها لا يكون التدخين من المفطرات) لأننا لا نقول في العربية فلان يتناول الدخان. فالقرآن الكريم يستخدم من اللفظ ما يلزم دون زيادة أو نقصان بما لا يخل بمضمون الرسالة، فلو نزل القران الكريم في العربية بلفظة تناولوا لأخلّ بالرسالة الموجهة للبشر، ولو نزل بالعربية بلفظ فأكلوا واشربوا ودخنوا لأصبح هناك زيادة لا حاجة لها، ولكن لما كانت الرسالة بأكملها يمكن أن تفصل بمفردتين وهما الأكل والشرب فقط جاء القرآن مفصلاً على تلك الشاكلة.

النتيجة: مادام أنّ كل المفطرات في اللغة العربية تقع ضمن نطاق ما يؤكل وما يشرب لا يحتاج القرآن الذي نزل بالعربية لأكثر من هاتين اللفظتين لإيصال الرسالة المطلوبة.

وللحديث بقية

د. رشيد الجراح 2011-9-28

# رد على " والله من ورائهم محيط "

لقد سألني أحد طلبة الدراسات العليا المهتمين بعلم الترجمة عن كيفية ترجمة كلمة وراء في قوله تعالى:

- ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾ [البروج: 19-20]

فالمسألة بالنسبة له أنّ البديل الإنجليزي لكلمة وراء العربية وهي (behind) قد تضيّع المعنى الذي تقدمه الآية الكريمة، فكان القرار -حسب ظنه- أنه لا يحبذ استخدام كلمة behind في هذا السياق، فجاء ردي له على النحو التالي:

لعلي أظنك تريد القول أنّ كلمة "وراء" لا يمكن أنْ تترجم إلى كلمة "behind" في اللغة الإنجليزية لأنّ ذلك ينتفي بالمعنى الديني وبالتالي يجب أنْ نبحث عن كلمة أخرى لا تتعارض مع السياق العقائدي الذي ألفناه، أليس كذلك؟

ولكن السؤال البسيط الذي أود أنْ أطرحه هنا هو: ما المشكلة أنْ يكون الله من وراءنا؟ فهل لو جاء السياق القرآني على نحو "والله من أمامهم محيط" سيشكل ذلك عبئاً علينا لنبحث له عن مخرج؟! قد لا أظن ذلك، ربما لأنّنا درجنا على فهم أنّ كلمة "وراء" تحمل معاني وإيحاءات "connotations" سلبية، بينما لا تحمل كلمة "أمام" مثلاً إلاّ معاني وإيحاءات إيجابية، والسؤال الأبسط هو: هل هذه المعاني الإضافية (connotations) تنطبق علينا نحن البشر بنفس الطريقة التي تنطبق على الإله؟ أي بكلمات أدق هل معنى "وراء" بالنسبة للإله تحمل من السلبيات ما تعنيه لنا نحن البشر؟

والسؤال الأكثر إثارة هو ما معنى كلمة وراء أصلاً؟ هل فعلاً فهمنا معنى كلمة "وراء" كما أرادها الله حتى نبدأ البحث عن كلمات لتسعف المعنى الذي نريده؟ أي هل كلمة "وراء" سواء بالعربية أو الإنجليزية أو الفارسية أو العبرية لا تسد الغرض المقصود من معنى ألآية الكريمة؟ وهل عجز الإله أنْ يستخدم كلمةً أخرى وهو يعلم ما لـ "وراء" من دلالات؟! فهل عجز الإله أنّ يقول مثلاً "والله محيط بهم" دونما الحاجة إلى ذكر كلمة "وراء" أصلاً؟ فإذا كان المقصود كما تظن هو معنى "الإحاطة" (كما فعلت وانتصرت ليوسف علي الذي ترجمها على هذا المعنى) فلم يزج الله بهذه الكلمة مادام أنّ المعنى قد يتم بدونها؟! أي لِمَ لَمْ يقل الله سبحانه شيئاً مشابهاً لما يلي دونما الحاجة إلى زج كلمة وراء فيتم معنى الإحاطة الذي قصدت:

- بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ وَٱللَّهُ **بهم** مُّحِيطُۢ !!!

فنرد قائلين كلا. إنّ كلمة "وراء" هي "وراء"، ولا يمكن أنْ تكون غير ذلك، وأظن أنّ جوهر إجابتي لك يكمن بما يلي: فنحن بدل أنْ نبحث عن بديل للكلمة بحاجة أولاً وقبل كل شيء أنْ نفهم معنى الكلمة ذاتها، لنكتشف كالعادة أنّه لا توجد كلمة بأي لغة مهما كانت (حتى في العربية نفسها) يمكن أنْ تفي الغرض من استخدام هذه الكلمة، ولنكتشف أيضاً أنّه لا يمكن أنْ يتم المراد دونها، وإليك ما فتح الله به علينا لفهم هذه الكلمة:

**أولاً**: إنّ كلمة وراء تعنى أول ما تعني "خلف" وهذا مثبت بشكل لا لبس فيه بنص القران الكريم، قال تعالى:

- ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٠٢﴾ [النساء: 102]

والسؤال البسيط الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: ماذا تعني كلمة "ورائكم" في سياق الحديث عن الصلاة كما توضحه الآية الكريمة؟ أليست هنا بمعنى خلفكم؟ وهل يمكن أنْ تتم الصلاة مع رسول الله على غير ذلك؟

**ثانيا**: ولكن السؤال الذي يتبادر أيضاً إلى الذهن هو: وهل هذا فقط معنى "وراء"؟ أي هل تعني كلمة وراء "خلف" بما للكلمة من دلالات وإيحاءات؟ فنقول كلا، لقد وردت كلمة "وراء" بمعاني أخرى ودلالات أخرى، فهي تعني أيضاً فيما تعني "بعده زمنياً"، أي على اعتبار ما سيكون مستقبلاً، وهذا مشار إليه في أكثر من موطن في القران الكريم:

- ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 71]

وإذا كان الزمان ينقسم إلى ما سبق وإلى ما سيلحق، فإنّ كلمة وراء هنا لا تشير بأي حال من الأحوال إلى ما كان خلفنا، بل هي تشير إلى ما سيكون بعدنا. أليس هذا ما تعنيه كلمة وراء في سياق هذه الآية الكريمة؟ فهل جاء إسحاق قبل أمه أم بعدها زمنياً؟ و أليس هذا بالضبط ما قصده زكريا في مناجاته ربه؟

- ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: 5]

و أليس هذا ما يفهم من سياق الحديث على من أشرف على الموت ولم يستعد له كما أمره الله؟

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون: 99-100]

فهل تتحدث هذه الآيات باستخدام كلمة "وراء" هنا عن ما كان أم عن ما سيكون؟

**ثالثاً**: وقد يحتج البعض بالقول أنّ هذا معنى "وراء" الزمانية، فماذا عن وراء المكانية؟ فهل تعني كذلك أمام؟ نقول نعم بكل تأكيد، ولنقرأ الآية الكريمة التالية لنتعرف على هذا المعنى الذي تحمله كلمة "وراء" المكانية:

- ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشورى: 51]

والسؤال هو: كيف يحدث الخطاب بين المخِاطب والمخَاطب؟ ألا يكون المخِاطب وجهاً لوجه مع المخَاطب؟ والفرق الوحيد هنا هو وجود الحاجز بين الله (المخِاطب) والبشر (المخَاطب). وإذا ما صح هذا الافتراض، فإننا نستطيع القول إذاً أنّ كلمة وراء تحمل معنى "قدام"، "أمام". وقد يقول قائل ولكن الله يمكن أنْ يخاطب من يريد من أي اتجاه، فيمكن أن يتم الخطاب هنا حتى من الأعلى إلى الأسفل، فقد لا تحمل كلمة وراء إذاً هذا المعنى، فنرد على ذلك بالقول أنّ هناك آيات أخرى يمكن الاستشهاد بها لإثبات أنّ كلمة وراء تعني "قدّام"، قال تعالى:

- ﴿... وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب: 53]

ألا يعني ذلك أنّ الخطاب يتم مواجهة بالرغم من وجود الحاجز؟ وهذا بالضبط ما نحاول أن نبيّنه: إنّ كلمة وراء هنا لا تعني بأي حال من الأحوال "خلف".

فالأمر الذي نسعى لإثباته (وهو عكس ما درج عليه الفهم العام للكلمة) هو أنّ كلمة وراء لا تحمل دلالات سلبية وذلك لانّ لها استخدامات متعددة، جميعها تفضي إلى الغرض المقصود من الآية الكريمة، واليك توضيح معنى الآية الكريمة كما أفهمها بحول الله.

**أولاً**، لقد جاءت كلمة وراء هنا لتدل على الاستقبال الزمني، فهي تتحدث عن شأن الكافرين في الآخرة، ولنقرأ الآية الكريمة في سياقها القرآني:

- ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾ [البروج: 19-20]

**ثانياً**، لقد جاءت كلمة "وراء" هنا في سياق الحديث عن عقاب الله، ونحن جميعاً نعلم شدّته:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]

فالضربة إذا جاءت من الخلف كانت أوجع وأبلغ، كأنْ نقول "أن الجيش أخذ العدو من ورائهم" أي من الخلف"، فهذا يعطي عنصر المفاجئة والسرعة والقوة، وأكثر من ذلك بالطبع هو عذاب الله، ولننظر إلى الروعة والدقة القرآنية في تصوير هذا المعني بقراءة السياق الأوسع الذي وردت به كلمة "وراء":

- ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾ [البروج: 12-20]

**ثالثاً**: لقد استخدمت كلمة "وراء" في سياق العقاب هنا لتدل (كما أظن) على معنى آخر غاية في الدقة والروعة، وهو عدم القدرة على رؤية المعاقِب، فالله سيأخذ الكافرين مفاجأة من الخلف ودون أنْ يستطيع الكافرون رؤية الله وهو الفاعل أو حتى رؤية مصدر العقاب، وقد يقول قائل وكيف ذلك؟ فنقول دعنا نقرأ الآية الكريمة التالية:

- ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر: 14]

فالآية تشير أنّ الكافرين لا يقاتلون إلاّ من وراء جدر، والسؤال الذي نود إثارته هو: ما معنى "وراء" بالنسبة للجدار؟ وبكلمات أدق، أي جانب من الجدار يكون "وراء"؟ أليس هو الجانب الذي لا تكون أنت من قبله؟ أي إذا كنت أنت في هذا الجانب، كان "الوراء" بالنسبة لك الجانب الآخر، وإذا كنت في الجانب الآخر كان الوراء بالنسبة لك هو الجانب الذي لا تراه مباشرة بأم عينك، وهكذا. وقد يقول قائل وما علاقة ذلك بالآية الكريمة " وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ"؟ فنقول إنّ العلاقة مباشرة، فلقد ذكرنا سابقاً أنّ الآية الكريمة تتحدث عن شدة عقاب الله للكافرين، فهو سيأخذهم مباغتة من الخلف لتكون الضربة أسرع وأقوى وحاسمة، ويزيد من روعة التصوير القرآني المعنى الجديد الذي نستطيع أنْ نستقصيه من عبارة "من وراء جدر" وهو عدم قدرة المعاقَب رؤية المعاقِب، فإذا نظر المعاقَب إلى هذه الجهة كان عقاب الله من الجهة الأخرى، وإذا ما التفت إلى الجهة الأخرى تحول العقاب ليكون مصدره من الجهة الثانية، فبقى من وقع عليه العقاب (أجارنا الله وإياكم منه) يلتفت ليعرف مصدر العقاب، فلا يعطيه الله هذه الفرصة وذلك لأنّ العقاب يأتي دائماً من "الوراء". وما أجمل التصوير القرآني الذي يثبت بما لا يدع مجالاً للريبة أنّ كلمة وراء تعني أي جهة يكون المصدر فيه مخفياً، ولنقرأ معاً الآية القرآنية التالية التي تحمل (في ظننا) هذا المعنى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الحجرات: 4]

والسؤال البسيط هنا هو: كيف يكون النداء من وراء الحجرات؟ أي هل هناك مكان ثابت يمكن أنْ يقف به الشخص لينادي على من هو داخل حجرة ما؟ أنني لا أعتقد ذلك، فصحيح قد يقف الشخص أمام البيت وينادي على ساكنيه، ولكنه قد ينادي أيضاً وهو يقف خلف الدار أو حتى بجانبها حسب صفة الدار وجغرافيتها، فقد يتم النداء إذاً من أي نقطة حول الحجرة ما دام الصوت قد يصل إلى من هو داخل الحجرة. ولكن أظن أنّ المناداة على ساكن الدار تكون من أمام المنزل خصوصاً وأنَ من أخلاقيات هؤلاء القوم أنْ يمتثلوا لقول الله سبحانه وتعالى:

- ﴿* يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة: 189]

إنّ المراد من القول إذاً أنّ كلمة وراء لا تعني بأي حال من الأحوال فقط "خلف" بدلالاتها وإيحاءاتها السلبية، بل هي كلمة "وراء" ذاتها بمعانيها الوفيرة التي ما ذكرنا منها في هذه العجالة إلاّ النزر اليسير، والسؤال الذي ربما بحاجة لإجابة شافية هو: ما هي الكلمة التي يمكن أنْ تحل محل هذه الكلمة في هذا السياق القرآني؟! أخال أني لا أعرفها لا باللسان العربي ولا باللسان الأعجمي.

**بقلم د. رشيد الجراح**
**مركز اللغات، جامعة اليرموك، الأردن**